

دكتور قاسم عبده قاسم

ماهية الحروب الصليبية

ماهية الحروب الصليبية

ماهية الحروب الصليبية

(الأيديولوچية - الدوافع - النتائج)

تأليف
دكتور قاسم عبده قاسم

١٩٩٣



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6. Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

إهـــداء

إلى نهى

حلاوة العسل، ونقاء اللبن، وضياء القمر.

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

لاتزال الحركة الصليبية، مقدماتها وتاريخها ونتائجها، مصدر جذب للباحثين والمؤرخين. وأخرجت أقلام النساخين والمطابع كتباً وأبحاثاً ومؤلفات عديدة تحمل كلها عناوين «تدور» حول «الحروب الصليبية» بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من أن أدبيات الحروب الصليبية فى الغربالأوروبى كثيرة ومتنوعة؛ فإن جوانب كثيرة من تاريخ هذه الظاهرة الفريدة لاتزال بحاجة إلى البحث والتنقيب. وفى التدوين التاريخى العربى لاتزال أدبيات الحروب الصليبية تدور فى الغالب الأعم حول أحداث المعارك ووقائع الحروب، ولا يزال الإهتمام برصد الظاهرة من منظور يهتم بالسببية التاريخية، ويحاول استقصاء نتائجها وحصادها، محدوداً للغاية.

ولسنا ندعى أننا نأتى فى صفحات هذه الدراسة بكشف جديد فى تاريخ الحروب الصليبية، ولكننا نحاول رصد الظاهرة فى إطار يعالج الأيديولوچية التى أفرزتها، والدوافع والأسباب التى دفعت عجلة أحداثها، والظروف التاريخية التى أحاطت بها، ثم حصادها فى العالم العربى الذى عانى من جراء وقائعها على مدى أكثر من قرنين من الزمان. وعلى الرغم من هذا فقد حرصنا على استعراض الوقائع والأحداث التاريخية بإيجاز حول محور الفعل ورد الفعل، وحاولنا تركيز الضوء على معادلة هامة فى تاريخ المنطقة العربية، ومؤداها أن العمل المشترك والتنسيق، والحد الأدنى من الوحدة كانت شروطاً لازمة للنجاح والنصر. على حين كان التشرذم والتنازع والتخاصم سبباً رئيساً من أسباب الهزيمة.

وبينما نعترف للسابقين من الأساتذة والزملاء بفضلهم الكبير والرائد فى دراسة

تاريخ الحركة الصليبية فى الأدبيات العربية، فإننا نرجو أن تكون مساهمة هذا البحث الذى نقدمه للقارئ العربى مفيدة، وأن تكون إضافة إلى صرح نرجو أن يستمر فى النمو حتى يوازن الدراسات الأوروبية لتاريخ الحروب الصليبية. وهذا الأمل يقوم على مشروعية علمية وقومية هى أننا كنا الطرف الذى وقع عليه العدوان الصليبى، ودفع الثمن من رفاهيته وتقدمه ونموه الحضارى من جهة، وأننا نتعرض لهجوم حركة مماثلة، ولكن فى مصطلحات صهيونية من جهة أخرى. والله الموفق والمستعان.

المؤلف

الفصل الأول

فكرة الحروب الصليبية : منظور تاريخى

مدخل - المصطلح واختلاف مدلولاته - ينابيع الفكرة الصليبية فى ثقافة أوروبا في العصور الوسطى - الأفكار الألفية ونهاية العالم - الحج المسيحى وتطور فكرة الحج المسلح - الغفران الصليبى وأطواره التاريخية - الحرب العادلة والحرب المقدسة - سوابق الحروب الصليبية - نضج الفكرة الصليبية - الاستخدام السياسى للحملة الصليبية.

ربما لم يعرف التاريخ الإنسانى ظاهرة تاريخية حملت مصطلحا مناقضالحقيقتها مثل «الحركة الصليبية». هذا المصطلح المضلل المربك كان نتاج عدد من التطورات التاريخية، والمفارقات المدهشة، فى التاريخ الأوروبى وفى التاريخ العربى على حد سواء.

لقد بدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥م بالخطبة التى ألقاها البابا اربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) فى حشود المستمعين الذين اجتمعوا في حقل فسيح فى أوفرينى بكليرمون فى جنوب فرنسا. وكانت هذه الخطبة الشهيرة خاتمة مجمع دينى عقده البابا، وجمع الأساقفة لمناقشة أحوال الكنيسة الكاثوليكية المتردية. وكانت الدعوة التى وجهها البابا بشن حملة تحت راية الصليب ضد المسلمين فى فلسطين بمثابة إذن الدخول إلى رحاب التاريخ. ومنذ ذلك الحين كانت الحركة الصليبية - ولا تزال - مثار جدل ونقاش، وموضعا للبحث والدراسة، وإلهاما للفن والأدب. ويندر أن نجد فى تاريخ الإنسانية ظاهرة كان نصيبها من الخيال والدراسة معا مماثلا لنصيب «الحركة الصليبية».

هذه الحركة كانت واحدة من القوى الكبرى التى حركت تاريخ الغرب الأوروبى؛ إذ إن الحركة الصليبية ظلت تحكم الأفكار والمشاعر فى الغرب الأوروبى فيما بين سنة ١٠٩٥م وسنة ١٤٠٠م بصورة شاملة، وبحيث لا نكاد نجد كاتبا معاصرا لم يشر فى كتاباته إلى إحدى الحملات الصليبية، أو إلى مصير الدويلات التى قامت أثناءها فوق الأرض العربية، كما ظلت للحروب الصليبية جاذبيتها فى أوروبا الغربية حتى القرن الثامن عشر. فبالنسبة لخمسة عشر جيلا من أبناء الغرب الأوروبى كانت الحروب الصليبية تشكل جزءا حيا وحيويا من عالمهم؛ إذ إن مئات الألوف منهم قد شاركوا بأنفسهم فى حملة أو أكثر من الحملات الصليبية، كما أن آلافا عديدة من أبناء الغرب الأوروبى ساهموا بأموالهم فى تمويل حملة أو أكثر من هذه الحملات. ومن ناحية أخرى، كانت أحداث الحروب الصليبية تشغل بال الكثيرين ممن لم يشاركوا بالنفس أو بالمال.(١)

أما العالم العربى فقد كان الطرف الذى وجهت إليه أوروبا الكاثوليكية عدوانها تحت راية الصليب. وعلى مدى الفترة ما بين أواخر سنة ١٠٩٦م، وسنة ١٢٩١م قامت عدة مستوطنات صليبية على التراب العربى فى فلسطين وأعالى بلاد الشام والجزيرة. وتعين على سكان هذه المنطقة العربية أن يدفعوا ثمنا فادحا لكى يقضوا على الكيان الصليبى من جهة، ويتصدوا للمشروعات والغارات اصليبية المتأخرة من جهة أخرى. لقد كانت «الحروب الصليبية» أو حروب الفرنج، كما سماها العرب الذين عاصروها ، سببا رئيسا من أسباب تعطل قوى الإبداع والنمو فى الحضارة العربية الإسلامية. وبعد نهاية النضال ضد الصليبيين دخلت المنطقة العربية فى منحنى التدهور والأفول الذى أدى بدوره إلى سقوط العالم العربى تحت السيادة العثمانية. وإذ كان العثمانيون قد حافظوا على العالم العربى من السقوط فى براثن السيطرة الاستعمارية على مدى ثلاثة قرون على الأقل؛ فإنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لبث الروح فى جسد

(١) Jonathan Riley-Smith, What were the Crusades?, (London, 1977) p. 11.

الحضارة العربية الإسلامية المسجى. ثم انتهى هذا التوقف الحضارى إلى نهايته المحتومة التى أدت إلى حال الاستعمار والتبعية التى لا نزال نعانيها حتى اليوم. إذ إن أحدا لا يمكن أن يتجاهل علاقة ما جرى منذ عدة قرون بما يحكم اليوم علاقتنا بالغرب الأوروبى والأمريكى، كما أن أحدا لا يستطيع أن يغض النظر عن حقيقة أن «الحملات الصليبية» ضد الشرق العربى كانت أول المشروعات الاستعمارية الأوروبية من ناحية، وأنها كانت «السابقة» أو «التجربة» التى سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية؛ فضلا عن أنها كانت إلهاما للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من جهة ثالثة.

وهذا، فى تصورى، ما يجعل «الحركة الصليبية» جديرة بالدراسة والتأمل.

أولى مشكلات البحث فى تاريخ «الحركة الصليبية» تتمثل فى المصطلح ومدلولاته المختلفة التى تؤدى بالضرورة إلى حال من الفوضى والارتباك، لاسيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضا بين دلالته اللغوية، وحقيقته التاريخية. لقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالى قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها. والناظر فى ماجريات وقائعها يجد مزيجا من القسوة والوحشية والتدين العاطفي الذى يشوبه التعصب، ويكتشف فى ذلك كله تناقضا مع الصليب، رمز الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل الآخرين،[٢] ولم يكن الصليب أبدا رمزا للحرب والقتل والعدوان.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح «الحملة الصليبية» أو «الصليبيين»، إذ لم يحدث سوى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى أن ظهرت الكلمة اللاتينية (Crusesignati) ومعناها «الموسوم بالصليب» لكى تعبر عن الصليبيين، لأنهم كانوا يخيطون صلبان القماش

---

(٢) جاء فى أنجيل متى (١٦ : ٢٤)، «إن أراد أحد أن يأتى ورائى، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى».

على ستراتهم.[٣] ولم يحدث حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى أن كانت هناك كلمة لاتينية تعنى «الحركة الصليبية». وفى بداية الأمر كان من يشاركون فى الحملة الصليبية يوصفون بأنهم «حجاج» (Preregrini)، وغالبا ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة (Peregrinatio) ومعناها «رحلة الحج» التى كانت شائعة تماما فى الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية. كذلك استخدمت كلمة (Expeditio) التى تعنى «الحملة»، وعبارة «الرحلة إلى الأرض المقدسة» (Iter in terramsanctam)، واصطلاح «الحرب المقدسة» (Bellum Sacrum) - (Guerre Saint)، كما استخدمت عبارات ومصطلحات مثل «الحملة العامة» (passagim general) أو «حملة الصليب» (expeditio curcis)، أو «مشروع يسوع المسيح» (Negotium Jhesus Christi). وفى وسعنا أن نسوق عشرات الأمثلة المستقاة من كتابات المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية، ولاسيما فى أطوارها الأولى.[٤] بل إنه مما يلفت النظر حقا أن عناوين مؤلفاتهم جميعا خلت من ذكر كلمة «الصليبيين»، أو «الحملة الصليبية»؛ وإنما دارت حول «الحملة»، و«حجاج بيت المقدس»، و«الفرنج»... وما إلى ذلك.[٥]

---

(٣) بدأت هذه الممارسة عقب خطبة البابا أربان الثانى فى كليرمون، إذ أسرع الفرنج «... بمجرد سماع هذه الكلمات يخيطون الصليب على الكتف الأيمن لعباءاتهم قائلين : إنهم جميعاً سوف يقتفون أثر خطوات المسيح...» أنظر :

Gesta Francorum et aliorum Hierosolymintonorum; The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem (ed. and transl. by Rosalibd M. Hill, London, 1962), pp. 1-2.

(٤) أنظر على سبيل المثال :

Fulcher de Chartres, Historia Hierosolymitana; A History of the expedition to Jerusalem 1095-1127 (transl. by Francis Rita Ryan - with an introduction by H.S. Fink, Knoxville, 1961) pp. 71-4, and passim; Gesta Francorum, pp. 7-12; Raymond d'Aguilers, "Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem", in RHC, Occ., III, passim.

(٥) راجع عناوين المصادر اللاتينية للحركة الصليبية فى :

Atiya, A.S., The Crusades, Historiography and Bibliogrphy, (London 1962).

ومن المهم أن نشير إلى أن الكلمة الإنجليزية (Grusade) والكلمة الألمانية (Kreuzzag) قد ابتكرتا في القرن الثامن عشر فقط، وبعد أن كان البحث التاريخى فى الحروب الصليبية قد مضى شوطا منذ بدأ توماس فوللر (Thomas Fuller) الإنجليزى فى القرن السابع عشر أول دراسة باللغة الإنجليزية حول الحركة الصليبية فى كتابه باللغة الإنجليزية القديمة واسمه (Historie of the Holy Warre) . والملاحظ أنه استخدم عبارة «الحرب المقدسة» أيضا.[٦]

وعلى الرغم من الفشل النهائى الذى منيت به الحركة الصليبية فإن المثال الصليبى تحول بمرور الوقت - تحت تأثير وسائل الإعلام التى عملت فى خدمة الأهداف الاستعمارية الأوروبية - إلى مثال براق يوحى بالشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المثل الأعلى. واستقر فى الوجدان الشعبى الأوروبى (والأمريكى) أن «الحملة الصليبية - Crusade» لابد من أن تكون بالضرورة حملة خيرة، نبيلة القصد والهدف، منزهة الغرض مثل : رعاية المرضى، أو مساعدة المنكوبين، أو جمع التبرعات.. وما إلى ذلك. وربما يكون الموروث الشعبى المتداول حولها فى«أغنيات الحروب الصليبية Les Chanson des Groisades»[٧] التى راجت فى ذلك العصر، واستمرت موجودة بعد ذلك تحكى قصة الحروب الصليبية شعرا وغناء للجماهير الأوروبية الجاهلة، باعتبار ذلك بديلا من كتب التاريخ التى سجلت قصة الحروب الصليبية. نقول : إن هذا الموروث الشعبى الذى حملته الأغنيات الشعبية عن الحروب الصليبية ربما كان وراء هذه

---

(٦) أنظر :
The Crusades Motives and Achievements, (edited with an introduction by James A. Brundage, Boston, 1964), pp. 1-3.

حيث أورد الناشر نصاً من كتاب فوللر بعنوان :
The Crusades : What was their justification ?

أنظر أيضاً :
H.E. Mayer, The Crusades, (transl. by Gillingham, Oxford, 1972), p. 15; Riley-Smith, What were the Crusades, p. 12.

(٧) Joseph Bedier et Pierre Aubry (eds.), Les Chansons des Croisades avec leurs melodies, (Paris, 1909).

الصـورة الأخـاذة التى ترتسم فى أذهان عـامـة الناس في أوروبا والولايات المتـحـدة الأمريكية حين ترن فى آذانهم عبـارة «الحروب الصليبيـة». فقد تخلت الأغنيات / الحكايات عن الحقيقة التاريخية لصالح التعويض النفسى والتفسير الشعبى لتلك الظاهرة التى كانت تمثل فى حينها حلما من أحلام الفقراء.[٨]

ولعل هذا ما جعل مؤرخا مثل نورمان كانتور يقرر أن الحادث الوحيد الذى يعرفه الخريج العادي من الجامعات الأمريكية عن العصور الوسطى هو الحملة الصليبية الأولى التى بدأت أحـداثهـا سنة ١٠٩٥م، والتى يرسم لهـا فى ذهنه صـورة براقـة أخاذة.[٩] وهذا الموقف ينسحب على الفرد العـادى أيضا فى الغرب، بل إننا كثيرا ما نرى قادة الرأى والساسة الغربيين يستخدمون مصطلح «الحملة الصليبية» بهذا المفهوم النبيل والخير والعادل.

بيد أن المؤرخين الماركسيين فى الاتحاد السوفييتى السابق ودول أوروبا الشرقية لا يشاطرون أبناء الغرب الأوروبى هذا الموقف من «الحروب الصليبية»؛ فقد عانت بلاد البلقان من وحشية الصليبيين على نحو ما سنوضح فى حديثنا عن الحملة الشعبية والحملة الأولى، كما راحت الامبراطورية البيزنطية وأملاكها ضحية الحملة الصليبية الرابعـة فى مطلع القـرن الثـالث عـشـر الميـلادى، وظلت هذه المناطق تئن تحت وطأة الصليبيين أكثر من نصف قرن من الزمان. ومن ناحيـة أخرى، كـان ماركس وانجلز ولينين يرون - ولهم كل الحق فى ذلك - أن «الحـمـلات الصليبيـة» كـانت مـشـروعـات استعمارية استيطانية تهدف إلى استعباد الشعوب تحت راية الصليب. وقد جسد لينين هذه النظرية حين اعتبر الإجراءات التى اتخذت عشية الحرب العالمية فى أيرلنده ضد العمـال «حملة صليبيـة» ضد العمـال وحقوقـهم. وقد درج الماركسيـون على تضمين

---

(٨) أنظر ما يلى عن الحملة الشعبية.

(٩) نورمان كـانتور؛ التـاريخ الوسيط : قصة حضـارة - البداية والنهاية (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، دار المعارف، ١٩٨٦)، الطبعة الثانية، جـ٢، ص ٣٩١-٣٩٢.

مصطلح «الصليبية» معنى مجازيا سلبيا فى كل كتاباتهم.[١٠]

وفى الأدبيات العربية التى تناولت تاريخ الحركة الصليبية نجد مفارقة مدهشة. فعلى الرغم من أن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا الهجوم الصليبى على المنطقة العربية وكتبوا عنه (مثل : ابن القلانسى، وابن الأثير، وابن العديم، وابن واصل، وابن شداد، والعماد الأصفهانى، والمقريزى، والقلقشندى، وابن تغرى بردى، وبدر الدين العينى.. وغيرهم) لم يستخدموا أبدا مصطلحات مثل «الصليبيين»، أو «الحملة الصليبية»، أو «الحرب الصليبية»، وإنما تكلموا عن الصليبيين بعبارات مثل «حركة الفرنج»، كما وصفوهم على الدوام بكلمة «الفرنج» على الرغم من أن كثيرين من أولئك المؤرخين المسلمين كانوا يفرقون بين الألمان والإنجليز وغيرهم من شعوب أوروبا الغربية.

حقيقة أن المؤرخين المسلمين الأوائل، مثل : «ابن القلانسى»، «وابن الأثير»، لم يدركوا أبعاد الحركة الصليبية؛ لأنهم لم يروا غير إفرازاتها العسكرية والسياسية الباكرة على أرض الشرق العربى، ولكن الجيل التالى من المؤرخين المسلمين تحدثوا عن هذه الحركة بطريقة تدل على فهم أوضح وأشمل. ولعل هذا هو ما جعلهم لا يربطون بين «حركة الفرنج» والمسيحية والصليب على أى نحو. وربما يكون مؤرخو القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هم آخر من تناول «حركة الفرنج» بشكل أو بآخر، لاسيما وأن الكيان الصليبى كان قد انتهى فى العقد الأخير من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى).

وقد توقف البحث التاريخى فى العالم العربى فترة طويلة بفعل التخلف والركود الثقافى اللذين أحاطا بكافة جوانب الحياة العربية حتى القرن التاسع عشر على أقل تقدير. وعندما بدأت من جديد محاولات النهوض الثقافى والفكرى كان لابد للرواد من

---

(١٠) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، (دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦)، ص ٥-٩.

أن يتأثروا برقى الفكر والثقافة والعلم فى أوروبا. ولم تنج الدراسة التاريخية من تأثير الانبهار الذى جعل الكثير ممن تصدوا لكتابة التاريخ أتباعا لهذه المدرسة الأوروبية أو تلك. وفى خضم هذا الانبهار أيضا تمت ترجمة بعض المصطلحات، واستعيرت تقسيمات التاريخ الأوروبية، كما سادت الرؤية الاستشراقية.. إلخ. بيد أن هذا الأمر لا يهمنا فى هذا المقال سوى من حيث تأثيره فى معالجة المؤرخين العرب لقصة الحروب الصليبية، إذ وقع أولئك الكتاب فى شباك الترجمة عن الأوروبيين؛ وبدأوا يستخدمون مصطلح «صليبى»، «وحملة صليبية»، و«حروب صليبية» فى تناولهم للظاهرة التى درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلحات «الفرنج»، و«حركة الفرنج». ووجه الخطورة فى هذا المصطلح عندما يستخدم فى اللغة العربية أنه يوحى بأن الحركة كانت حركة دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تضعها فى إطارها الصحيح باعتبارها مغامرة استيطانية متعصبة. ومن ناحية أخرى، فإن استخدام هذا المصطلح يظلم المسيحيين الشرقيين الذين عانى قسم كبير منهم من وحشية الفرنج وعدوانهم.

وعلى الرغم من هذا كله فإننا لا نستطيع بسهولة التغاضى عن هذا المصطلح الذى رسخ فى الدراسات التاريخية العربية، وأصبح له مدلول تاريخى لدي المتخصصين، لسبب بسيط هو أنه لم تجر حتى الآن مناقشة جماعية لتحديد ماهية «الحركة الصليبية» من وجهة النظر العربية. ولا يزال المصطلح غامضا بالنسبة لعامة المثقفين فى العالم العربى، بحيث يستدعى إلى الذهن بعض الأحداث أو الشخصيات البطولية التى ارتبطت بهذه الأحداث، وحسب.

وسوف نحاول، فى هذا الفصل، تحديد الخطوط العامة لماهية «الحركة الصليبية» من خلال مناقشة الجذور التاريخية للفكرة الصليبية، وتتبع تطورها التاريخى فى العقلية والوجدان الأوروبيين بسماته الثقافية المعروفة فى العصور الوسطى.

لقد كانت الأفكار التى تدور حول نهاية العالم بعد الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب، والأفكار التى تتعلق بالعالم الآخر، أحد ينابيع الفكرة

الصليبية. فقد شاعت فى أوروبا الغربية قرب نهاية القرن العاشر الميلادى وفى بداية القرن الحادى عشر الميلادى أفكار، وحكايات، وقصص، وأساطير تتحدث عن قرب نهاية العالم مع اكتمال الألف الأولى بعد المسيح (حوالى سنة ١٠٣٣ ميلادية). وقد ظهر فى عدة أماكن فى أوروبا الغربية بعض ظواهر فلكية وطبيعية اعتبرها الناس دليلا على اقتراب نهاية العالم. فقد حدثنا «رالف جلابير» الراهب الفرنسى عن ثوره بركان فيزوف فى إيطاليا باعتبارها «نذيرا باقتراب القيامة، وبأن زمن الهلاك وشيك يتهدد أرواح البشر». كما تحدث عن مجاعة رهيبة «... استمرت خمس سنوات فى شتى أنحاء العالم الرومانى، بحيث لم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز، ومات كثيرون بسبب الجوع...». وقال إن الأوروبيين اضطروا إلى أكل الحيوانات والزواحف القذرة، كما أكلوا لحوم البشر.[١١] كما تداول الناس فى غرب أوروبا كثيرا من القصص والحكايات المشابهة وفسروها التفسير نفسه. لقد كان مفهوم الأوروبيين آنذاك مُثقلا بالعناصر الغيبية. إذ كانت العقيدة الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية لاتزال بعيدة عن تحديد إطارها بشكل متكامل، ولم يكن الأساقفة والقساوسة، غالبا، يصلحون لوظائفهم؛ سواء من حيث مستواهم الفكرى، أو من حيث سلوكهم وأخلاقهم، كما أن الغرب الأوروبى ظل حتى ذلك الحين ريفى الطابع، وكان الدين بالنسبة لسكانه (وهم أغلبية سكان أوروبا آنذاك) مزيجا من الخرافة، وطقوس عبادة الطبيعة، وبعض تعاليم المسيحية.[١٢]

---

(١١) Ralph Glaber, Histotiarum Libri Unique: The Five Books of History Extracts in : The High Middle Ages 1000-1300, edited by : Bryce D.Lyon, (U.s.A. 1964), pp. 34-5

أنظر الترجمة العربية الكاملة لهذا النص فى :
قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية : نصوص ووثائق الحملة الأولى (القاهرة، ١٩٨٥)، ص ٤٣-٤٨.

(١٢) G.G. Coulton, The Medieval Scenes, (Cambridge, 1930), pp. 23-6; Sidney Painter, "Western Europe on the eve of the Crusades", in Setton (ed.), A History of the Crusades, (The University of Wisconsin Press, 1969), I, p. 6.
أنظر أيضاً : قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، (الكويت ١٩٨٨)، ص ٩٧-١٠٠.

وفى ظل هذا الجو النفسى والفكرى الذى ساد أوروبا الكاثوليكية فى القرن الحادى عشر الميلادى، كان طبيعيا أن ترد الظواهر الطبيعية إلى قوى غيبية من ناحية، وأن يتم ربطها باقتراب نهاية العالم والأفكار الألفية والأخروية من جهة أخرى. فقد كثر الحديث عن السماء التى تمطر نجوما هنا أو هناك، وراجت حكايات عن الأنوار الشمالية المبهرة، والشهب الملتهبة فى السماء، كما شاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأربع أيدٍ أو مثلها من الأرجل، وقصص عن أطفال تكلموا عقب ولادتهم. وتناقل القرويون، وغيرهم، حكايات عن مدينة القدس وهى تتجلى فى السماء متلألئة أمام عيون الرعاة المبهورين، وذلك القس الذى رأى سيفا معلقا فى السماء تحمله الريح، والقس الآخر الذى رأى فى صفحة السماء، وفى وضح النهار، معركة بين فارسين ينتصر أحدهما على الآخر بعد أن يضربه بسيف كبير(١٣)... وحكايات كثيرة صدقها البسطاء، وحاول المتعلمون أن يفسروها فى ضوء ما اعتبروه علامة على قرب نهاية العالم.

لقد كان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك المشاعر الألفية والأخروية تواقين لضمان الخلاص. وقد تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس (Iter Hyerosolimitanum) وقد انعكس ذلك فى زيادة عدد الرحلات التى قام بها الحجاج من غرب أوروبا صوب القدس فى السنوات القليلة التى سبقت وتلت الألف الأولى بعد ميلاد المسيح. ولا يمكن لمن يقرأ أدبيات القرن الحادى عشر الميلادى أن يخطئ تلك النغمة الألفية والأخروية التى كانت بمثابة الإيقاع الدال فى الفكر والمشاعر السائدة آنذاك.

ومما يلفت النظر حقا أن هذه الرؤى والأحلام المقدسة والأخبار الإعجازية قد تضاءلت أخبارها بعد أن دارت عجلة الحروب الصليبية بالفعل. إذ شاعت تلك الأخبار

(١٣) Ralph Glaber, op. cit., pp. 36-9; Alphandery, La Chretiente et 1, idée des croisades - Les Premiér Croisades, (Paris, 1954), pp. 24-6; Thomas Keightley. The Crusades; or scenes, Events and Characters from the times of the Crusade, (London, 1879), pp. 27-8.

والحكايات قبل رحيل الحملة الصليبية الأولى، وأثناءها. وطالما كانت الظروف والأحوال مواتية للصليبيين لا نجد في مؤرخات اللاتين الذين كانوا ضمن شهود الحملة إلا القليل من هذه الأخبار. فإذا تأزمت الأمور وضاقت السبل بالصليبيين ظهرت أخبار المعجزات والخوارق والأحلام الدينية في الوقت المناسب، على نحو ما حدث أثناء حصار أنطاكية المزدوج سنة ١٠٩٨م.[١٤] ومن المثير حقا أن من تنسب إليهم تلك الأحلام الدينية والرؤى المقدسة كانوا دائما من الفقراء.

وفيما بين سنة ١٠٩٦م وسنة ١٠٩٨م لا نجد في المصادر اللاتينية سوى أخبار قليلة عن هذه الرؤى والأحلام. بيد أن النظرة الأخروية صاحبت الحملة الصليبية منذ بدايتها، لاسيما عندما كان الفقراء يتصورون أنهم المقصودون بهذه الدعوة. فقد تبلورت فيهم الأفكار الألفية والأخروية، فساروا صوب القدس دون انتظار الأمراء وفرسانهم الذين كانت تعوزهم فسحة من الوقت لتمويل الحملة. وكانت أخبار الإشارات المقدسة مثل : هجوم الجراد بشكل وبائي، والنجوم التى أمطرتها السماء، وغيرها من الأخبار التى تداولها الناس آنذاك، ترتبط بما جاء في سفر الرؤيا،[١٥] وكانت تدور

---

(١٤) هذه إشارة إلى العثور على حربة أثناء حصار أنطاكية زعموا أنها الحربة التى اخترقت جسد المسيح عليه السلام، بعد رواية قصة حلم قسيس مصاحب لريمون دى سانجيل. وقد شك الصليبيون بعد ذلك في كذبه، أنظر :

Gesta Francorum, pp. 57; William of Tyre, "A History of the deeds done beyond the sea, (transl. and annonated by : Emily Atwater, Babcock and A.C. Krey, Colombia University Press, (943), I, p. 266; pp. 289-290.

أنظر الترجمة العربية لرواية ريمون الأجويلرى عن هذه الحادثة : قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق، ص ٢٢٦-٢٣٨.

(١٥) جاء فى سفر دانيال الإصحاح الثانى (٣١ - ٤٥) تفسير لحلم الملك نبوخذ نصر الذى رأى فى منامه تمثالا » رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف» ثم «قطع حجر بغير يدين» هشم التمثال. وقد ربط دانيال بين هذا الحلم ونهاية العالم». وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تتعرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهى تثبت إلى الأبد».

وقد ربط الناس بين ما جاء فى هذا السفر وما كان يحدث فى أيامهم، كما ربطوا أيضاً بين رؤيا دانيال عن الوحوش الأربعة فى السفر نفسه (الإصحاح السابع)، وما اعتبروه علامة على قرب نهاية العالم.

على ألسنة البسطاء والمتعلمين فى غرب أوروبا الكاثوليكية باعتبارها حقائق.

ويخبرنا «بلدريك الدوللى»[١٦]، (Baldric de Dol) أن هذا الجسو الذى ارتبط بسفر الرؤيا لم يكن نتيجة الدعوة الرسمية التى وجهتها البابوية إلى الفرسان الإقطاعيين للمشاركة فى الحملة الصليبية، وإنما كان نتيجة استجابة الفقراء السريعة التى نجمت عن معاناتهم بسبب تدهور المحاصيل فى السنوات القليلة التى سبقت خطبة البابا أربان الثانى. إذ كان من السهل عليهم أن يرحلوا عن بلادهم بحثا عن خلاصين : دنيوى وأخروي، وبحثا عن سبيل يوصلهم إلى مستقبل أفضل؛ وهو مستقبل حملته الجموع الجاهلة بأحلام أخروية غامضة. ولاشك فى أن أغلبية أولئك الفقراء كانوا يؤمنون بأنهم المختارون.

ولأنهم كانوا يؤمنون بهذا، لم يترددوا فى الضغط على قادة الحملة الصليبية الأولى (كما سنوضح فى الفصل الثالث من هذه الدراسة). ومن ناحية أخرى، فإن زعماء مثل ريمون دى السانجيلى قد استثمروا هذه المشاعر الألفية والأخروية التى سادت بين عامة الصليبيين لحسابهم، على نحو ما فعل هذا الأمير الصليبى فى قصة اكتشاف «الحربة المقدسة»، كما أوضحنا.

بيد أنه ينبغى علينا ألا نبالغ فى قيمة الأفكار الألفية والأخروية. ويأتينا الدليل من الحوليات والمؤرخات اللاتينية التى ساهم كتابها أنفسهم فى صياغة الأيديولوچية الصليبية، فقد كتب أولئك المؤرخون جميعا بعد نهاية أحداث الحملة الصليبية الأولى ونجاحها، وهو ما يعنى أنهم كانوا يتوخون أن يصوغوا نموذجا مثاليا يكون عامل جذب دائم فى حالة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة على غرار الحملة الأولى،[١٧] ولم يكن الذين ساهموا فى الحملة الصليبية الأولى يعرفون أنها «الأولى»، أى ستتبعها

---

(١٦) Baldric de Dol, "Historia Jeroslimitan", RHC, Occ., IV, 16-ff.

(١٧) Mayer, The Crusades, pp. 12-13.

حملات أخرى. إذ لم يكونوا واثقين من نجاحها بحيث تتبعها حملات أخرى. ولكنها عندما نجحت أخذ المؤرخون يكتبون قصتها بعد توقف الأحداث، فصاغوا نموذجا مثاليا لها.

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار والتوقعات التى دارت حول اكتمال الألف الأولى فى التقويم المسيحى، وما أفرزته من أخبار المعجزات والخوارق والأحلام المقدسة كانت من روافد الأيديولوچية التى صاغت الحملة الصليبية، فإنها فى التحليل الأخير لم تكن عامل الحسم فى الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية، وإنما كان الفضل فى ذلك راجعا إلى تسليح الحج المسيحى من ناحية، وفكرة المكافأة التى ينالها الصليبى من ناحية أخرى. وقد تمثلت المكافأة فى مفهوم الغفران الصليبى الذى تطور ليصل إلى صكوك الغفران التى ثار ضدها مارتن لوثر بعد قرون قليلة.

والحج المسيحى إلى بيت المقدس وفلسطين ممارسة دينية مسيحية نمت نموا شبه عضوى منذ بداية الوجود التاريخى للمسيحية. فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحيين مثلما هو الحال فى الإسلام فإن الجذب العاطفى نحو الأرض التى شهدت قصة المسيح، ومولد المسيحية، ظل يشد الناس من أتباع هذا الدين بشكل متصاعد مع مرور الزمن.

ففى أيام المسيحية الأولى كانت رحلات الحج المسيحية إلى فلسطين نادرة، إذ إن السلطات الرومانية لم تكن تشجع الحج إلى هناك. فقد كانت القدس نفسها قد دمرت على يد القائد الرومانى تيتوس Titus منذ حوادث سنة ٧٠م، وبقيت أطلالا تنعى من بناها حتى أعاد الامبراطور الرومانى هادريان بناءها وأقام بها معبدا للربة فينوس (Venus Capitolina). وما أن جاء القرن الثالث بعيد الميلاد حتى كان الكهف الذى شهد مولد المسيح فى «بيت لحم» قد صار معروفا للمسيحيين. وبدأ المسيحيون بزيارة الأماكن المقدسة للصلاة ونيل البركة. ثم زادت حركة الحج المسيحية إلى فلسطين بعد انتصار المسيحية بعد أن اعترف بها الامبراطور قنسطنطين الكبير وشريكه ليكينيوس

سنة ٣١٣م. ثم رحلت الإمبراطورة هلينا (Helena)، أم قنسطنطين، إلى فلسطين حيث قيل إنها اكتشفت خشبة الصليب الأعظم، وبنى قنسطنطين، كنيسة الضريح المقدس.[١٨] ونتيجة لهذا تزايدت رحلات الحج، ففى سنة ٣٣٣م قام رجل من بوردو فى فرنسا برحلة حج إلى فلسطين وسجل لنا وصفا لهذه الرحلة.[١٩] وبعد ذلك بوقت غير طويل، قامت امرأة نبيلة من بلاد الغال (فرنسا) بزيارة الأرض المقدسة.[٢٠] وقرب نهاية القرن الرابع الميلادى سافر واحد من كبار آباء الكنيسة الكاثوليكية هو القديس جيروم إلى فلسطين، وهناك لحقت به مجموعة من سيدات إيطاليا الموسرات ممن كن من أتباعه فى إيطاليا. وفى صومعته يبيت لحم كان يستقبل أعدادا متزايدة من المسيحيين الذين جاءوا يسدون إليه واجب الاحترام بعد زيارتهم للأماكن المسيحية المقدسة.[٢١]

هكذا كان المسيحيون، منذ وقت مبكر، يزورون القدس وفلسطين لأنهم يريدون أن «... يقتفوا آثار خطوات المسيح وحوارييه، وخطوات الأنبياء...» ويقول القديس باولينوس St. Paulinus of Nola : إن سبب الحج إلى فلسطين كان «... الرغبة فى رؤية الأماكن التي تجسد فيها المسيح ولمسها، ودينننا يحفزنا إلى رؤية الأماكن التى جاء المسيح إليها...»[٢٢] لقد كان المسيحيون يحجون إلى الأراضى المقدسة لاستعادة

---

(١٨) Steven Runciman, A History of the Crusades, (Penguin Books, 1980), Vol. I, pp. 38-9.

(١٩) The Itinerary of the Bordeaux Pilgrim in : Palestine Pilgrim, Text Society, Vol. I, (transl. by A. Stewart), London, 1896.

وسوف نشير إلى هذه المجموعة اختصاراً بالحروف .P.P.T.S وفقاً لما هو متبع بين الباحثين.

(٢٠) تعرف هذه السيدة أحياناً باسم (Aetheria)، وأحياناً باسم القديسة سيلفيا الاقطانية، ورحلتها ضمن مجموعة حجاج فلسطين أنظر :

The Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine, in P.P.T.S., Vol. I, (transl. by J.H. Bernard), London, 1896; cf. Runciman, op. cit., vol. I, p. 39.

(٢١) Runciman, op. cit., vol. I, p. 39.

(٢٢) John Wilkinson (ed.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, (England, 1977), p. 42.

أفضل ذكريات العهد القديم والعهد الجديد، إذ كانوا يحجون إلى القدس وإلى طريق الأنبياء فى بداية الأمر. ثم ما لبث الحجاج أن تحولوا إلى الضريح المقدس الذى صار محورا لحركة الحج المسيحى.[٢٣] وتخبرنا نصوص كثيرة كتبها حجاج أوروبيون قبل عصر الحروب الصليبية أن بعض الحجاج كانوا يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه[٢٤]، كما كان بعضهم يستحمون فى مياه نهر الأردن التى تم فيها تعميد المسيح.[٢٥]

وقد قامت الأديرة ونزل الضيافة باستقبال أعداد الحجاج المتزايدة. ولم يجف نهر الحجيج بين غرب أوروبا وفلسطين أبدا، حتى بعد الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى القرن السابع الميلادى. ولأن الحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الأساسية «لمن استطاع إليه سبيلا»[٢٦] من المسلمين. ولهذا السبب تعاطف الحكام المسلمون تجاه رحلات المسيحيين الأوروبيين الذين أرادوا الحج إلى القدس. وثمة وثيقة هامة تقوم دليلا على مدى تسامح المسلمين مع الحجاج الأوروبيين، كتبت حوالي سنة ٨٠٨ ميلادية، بها أسماء القساوسة والشمامسة والرهبان فى كنائس القدس وأديرتها.[٢٧]

---

(٢٣) Alphandery, La Chretiente, pp. 20-22.

(٢٤) Theodosius, the Topography of the Land, in Jerusalem Pilgrims, p. 79.

(٢٥) Hugeoburc, Life of St. Willibald, in Jerusalem Pilgrims p. 131.

(٢٦) سورة الحج، آية ٢٧ «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»؛ كما جاء فى قوله تعالى (سورة البقرة، آية ١٩٧) «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب».

(٢٧) عرفت هذه المذكرة باسم «مفكرة بكنائس القدس»، أنظر :
Commeroratorium of the Churches of Jerusalem, in : Palestine Pilgrims, pp.138-139.

ولمزيد من التفاصيل عن حركة الحج حتى القرن العاشر الميلادى أنظر :

Runciman, A. History of the Crusades, vol., I, pp. 39-44.

ومن ناحية أخرى لعبت تجارة «الذخائر المقدسة» دورا هاما فى إثارة الإهتمام بالأرض المقدسة فى الغرب الأوروبى.[٢٨] «والذخائر المقدسة» بالنسبة للمسيحيين هى رفات القديسين، وملابسهم، وأدواتهم الشخصية، وما إلى ذلك. وقد استقر فى أذهان الناس فى الغرب الأوروبى آنذاك، بكل ما ميزه من تدين عاطفى مشوب بالخرافات والخزعبلات، أن الحاج الذى يجلب معه شيئا من هذه «الذخائر المقدسة» يكتسب مجدا ومكانة فى عيون أهل بلده. فقد كانت تلك الأشياء توضع فى الكنائس لكى تزينها. وبطبيعة الحال كانت هناك مواد كثيرة مزيفة فى تلك التجارة التى راجت فى الغرب الأوروبى برواج الحج إلى فلسطين. وقد نسجت قصص خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة مما زاد فى تأجج الجو النفسى المشبع بالأفكار الألفية والأخروية منذ بداية القرن الحادى عشر الميلادى، أو قبله بسنوات قليلة.

بيد أن التطور التاريخى فى المفاهيم التى جعلت الحج وسيلة من وسائل التوبة والتكفير عن الذنب كان هو الأكثر أهمية من تطور حركة الحج نفسها. ومن المهم أن نلاحظ أنه بينما تضاءلت قيمة الأفكار الألفية والأخروية فى تحريك الحملات الصليبية التالية كان «الغفران الصليبى» يزداد أهمية فى تعبئة الناس فى غرب أوروبا لكى يشاركوا فى الحرب ضد المسلمين.

ويجب النظر إلى الغفران الصليبى باعتباره تطورا لنظام الكنيسة الباكر للتكفير عن الذنوب التى يرتكبها الفرد الكاثوليكى. وقد قام هذا النظام على أساس من مراحل ثلاث: الاعتراف، والرضاء، والمصالحة (أى العودة إلى الجماعة المسيحية)، وكانت مرحلة الرضاء هى التى تمحو الخطيئة وتجعل المصالحة ممكنة. كما أن المبدأ الذى تم العمل به آنذاك كان يقضى بأن تكون التوبة، أو العمل الذى يكفر به الفرد الكاثوليكى عن ذنبه مساويا لهذا الذنب.[٢٩] ثم تطورت المفاهيم الكنسية حول هذا الموضوع بحيث

---

(٢٨) Mayer, The Crusades, p. 13.

(٢٩) Ibid., pp. 26-28.

صار على المذنب أن يقوم بأعمال قاسية تستغرق وقتا طويلا للتكفير عن ذنبه. وتم وضع قوائم بالأعمال التى يكفّر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج، إلى أحد المزارات المقدسة فى المسيحية، واحدا من أهم هذه الأعمال التكفيرية. ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس. وكانت الرحلة إلى القدس تحتل مكانة خاصة كما كانت لها قيمتها السامية بين رحلات الحج المسيحية الأخرى.

حقيقة أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بالنسبة للحجاج المسيحيين بسبب ارتباطها بقصة المسيح وقصص العهد القديم، فضلا عن طول الرحلة وصعوبتها، ولكن رحلة الحج التكفيرية لم تكن قاصرة على القدس.(٣٠) ويبدو أن أهم حافز إلى الحج إلى القدس كان هو السعى إلى الكمال، وهو أمر يمكن السعى وراءه بالذهاب إلى الأماكن «التى شهدت أعمال الرب العظيمة وعبادته هناك»، ومن ثم كان الحاج الكاثوليكى يتوقع أن يكرس نفسه للرب من جديد، وأن يبدأ حياة جديدة خالية من الذنوب والخطايا، كما كانت هذه الرحلة بداية لحياة النسك والزهد لكثيرين من الناس.(٣١)

فقد تم تكريس هذا النمط من الحج التكفيرى، أو «حج التوبة»، ليكون عقوبة كنسية على الجرائم الكبرى بعد أن عجزت الكنيسة الكاثوليكية عن التصدى لتيار الحج العاطفى الذى ظل يجذب الناس فى غرب أوروبا صوب الأرض التى شهدت قصة المسيح. وكان الحج بقصد التكفير عن النوب والجرائم يوجه إلى جميع المراكز المسيحية الكبرى مثل : روما حيث قبر القديس بطرس، ومزار القديس ميخائيل فى مونت جورجانو (San Michele at Monte Gorgano)، والقديس جون فى كومبوستيلا فى أسبانيا (Santiago di Compostella) والقدس، وبيت لحم فى فلسطين.

---

(٣٠) Benjamin W. Wheeler, "The Reconquest of Sapin before 1095" in: Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, vol I, pp. 33-4

أنظر أيضاً : قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٣٦ وما بعدها.

(٣١) Jerusalem Pilgrims, p. 42.

وكانت رحلة التوبة التى يقوم بها الحاج تصل فى بعض الأحيان إلى سبع سنوات كاملة، وأول مثال من هذا النوع حدثتنا عنه المصادر بوضوح كان فى القرن التاسع الميلادى، إذ ارتكب ثلاثة إخوة من جنوب إيطاليا جريمة قتلوا فيها عمهم القسيس. وكان الحكم الذى فرضته الكنيسة عليهم، تكفيرا عن جريمتهم، أن يكبلوا أنفسهم بالسلاسل الحديدية، ويدورون حول الأماكن المقدسة «فى التراب والغبار حتى يحين الوقت الذى يقبل فيه الرب توبتهم».(٣٢) وكان القرن العاشر الميلادى بداية عصر الحج الكبير، بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران من ناحية، واستقرار الأوضاع فى حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى، فضلا عن قيام العلاقات التجارية بين المدن التجارية الايطالية والامبراطورية البيزنطية ومصر والشام، وما فرضته من ضرورات السلام والهدوء. وكان بوسع الحجاج الأوروبيين أن ينتقلوا فى أرجاء فلسطين بحرية، لأن السلطات الإسلامية (سواء من العباسيين أو الأخشيديين أو الفاطميين) كانت ترحب بهم.(٣٣)

وإذ أرست الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج هى طريق الخلاص تزايد إقبال الناس على المشاركة فيها منذ القرن العاشر الميلادى فصاعدا. وقد قام عدد من كبار القوم، رجالا ونساء، بعدة رحلات إلى الأراضى المقدسة(٣٤) على الرغم من صعوبة السفر، ووعورة الطرق وأخطارها آنذاك، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن الناس قد ربطوا بين الحج إلى الأرض المقدسة والأمل فى الغفران.

ومن ناحية أخرى كانت للحج المسيحى بقصد التوبة قيمته العملية من الناحية الاجتماعية، إذ كان يرغم المجرمين وأصحاب الذنوب على الابتعاد عن المجتمع عدة شهور، أو عدة سنوات (قد تصل إلى سبع سنوات)، فإذا نجوا من مخاطر الطريق وعادوا سالمين فإنهم لابد من أن يحرصوا على وضعهم المتميز الذى حققته رحلة الحج

---

(٣٢) Ibid, p. 43.; Michaud, Histoire des Croisades, (Paris, 1858), I, p. 8.

(٣٣) Runciman, Hist. of the Crusades, I, pp. 43-44.

(٣٤) Mayer, The Crusades, pp. 13-14; Runciman, op. cit., I, pp. 45-46.

وشهرتهم الطيبة بالتقوى والصلاح.(٣٥) وقد ذهب رجال من أصحاب المزاج العنيف مثل «فولك نيرا Nerra الرهيب» إلى فلسطين سنة ١٠٠٢م، وزارها مرتين بعد ذلك تكفيرا عن ذنبه، كما زارها روبرت الشيطان كونت نورماندى بقصد التوبة.(٣٦) لقد اضطرت الكنيسة الكاثوليكية إلى منح غفران جزئى لقاء رحلة الحج إلى القدس. وفى عز ازدهار الحركة الصليبية كانت الكنيسة تمنح غفرانا غير محدود للصليبيين فى مقابل الغفران الجزئى الذى كانت تمنحه للحجاج غير المقاتلين.

ولم يكن من الممكن أن يتسع نطاق رحلات الحج التكفيرية سوى بوجود تسهيلات مناسبة فى الطرق التى يسلكها الحجاج. وقد وفرت الأديرة الكلونية(٣٧) شبكة اتصالات واسعة، كما استخدمت قدرتها التنظيمية الفائقة فى ترتيب التسهيلات للحجاج الذاهبين إلى فلسطين. وقد تبرع أثرياء التجار الايطاليين، والأوروبيين الأغنياء، بالإنفاق على دور الضيافة والمنازل التى كرست للحجاج القادمين من بلدان

---

(٣٥) Bradford, The Sword of the Scimitar - The Saga of the Crusades, (London, 1974), pp. 13-14; Michaud, Histoire de Croisades, I, p. 14; Runciman, "The Pilgrimages to Palestine before 1095", in Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, vol. I., pp. 74-75.

أيضا : قاسم، الخلفية الأيديولوچية، ص ٣٨-٣٩.

(٣٦) Mayer, The Crusades, p. 14; Runciman, A History of the Crusades, vol. I, pp. 45-46; Michuad, op. cit., I, pp. 15-16.

وقد اتهم فولك بقتل زوجته، واتهم روبرت (ابن وليم الفاتح) بدس السم لأخيه.

(٣٧) فى سنة ٩١٠م أسس وليم الأول كونت أقطانيا (Count William I d'Aquitaine) دير كلونى (Cluny) بدلا من الأديرة البندكتية التى كانت قد وصلت إلى حال من الترهل والتردى، وبنهاية القرن العاشر الميلادى كانت الأديرة الكلونية قد دخلت فى علاقات قوية مع البابوية التى شهدت مجموعة من البابوات الإصلاحيين فى القرن الحادى عشر الميلادى. وقد اعتبر الكلونيون أنفسهم حماة الضمير المسيحى، كما قاموا بتنظيم رحلات الفرسان الفرنجة عبر جبال البرانس للقتال ضد المسلمين فى الأندلس، وأنشأوا عدة تنظيما وبيوت ضيافة لخدمة حركة الحج إلى فلسطين - أنظر :

Brundage, Medieval Canon Law and the Crusades, (The University of Wisconsin, 1969), p. 9; The Sword, pp. 15-16; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 46-50.

غرب أوروبا. وفى كل عام كانت أوروبا تشهد قدوم عدد من الرهبان المقيمين فى القدس لجمع التبرعات من الأثرياء، لتوفير التمويل لهذه المنازل ودور الضيافة.

وفى القرن الحادى عشر الميلادى كان قد استقر فى ضمير الناس فى غرب أوروبا أن رحلة الحج تتويج لحياة المرء يتمنى المتدينون أن تكون هى الخاتمة المناسبة لرحلتهم فى الحياة الدنيا. وقد أمدنا رالف جلابير، الذى كان هو نفسه راهبا من الكلونيين، بنص يجسد هذه الرؤية، إذ يقول : «... فى الوقت نفسه بدأت أعداد تفوق الحصر تتوجه إلى ضريح المخلص في القدس من شتى بقاع الدنيا، وبأعداد أكبر مما كان يتوقعه أى إنسان. ولم يكن الذاهبون من العامة وأبناء الطبقة الوسطى فقط، بل ذهب إلى هناك كثيرون من الملوك العظام والكونتات والنبلاء. وأخيرا - هذا شئ لم يحدث قبل ذلك - انطلق بعض الفقراء وكان العديدون يتمنون الموت هناك، بدلا من العودة إلى الوطن...».[٣٨]

وفى القرن الحادى عشر الميلادى كثرت رحلات الحج التكفيرية من غرب أوروبا إلى القدس، فقد كانت الكنيسة تفرض على المذنبين، ومن أضروا بمصالح الكنيسة، ومن ينتهكون «سلام الرب»، رحلة حج إلى فلسطين تكفيرا عن ذنوبهم. وقد تزايد عدد الحجاج التائبين فى هذا القرن بحيث صار الحج من أهم روافد الفكرة الصليبية. وطوال القرن الحادى عشر الميلادى، وحتى العقدين الأخيرين منه كان تيار الحج لا يزال يصب باتجاه الشرق. وفى بعض الأحيان كانت مجموعات الحجاج تصل إلى عدة آلاف من كل عمر وكل طبقة،[٣٩] وكل منهم على استعداد ليقضى سنة أو أكثر فى هذه الرحلة. ومن الواضح أنه منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى بدأت المصاعب تزداد أمام رحلات الحج الكاثوليكية إلى فلسطين. وكان من أسباب ذلك الغزو السلجوقى

---

(٣٨) Ralph Glaber, Historiarum, (in Jerusalem Pilgrims), p. 174.

أنظر الترجمة العربية الكاملة للنص : قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٣٩) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 49-50.

الذى وضع القدس تحت سيادة الأتراك السلاجقة فى سنة ٤٦٣ هجرية/١٠٧١ ميلادية عندما نجح القائد السلجوقى أتسيز، العامل فى خدمة السلطان ملك شاه، أن يستولى على الرملة وطبرية وبيت المقدس،[٤٠] ويعيدها إلى السيادة الإسلامية للخلافة العباسية بعد أن كانت تحت الحكم الفاطمى منذ دخولهم بلاد الشام فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى). وقد استردها الفاطميون بعد خمس سنوات ولكن أتسيز طردهم منها بعد حصار عدة شهور ومذبحة رهيبة.

ويبدو أن المشكلات الأمنية الناجمة عن توغل السلاجقة فى بلاد الشام فى ذلك الحين قد تركت آثارها السلبية على الحجاج الكاثوليك المسافرين عبر الأناضول. بيد أن الجماعات الكبيرة من الحجاج المسلحين كانت أيضا من أسباب المتاعب التى لاقوها آنذاك. فقد أقلقت السلطات الإسلامية المشاكل التى كانوا يثيرونها اعتقادا منهم بأنهم كلما تعرضوا لمزيد من الأذى والمتاعب كانت رحلتهم أكثر نجاحا.[٤١] وفى رأى البعض أنه ربما كان المسلمون يفيدون تجاريا من ازدهار الحج المسيحى إلى البلاد المقدسة. ولكن الدخل الذى كانت السلطات الإسلامية تحصله من الحجاج الكاثوليك كان تافها بالقياس إلى موارد المسلمين الهائلة آنذاك، ولاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا أن التقشف كان أحد المثل العليا التى يسير الحجاج على هديها تشبها بالحواريين.

وثمة أسباب قوية تدفعنا إلى الظن بأن الحج إلى بيت المقدس، فى الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية، كان يحظى بتقدير كبير فى مجتمعات أوروبا الغربية. وفى رأينا أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقى للحج المسيحى إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة الصليبية لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة باكرة وحتى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى. ذلك أن تيار

---

(٤٠) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٠-٤١.

(٤١) Alphandery, la Chretiente, pp. 25-26; Runciman, "The Pilgrimages", p. 77; Brundage, Med. Canon Law, p. 9.

الحج المستمر كان لابد من أن يؤدى بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التى شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه، لابد من أن تكون تحت سيطرة أتباعه. ولم يكن السبب هو الرغبة فى حل المشكلات والصعوبات العملية التى كانت تواجه الحجاج الكاثوليك، ولكن لأن أوروبا التى بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدى المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية فى صورة الكفار المتوحشين.[٤٢] وكانت الفكرة التى ملكت عقول أبناء الغرب الأوروبى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى، هى فكرة تخليص الأرض المقدسة من المسلمين. وقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة حج مسلحة (وهى الحملة الصليبية) لتحقيق هذا الهدف.

ومن الأمور ذات الدلالة أن المعاصرين لم يفرقوا أبداً بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين، إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقا للغاية.

لقد كانت الفكرة الحاسمة فى كليرمون سنة ١٠٩٥م هى عسكرة الحج، وإضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة فى الوقت نفسه. وكان الصليبى فى حقيقته حاجا من طراز خاص، إذ كان حاجا يتمتع بامتياز حمل السلاح. حقيقة أنه كان أعلى درجة من الحاج المسالم، بيد أن الاختلاف بين الصليبى والحاج كان اختلافا فى الدرجة فقط ولم

---

(٤٢) أنظر رواية روبير الراهب، حيث ينسب إلى البابا اربان قوله : «جنس غريب على الرب تماماً قد غزا أرض أولئك المسيحيين وأخضع الناس بالسيف، والتدمير والحريق، كما حمل بعضهم أسرى إلى بلاده، وذبح البعض الآخر بوحشية، وسوى الكنائس بالأرض، لقد أجروا عمليات الختان للمسيحيين، وكانوا يصبون دماء الختان على مذابح الكنائس أو فى أوانى التعميد. وقد شقوا بطن أولئك الذين اختاروا تعذيبهم بالموت البطئ المثير للاشمئزاز، فينزعون معظم الأعضاء الحية، ثم يربطون ضحاياهم إلى العصى المدببة ويسحبونهم».

Robert of Rheims, "Historiora Ihersolimitana", RHC, Occ. III, pp. 727-730.

أنظر النص الكامل لخطبة البابا اربان الثانى فى كليرمون برواية كل من : فوشيه دى شارتر، وروبير الراهب، وجيوبرت دى نوجنت، وبلدريك دى دول، فى ترجمتها العربية : قاسم، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق، ص ٧٣-٩٠.

يكن اختلافا فى الجوهر. وكانت تلك هى رؤية المعاصرين أيضا. فقد كان السيف الذى يحمله الصليبى مباركا من الكنيسة باعتباره جنديا فى جيش المسيح، كما كانت سائر مهمات الحاج التقليدية تحظى بمباركة الكنيسة. وقد يبدو هذا الأمر أكثر وضوحا إذا عرفنا أن زعماء الحملة الصليبية الثالثة، وهم فردريك بربروسا ملك ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، قد تلقوا مهمات الحجاج التقليدية وهى العصا والتصريح (Staff and scrip) عندما انطلقوا فى سبيلهم لقتال صلاح الدين الأيوبى.(٤٣)

حقيقة أن كلمة «جندى المسيح» صارت فى القرن الثانى عشر الميلادى تعنى «صليبى» على حين توارت كلمة «حاج»، التى استخدمها المؤرخون الذين عاصروا الحملة الأولى، رويدا رويدا. وهنا ينبغى أن نتذكر أن المؤرخ المجهول قال على سبيل المثال وهو يتحدث عن أهل مقدونيا : «لم يصدقوا أننا حجاج، ولكنهم ظنوا أننا جئنا لنهب أرضهم وقتلهم».(٤٤)

هكذا اختلطت فكرة الحج بفكرة الحملة الصليبية، وأصبحت كل منهما تعنى الأخرى فى بداية الحركة الصليبية، ثم توارت فكرة الحج فى الخلفية، على حين صارت فكرة الحملة الصليبية تعنى «جندى الرب». ولكن أهم عناصر هذه الحملة المقدسة يتمثل فى مفهوم الغفران الذى كان هو العنصر الأهم فى عيون العامة، لاسيما بعد أن ارتبط بالحج الجماعى الذى تقوم به أعداد كبيرة، وبعد أن صار مركز الدعوة إلى الحملة الصليبية فى خطبة أربان الثانى فى كليرمون.

حقيقة أن الغفران الذى منحه البابا فى كليرمون لم يكن غفرانا كاملا؛ ولكن الناس فهموا أنه غفران كامل. ففى رواية فوشيه الشارترى عن خطبة البابا يقول :

---

(٤٣) Mayer, The Crusades, pp. 30-31

(٤٤) Gesta Francorum, pp. 7-8.

«إننى أخاطب الحاضرين، وأعلن لأولئك الغائبين، فضلا عن أن المسيح يأمر بهذا، أنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء فى مسيرتهم على الأرض، أو أثناء عبورهم البحر، أو فى خضم قتالهم ضد الوثنيين. وهذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التى أعطانى الرب إياها...».(٤٥) فقد ذهبت الدعاية الصليبية الشعبية إلى آفاق أبعد من ذلك، والواضح أن حقيقة ما قيل فى كليرمون قد توارى فى الخلفية بسبب الدعاية الصليبية النزقة.

وليست هناك طريقة لتفسير نجاح الدعاية للحملة الصليبية الأولى فى عامى ١٠٩٥م و١٠٩٦م، سوى البحث فى تحول مفهوم الغفران الصليبى إلى غفران كامل من الذنوب على يد الدعاة الذين روجوا للمرسوم الصادر فى كليرمون وقدموا له تفسيرات تتعدى حدوده. وبعبارة أخرى كان الغفران استجابة لحاجة الناس التواقين إلى الخلاص من ناحية، ومتطلبات الحركة الصليبية نفسها من ناحية أخرى. وتبدو هذه الحقيقة واضحة من خلال النقد المرير الذى صبه علماء اللاهوت الكاثوليك على الغفران الصليبى منذ حوالى سنة ١١٣٠م. وكان بطرس أبيلار (Peter Abelart) (١٠٧٩م-١١٤٢م) هو أول من دخل هذا المجال.(٤٦)

ويبدو أنه مع بداية الحركة الصليبية كانت المسألة قد خرجت تماما من أيدى رجال الكنيسة، فقد تجاهل الناس خطط البابوية فى تنظيم الحملة الصليبية كما ضاعت هذه الخطط فى موجات الأحداث المتلاحقة. وهذا هو نفس ما حدث بالنسبة لمفهوم الغفران

---

(٤٥) Fulcher de Chartrs, pp. 61-63.

(٤٦) كان أبيلار واحداً من خمسة مفكرين كبار قادوا الفكر والثقافة فى غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر الميلادى، وينسب إليه بعض المؤرخين فضل اكتشافه للشخصية الفردية من جديد بعد أن كانت مفاهيم العصور الوسطى قد طمستها. كما أن مساهماته الفلسفية فى مشكلة «الكليات» قد تعتبر نقلة هامة فى فلسفة العصور الوسطى. أنظر : كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٤٤٥-٤٤٧.

الذى تطور بشكل تلقائى بفضل تداعيات الأحداث. وقد اضطر البابوات للتخلى عن صيغة الغفران الجزئى الذى تحدث عنه البابا فى خطبته بكليرمون، وفى خطاباته إلى أتباعه عندما تحدث عن «إسقاط التوبة»، أو «حذف الكفارة – remissio pecctorum»،[٤٧] وتبنوا التفسيرالشعبى للغفران. وقد بدأ هذا الموقف منذ عهد البابا اجينيوس الثالث (Eugenius III) فى إعلانه الغفران المرتبط بالحملة الثانية (١١٤٥-١١٤٩م).[٤٨] وقد أدى هذا الموقف الجديد إلى غفران الخطايا والإعفاء من التوبة والتكفير.

وهناك بابوات حاولوا إعادة الزمن إلى الوراء وإلغاء النص الخاص بغفران الذنوب والاكتفاء باعفاء الصليبى من التوبة أو التفكير مقابل اشتراكه فى الحملة الصليبية، ولكن محاولات البابا جريجورى الثامن[٤٩] باءت بالفشل، ووصلت مسألة الغفران إلى ذروتها فى مجمع اللاتيران الرابع سنة ١٢١٥م. ومنذ ذلك الحين فصاعدا كانت فكرة الغفران تشكل أساس النظرة البابوية للحملة الصليبية. وقد نال كل الناس الذين ساهموا بأنفسهم، أو بأموالهم، فى أى حملة صليبية، وعدا بغفران كل ذنوبهم وخطاياهم التى اعترفوا بها.[٥٠]

لقد تجسد مفهوم الغفران الصليبى واضحا جليا فى دعائيات الحركة الصليبية بعد ذلك. ففى خضم نشاطه المحموم للدعاية للحملة الصليبية الثانية (التى جاءت رد فعل لاستيلاء المسلمين بقيادة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود على إمارة

(٤٧) أنظر نص الغفران الذى منحه مجمع كليرمون للصليبيين :
Louis and Jonathan Riley-Smith, (eds.), The Crusades, pp. 37-38.

(٤٨) Mayer, The Crusades, pp. 35-36.

(٤٩) تولى هذا البابا الكرسى البابوى فترة قصيرة لاتزيد على ثمانية أسابيع فى سنة ١١٨٧م حاول أثناءها أن يصلح من شأن الكنيسة ولكنه فشل، راجع :
Geoffrey Barraclough, The Medieval Papacy, (London, 1968), p. 110.

(٥٠) Mayer, The Crusades, p. 37.

الرها الصليبية) قام برنار مقدم دير كليرفو (St. Bernard de Clairvaux) بحث أبناء الغرب الأوروبى على الذهاب فى الحملة الصليبية.[٥١] وكان ذلك بتفويض من الباب اجينيوس الثالث. وقد ذكر برنار فى واحدة من خطبه الدعائية لهذه الحملة : «أيها الجندى الباسل، يارجل الحرب، الآن لديك قضية تجعلك تقاتل دون أن يحيق الخطر بروحك؛ قضية، النصر فيها مجيد، والموت فى سبيلها مكسب. أم تراك رجل أعمال ناجح يدرك مكاسب هذه الدنيا بسرعة؟ فإذا كنت كذلك فإن باستطاعتى أن أقدم لك صفقة محترمة، فلا تجعل هذه الفرصة تفوتك. خذ شارة الصليب، وفى الحال ستنال الغفران على كل خطاياك التى اعترفت بها بقلب نادم. ولن يكلفك كثيرا أن تشترى مكافأة السماء إذا ارتديت شارة الصليب فى تواضع».[٥٢] وليس هناك وضوح أكثر من هذا فى حقيقة أن الاشتراك فى الحملة الصليبية صار ثمنا للحصول على الغفران الصليبى.

وقد عكس الأدب الأوروبى فى تلك الفترة مفهوم الغفران الصليبى على النحو الذى استقر فى الوجدان الشعبى واستجابت له البابوية فى المرسوم الذي أصدره البابا اجينيوس الثالث فى ديسمبر ١١٤٥م،[٥٣] ففى أغنية صليبية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى ضمن المجموعة المعروفة باسم (Carmina Burana) نجد النغمة نفسها عن الغفران الشامل لقاء أخذ شارة الصليب[٥٤] :

---

(٥١) عن تفاصيل هذه الأحداث أنظر :

Virginia G. Berry, "The Second Crusade", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, I, pp. 463-511.

وعن برنار رئيس دير كليرفو ودوره فى الحياة السياسية والدينية فى أوروبا القرن الثانى عشر الميلادى أنظر : نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ص٤٥٦-٤٦١.

(٥٢) Mayer, The Crusades, p. 37.

(٥٣) Virginia G. Berry, "The Second Crusades," pp. 466-467.

(٥٤) Mayer, The Crusades, p. 37-38.

التاجر الحاذق سيكون هناك

ذلك الذى يريد شراء الحياة

والأخير سيكون الأول

والأول أخيرا

والاجتماع مختلف

لكن طريقة الدفع (remuneratio) ستكون واحدة

لأن كل العاملين (أى الصليبيين)

سينالون ثمنا هو الحياة

وتقول قصيدة أخرى من القرن نفسه، ضمن المجموعة المعروفة بإسم أغنيات الحروب الصليبية[٥٥] :

لقد سمعت مثلا سائرا يقول :

«التاجر العاقل ينفق المال من حافظته

«وصاحب القلب الطائش

«هو الذى يرى الحسن فيختار القبيح»،

هل تعرفون بما وعد الرب

أولئك الذين سيأخذون صليبه ؟

إنه لثواب حسن بالتأكيد.

الفردوس، وكان وعده صدقا،

إن من يمكنه أن يربح مكافأته

أحمق إذا انتظر إلى الغد.

---

(٥٥) القصيدة عنوانها :

أنتم يا من تحبون حبا حقيقيا (Vous qui aime de vraie amour) فى الفرنسية الكلاسيكية - أنظر : Bedier et Aubry, Les Chansons des Croisades, pp. 20-22.

أنظر ترجمة كاملة لهذه القصيدة : قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٢٢٧-٢٢٨.

وقرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادى كتب الشاعر البروفنسالى (Aimeric de Belenoi) قصيدة تحمل هذا المغزى[٥٦] :

لأن المسير يعنى الأمل،

ومن أجل الممتلكات والفرح والشكر،

وفى سبيل الشرف والعزة.

ومن أجل الخلاص من الخطيئة.

ومنذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى توسعت البابوية فى منح الغفران الذى كان امتيازا للصليبيين الذاهبين إلى الأرض المقدسة. ففى سنة ١٢٠٧م منح البابا أنوسنت الثالث الفرسان الأوروبيين المشاركين فى الحملة الألبيجنسية (التى دعت إليها البابوية ضد نبلاء الجنوب الفرنسى الذين اعتنقوا مذهبا كنسيا يعارض هيمنة رجال الكنيسة الكاثوليكية على الناس فى غرب أوروبا) غفرانا يماثل الغفران الممنوح لمن يحاربون المسلمين فى فلسطين. «نحن نرغب فى أن أولئك الرجال الذين أخذوا السلاح للقتال ضد الهراطقة يجب أن يتمتعوا بالغفران نفسه الذى منحناه لأولئك الذين هبوا لنجدة الأرض المقدسة»[٥٧].

ثم حدث تطور جديد وهام. فقد صارت البابوية تمنح الغفران لمن يرسلون المحاربين بدلا منهم، ولمن يساهمون بأموالهم فى تمويل إحدى الحملات الصليبية عوضا من المشاركة بأنفسهم. ونتيجة توسع البابوية فى الاستخدام السياسى للحملة الصليبية، أى استخدام الفكرة الصليبية فى شن الحرب ضد خصومها داخل أوروبا الكاثوليكية نفسها، فتح الباب على مصراعيه أمام فكرة شراء الغفران بالمال. وهو ما أدى إلى ظهور مشكلة صكوك الغفران التى ثار ضدها مارتن لوثر فيما بعد.

---

(٥٦) Mayer, The Crusades, p. 38.

(٥٧) Riley-Smith, What were the Crusades?, p. 14.

ففى سنة ١٢٤٦م أعلن البابا أنوسنت الرابع حربا صليبية ضد الامبراطور فردريك الثانى، وفى سياق الدعاية «الصليبية» قال البابا : «نحن نمنح الغفران لكل أولئك الذين أخذوا على عاتقهم إنجاز هذا العمل شخصيا وعلى نفقتهم، كما نمنح الغفران لأولئك الذين لا يشاركون فى الحملة شخصيا، ولكنهم يرسلون المحاربين اللائقين على نفقتهم، حسب إمكاناتهم ونوعياتهم، ونمنحه أيضا للذين يقومون بهذا العمل على نفقة الآخرين، ونحن نرغب فى أن يتمتعوا بكل الامتيازات والحصانة التى نمنحها فى المجتمع الكنسى العام لمن يساعدون الأرض المقدسة»(٥٨).

وبنهاية القرن الثالث عشر الميلادى كانت الدعوة إلى أى حملة صليبية تبدو للكثيرين، من رجال الكنيسة والعلمانيين على حد سواء، مجرد وسيلة لجمع الأموال للبابوات والفرسان لاستخدامها فى عدة أغراض لا تتصل بالحرب ضد المسلمين فى فلسطين.(٥٩) وفى سنة ١٣٢٦م قال البابا يوحنا الثانى والعشرون : «... لقد فكرنا أن نمنح هذا الغفران الذى كان الكرسى الرسولى قد اعتاد منحه، فى حالات مماثلة، لأولئك الذاهبين إلى نجدة الأراضى المقدسة...».(٦٠) لقد كان البابا يتحدث عن حملة صليبية متوجهة إلى إسبانيا، وليس إلى فلسطين حيث كان الوجود الصليبى قد انتهى منذ بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى.

وإذا أمعنا النظر فى هذه الأمثلة التى سقناها فى السطور السابقة، وفى حالات كثيرة منحت فيها البابوية الغفران الكامل لكل من شارك فى حملة من حملاتها التى وجهتها ضد العرب والمسلمين، أو ضد خصومها السياسيين، أو المذهبيين فى أوروبا الغربية نفسها، أدركنا أن البلاط البابوى كان يرى فى هذه الحملات جميعا عاملا

---

(٥٨) Riley-Smith, What were the Crusades?, p. 14.

(٥٩) Ronald C. Finucane, Soldiers of the Faith - Crusades and Moslems at War, (New York, 1983), pp. 47-48.

(٦٠) Riley-Smith, op. cit., pp. 14-15.

مشتركا جعل البابوات يتوسعون فى استخدام الغفران الصليبى لتجنيد الجنود فى الحملات الصليبية ضد المسلمين فى فلسطين والأندلس وعلى شواطئ البلطيق، وضد المخالفين والمنشقين على الكنيسة الكاثوليكية، بل حتى ضد القوى العلمانية فى الغرب الأوروبى. لقد كانت «الحملة الصليبية» أداة من أدوات السياسة الداخلية والخارجية بالنسبة للبابوية. وكان الغفران الصليبى، لقاء المشاركة بالنفس أو عن طريق تجهيز المقاتلين أو بمجرد دفع المال، هو الحافز الذى استثمرته فى هذا المجال.

هكذا أدى التطور التاريخى إلى أن صار الغفران الصليبى يشترى لقاء المال على النحو الذى تطور به فى شكل صكوك الغفران الشهيرة، بيد أن تلك قصة أخرى. وما يهمنا فى هذه الدراسة أن مفهوم الغفران الذى ارتبط بالحج التكفيرى كان مرتبطا أيضا بفكرة الحرب المقدسة. ومن الطبيعى أن تروق دعوة الحج المسلح فى عيون الفرسان من أبناء الطبقة الاقطاعية فى غرب أوروبا على نحو خاص.

ومثلما تطور مفهوم الحج منذ بداية المسيحية حتى عشية الحروب الصليبية تطور مفهوم الحرب المقدسة، الذى كان من أهم روافد الأيديولوجية الصليبية.

لقد كان موقف آباء الكنيسة الأوائل حرجا وهم يواجهون مشكلة التوفيق بين تعاليم المسيحية الداعية إلى السلم ونبذ الحرب[٦١] من ناحية، ومقاومة الشر الحتمى فى الحياة الدنيا من ناحية أخرى. وفى العالم البيزنطى أدان اللاهوتيون، وعلى رأسهم

---

(٦١) ورد على لسان المسيح عليه السلام (متى ٢٦ : ٥٢) «... لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكو، كما ورد على لسانه أيضاً (متى ٥ : ٣٨-٣٩) «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً». وقد ورد على لسان بولس الرسول : «لا تجازوا أحد عن شر بشر، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس. لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل اعطوا مكاناً للغضب... لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير.» (رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية ١٢ : ١٧-٢١).

القديس باسيل، الحرب باعتبارها قتلا جماعيا؛ ولكن هذه الإدانة لم يكن لها تأثير فعال فى أرض الواقع.(٦٢)

أما فى الغرب اللاتينى فقد كان الموقف أقل استنارة، ولم يكن الناس على استعداد لقبول هذه الآراء السلمية، بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى نجمت عن الغزوات الجرمانية التى اجتاحت أوروبا فيما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وأسفرت عن قيام عدة ممالك، واختلاط سكانى واضح. وكانت الضرورة الثقافية الاجتماعية تحتم تبرير استمرار القيم والمثل الجرمانية فى ثياب مسيحية. وفى ذلك الوقت كان نظام الفروسية الغربى يتطور مدعوما بالملاحم البطولية التى أعطت المكانة والهيبة للبطل العسكرى.(٦٣) ولم تستطع الكنيسة الغربية شيئا حيال هذه القيم والمثل العليا الجرمانية، فحاولت توجيه طاقتهم العسكرية وجهة تنفيذها.

وفى القرن الخامس الميلادى كان أول مفكر عالج مسألة تبرير الحرب على أساس دينى هو القدس أوغسطين (Augustinus) (٣٥٤-٤٣٠م)، وربما لا يزال أوغسطين هو أكثر من عالج مسألة الحرب على أسس مسيحية ماهرة. فقد حاول أن يضع تعريفا للحالة التى تصبح الحرب فيها حربا عادلة (bellum justum). وقد خضعت الشروط التى وضعها أوغسطين للحرب العادلة بعد فترة من الزمن للتبسيط الشديد من جانب علماء اللاهوت الأوروبيين، بحيث اختزلت فى شروط ثلاثة هى : (١) أن يكون هناك

---

(٦٢) كان من رأى القديس «باسيل القبادوقى»، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية، أن الشهيد هو فقط من يموت متسلحاً بالايمان وليس من يقتل فى الحرب ضد الأعداء، بل إن باسيل يوصى الجندى الذى قتل عدوه فى الحرب أن يكفر عن ذنبه بالابتعاد ثلاث سنوات عن الجماعة المسيحية. وفى رأى البعض أن البيزنطيين كانوا باستمرار يفضلون الدبلوماسية على الحرب أنظر :
J.J. Sauders, Aspects of the Crusades, (University of Canterbury, 1962), pp. 17-18; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p. 83.
أنظر أيضاً : قاسم، الخلفية الأيديولوچية، ص ١٥-١٦.

(٦٣) Robert S. Hoyt and Stanley Chodorow, Europe in the Middle Ages, (3rd ed., U.S.A. 1976), pp. 55-83.

سبب عادل (causa justa) لشن الحرب، وعادة ما يكون هذا «السبب العادل» عدوانا، أو عملا ضارا أتاه الآخرون. (٢) أن يرتكز قرار الحرب على سلطة شرعية (auctorites pricipis)، وعادة ما تكون هذه السلطة علمانية بطبيعة الحال (على الرغم من أننا سوف نرى أن الكنيسة قد انتزعت لنفسها حق إعلان الحرب المقدسة، ثم الدعوة إلى الحملة الصليبية). (٣) ويتمثل الشرط الثالث فى سلامة القصد (intentiorecta)، أى أنه يجب على كل مشارك فى الحرب أن تكون دوافعه نقية سليمة، كما ينبغى أن تكون الحرب هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هدف عال.(٦٤)

وفى رأى أوغسطين أنه يجب استبعاد السلام من بين الأسباب العادلة للحرب لأن كل طرف يشن الحرب من أجل السلام الذى يتوافق مع مصالحه.(٦٥) وفى الواقع أن التقلبات السياسية فى أوروبا آنذاك كانت تتيح فرصة هائلة لتفسير كل من هذه الشروط الثلاثة بما يتفق والمصالح السياسية للطرف الذى يشن الحرب.

وقد كانت التقلبات السياسية والأحداث العسكرية العنيفة التى مر بها الغرب فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين مواتية تماما لإبراز مفهوم الحرب الدفاعية، وتأكيد شرعيتها،(٦٦) إذ إن الهجمات التى شنها الإسكندنافيون الوثنيون، وهجمات المجريين

---

(٦٤) تتجسد قيم الجرمان العسكرية فى هذه الفترة الباكرة فى ملحمة بيوفولف (Bcowulf) وهى ملحمة أنجلو - سكسونية دونها كانت مسيحى سكسونى فى القرن الثامن الميلادى، ويبدو أنها كانت متداولة بالرواية الشفوية قبل ذلك بعدة قرون. وقد تأكد الوجود التاريخى لإثنين أو ثلاثة من شخصيات هذه الملحمة. وتصور هذه الملحمة قيم الشجاعة العسكرية والسيادة الحربية، وعصبة الحرب أنظر :
Beowulf, (transl. C.B. Tinker, New York, 1902), pp. 120-137. Vernon J. Bourk (ed.), The Essential Augustine, (USA, 1964), passim; E.K. Rand, Founders of the Middle Ages, (Dover, New York, 1957), pp. 251-284; Norman F. Cantor (ed.), The Medieval World 300-1300, (USA, 1968), pp. 44-46.

(٦٥) Frederick H. Russell, The Just War in the Middle Ages, (Cambridge University Press, 1973), pp. 21-22. Brundage Medieval Canon Law, p. 19.

(٦٦) Mayer, The Crusades, pp. 15-16.

والمسلمين على أنحاء متفرقة من أوروبا فى هذين القرنين مثلت ضغطا على سكان أوروبا الذين عاشوا أوقاتا صعبة عقب انهيار الإمبراطورية الكارولنجية.

ومن ناحية أخرى كانت ثروات الكنائس والأديرة هى الهدف الذى يجتذب الغزاة فى كل مكان، ومن ثم كان ضروريا على الكنيسة وعلماء اللاهوت أن يدعموا فكرة الحرب الدفاعية العادلة. ولأن المغيرين جميعا لم يكونوا من المسيحيين (لأن الفيكنج لم يعتنقوا المسيحية إلا بعد استقرارهم فى نورماندى بغرب فرنسا فى مطلع القرن العاشر الميلادى، كما أن المجريين اعتنقوا المسيحية فى وقت قريب من هذا)، فقد كانت فكرة الحرب العادلة مرتبطة بفكرة الحرب ضد الوثنيين (أى غير المسيحيين)، ولذلك تحولت إلى مفهوم الحرب المقدسة.

وهناك من المفكرين من حاول التفرقة بين «الحرب العادلة» و«الحرب المقدسة»،[٦٧] بيد أن التمييز بينهما كان صعبا على المستوى النظرى من ناحية، كما أن أحدا لم يحاول على المستوى العملى أن يميز بينهما من ناحية أخرى. وفى القرن التاسع الميلادى قام البابا ليو الرابع (Leo IV) بإعلان أن من يموت فى سبيل الكنيسة سوف ينال ثوابا من السماء، وبعده بسنوات قليلة أعلن البابا جون الثامن (John VIII) أن ضحايا الحرب ضد المسلمين والفيكنج شهداء سوف تغفر ذنوبهم[٦٨] (وهو الوعد نفسه الذى تلقاه المشاركون فى الحملة الصليبية فيما بعد). ومن الخطأ أن نعتبر أن هذه كانت حملات «صليبية». الواقع أن ليو الرابع وجون الثامن كانا متأثرين بفكر (اشيدر) الأشبيلى الذى قال: «إن الرجال الذين تجعلهم حكمتهم وشجاعتهم جديرين بالسماء هم الذين يسمون الأبطال».[٦٩] وتتمثل أهمية هذه الوعود، بمنح الغفران، أنها

---

(٦٧) Russell, The Just War, p. 2.

(٦٨) Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p. 84; Mayer, The Crusades, p. 16; Brundage, "Holy War", p. 104; Baraclough, Med. Papacy, pp. 58-60.

(٦٩) Mayer, op. cit., pp. 16-17.

تكشف عن تأييد البابوية لفكرة الحرب ضد المسيحيين. وبمرور الوقت تحولت الفكرة إلى الهجوم بدلا من الدفاع، وإن ظلت داخل نطاق فكرة أوغسطين عن الحرب العادلة التى يشنها الرجال لكى يستردوا ما هو حقهم. وكان من السهل دائما إلقاء اللوم على الطرف الآخر فى الحرب، كما كان من الميسور دائما إيجاد سبب للحرب (causa belli) يبرر موقف من يبدأ.

لقد استخدمت البابوية فكرة الحرب العادلة فى القتال الذى كان دائرا ضد مسلمى الأندلس، إذ منح البابا الإسكندر الثانى (Alexander II) فى سنة ١٠٦٣م غفرانا للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين فى إسبانيا.(٧٠)

وفى رأى كثير من الباحثين أن جريجورى السابع (Gregory VII) (١٠٧٣-١٠٨٥م) هو الذى صاغ فكرة الحرب المقدسة فى شكلها النهائى، وأحدث نقلة نوعية فى موقف المسيحية من الحرب. فقد استخدم عبارة «جيش المسيح Militia Christi» للمرة الأولى بالمعنى الدنيوى وليس المعنى المجازى الذى استخدمه القديس بولس.(٧١) ولدينا عدة وثائق تدلنا على مدى التغير الجوهرى الذى أحدثه جريجورى السابع فى مفهوم الحرب المقدسة.(٧٢) وهذه الوثائق عبارة عن خطاب بتاريخ ٢ فبراير ١٠٧٤م من البابا إلى الكونت وليم الأول أمير بورجونى (Bourgogne) يدعوه لنجدة

---

(٧٠) Brundage, Med. Canon Law, pp. 23-24; Riley-Smith, What were the Crusades, pp. 21-28.

(٧١) كان القديس بولس يقصد بهذه العبارة الحرب المعنوية ضد الشر المعنوى، ويتسلح لها المسيحى بإنجيل السلام، وجنودها الرهبان والشهداء، وهو على النقيض تماماً من الحرب الخاطئة التى تستخدم فيها أسلحة مادية فى حرب دنيوية. أنظر :

Cawdrey, "The Genesis of the Crusades", p. 19; Brundage, op. cit., p. 104.

(٧٢) Archives de l'Orient Latin, (Publiees sous la Patronange de la societe de l'Orient Latin, Paris 1881), I, pp. 56-68.

وقد ناقشها الكونت ريان (Comte Riant) مناقشة واسعة، أنظر :

Rian, "Inventaire critique des letters historiques des Croisades", en AOL, I, pp. 1-195.

الكنيسة ومحاربة المسلمين الذين يهددون القسطنطينية، وخطاب آخر بعد ذلك بشهر (أول مارس) يدعو فيه «كل الراغبين فى الدفاع عن العقيدة» لنجدة القسطنطينية التى وصل المسلمون إلى أسوارها، أما الخطاب الثالث فهو عبارة عن خطاب شكر موجه إلى الكونت وليم السادس أمير بواتييه (Count William VI de Poitiers) يشكره على ما قدمه من خدمات للدفاع عن العقيدة.

والوثيقة الرابعة - فى رأينا - أهم هذه الوثائق جميعا؛ فهى خطاب من البابا إلى الامبراطور هنرى الرابع امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بتاريخ ٧ ديسمبر ١٠٧٤م يخبره باستعداده للمسير لنجدة الامبراطورية البيزنطية (التى تدهورت أحوالها بعد هزيمتها أمام المسلمين فى مانزكرت سنة ١٠٧١م)[٧٣]، وتخليص القديس رومانوس بجيش قوامه خمسين ألف رجل.

ومن الواضح أن الفكرة التى كانت تدور بخلد «جريجورى السابع» كان محورها الحرب المقدسة الهجومية. ولكن النزاع الذى لم يلبث أن نشب بينه وبين الإمبراطور حال دون تنفيذها. وحين ربط البابا جريجورى السابع بين الحرب ضد المسلمين وفكرة الحرب المقدسة كان يجسد الفكرة القائلة بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء باعتبار هذا سببا عادلا (causa justa) لشن الحرب.[٧٤] وهذه الذريعة هى التى اتخذها أربان الثانى فى كليرمون سنة ١٠٩٥م، وهو يدعو أمراء أوروبا وفرسانها، لأخذ شارة الصليب.[٧٥] فقد أدعت البابوية أن الحملة الصليبية الأولى تقوم على سبب عادل هو مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين فى الشرق.

(٧٣) أنظر الفصل الثانى من هذه الدراسة.

(٧٤) Brundage, med. Canon Law, p. 28.

(٧٥) فى رواية فوشيه الشارترى عن خطبة البابا أنه قال : «لست أنا ولكن الرب هو الذى يحثكم، باعتباركم قساوسة المسيح، أن تحضوا الناس من شتى الطبقات.. بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا، وأن تساعدوا السكان المسيحيين، قبل الأوان...» (Fulcher de Chartres, p. 63). وفى رواية جيبوبرت النوجنتى نسب إلى البابا قوله : «يجب أن تقوموا بأكبر جهد لتؤكدوا أن قداسة المدينة ومجد ضريحه سوف تحرر من نير الأثميين..» (Guibert de Nogent, pp. 137-8). أنظر الترجمة الكاملة لنصوص خطبة البابا فى : قاسم، الحروب الصليبية، ص ٨٣-٨٩.

وعندما نجحت الحملة الأولى فى إقامة مملكة بيت المقدس وعدة إمارات أخرى فى المنطقة العربية، تغير المبرر الذى اعتبره اللاهوتيون «سببا عادلا» لشن الحرب ضد المسلمين. وتمت صياغة المبرر الجديد على أساس أن الأرض التى شهدت قصة المسيح قد صارت بأيدى المسيحيين حقا، بيد أنها تحتاج إلى قوات عسكرية للدفاع عنها. وقد أكد البابا اجينوس الثالث (Egenius) هذا الأمر سنة ١١٤٥م، وترددت أصداء كلماته فى الخطابات البابوية بعد ذلك قال: «... بفضل الرب وحماسة آبائكم، الذين ناضلوا للدفاع عنها (الأرض المقدسة) على مر السنين، لكى ينشروا المسيحية بين شعوب هذه المنطقة، نجح المسيحيون فى الحفاظ على هذه الأرض حتى الآن، كما استولوا بشجاعة على مدن أخرى من الكفار...»، «... وسيكون الأمر عنوانا على النبل والاستقامة إذا دافعتم بجسارة عما حققته جهود أبائكم، أيها الأبناء. ولكن إذا جرى الأمر على نحو مختلف، لا سمح الله، فإنه سيبدو واضحا أن شجاعة الآباء قد تلاشت فى الأبناء...»(٧٦).

وانطلاقا من هذا الموقف الجديد لتبرير الحرب ضد المسلمين تحركت البابوية بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبى مدينة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ ميلادية.(٧٧) ووجدت البابوية، والمبشرون، ومؤرخو العصور الوسطى اللاتين الفرصة لكى يعيدوا

---

(٧٦) كانت دعوة أجينيوس بمناسبة سقوط الرها سنة ١١٤٤م فى أيدى قوات عماد الدين زنكى. وقد نقل الحجاج والمسافرون القادمون من الشرق الأخبار إلى غرب أوروبا، كما جاء عدد من الأساقفة الأرمن للتشاور مع البابا حول اتحاد الكنيسة الرومانية الكنيسة الأرمينية، وقد وجه البابا خطابه هذا إلى «ابنه العزيز لويس (السابع ملك فرنسا)، وأبنائه الأمراء الأعزاء، وكل المؤمنين المخلصين فى أنحاء بلاد الغال، أنظر:

Virginia G. Berry, "The Second Crusades", pp. 467-8 Riley-Smith, What were the Crusades?, p. 25.

(٧٧) عن فتح القدس، أنظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية – سيرة صلاح الدين؛ العماد الكاتب الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى. أنظر أيضاً:

Runciman, A Hist., II, pp. 464-6.

أنظر الفصل الثالث لمزيد من التفاصيل.

صياغة «السبب العادل causa justa» للحرب على أساس استعادة القدس من المسلمين. لقد كانوا يحاكمون زمانهم ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التى تنتمى إلى العالم المسيحى، والتى يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين.

وقد كانت هذه العبارة وحدها (وقد ترددت كثيرا فى خطب البابوات ودعاة الحركة الصليبية والمؤرخين الذين كتبوا عنها) كافية لأن تكون مبررا لصياغة السبب العادل فى شن الحرب ضد المسلمين فى الشرق العربى. إذ إن البابوية ركزت دعايتها على أساس ضرورة الدفاع عما تبقى من الكيان الصليبى فى فلسطين، بل إن محاولة غزو مصر فى الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الخامسة سنة ١٢١٨م، والحملة التى قادها لويس التاسع سنة ١٢٤٩م، والتى عرفت بالحملة السابعة، والاقتراحات التى لم تنفذ بغزو مصر - كل هذا كان يتم باعتباره محاولة من جانب البابوية، والغرب الأوروبى الكاثوليكى للدفاع عن بقايا الوجود الصليبى فى فلسطين.[٧٨] وهكذا كان شرط «السبب العادل» لشن الحرب، كما وضعه أوغسطين، عاملا أساسيا فى صياغة مبررات كل حملة من الحملات الصليبية ضد المسلمين فى الشرق العربى.

بل إن البابوية توسعت فى استخدام هذا «السبب العادل» لتبرير حملاتها ضد كل أعدائها من المسيحيين الكاثوليك فى أوروبا نفسها. وقد أسرفت البابوية فى استخدام نموذج «الحملة الصليبية» ضد أعدائها فى الخارج والداخل مما أدى إلى ردود فعل سلبية كثيرة. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى الآن خرجت آراء كثيرة تقول : إن «الحملات الصليبية» ضد القوى العلمانية المعادية للبابوية فى أوروبا لم تكن تستند إلى أساس قوى، ولا يمكن تبريرها. ولكن البابوية ودعاتها حاولوا دائما تبريرها فى إطار المفهوم المسيحى للحرب العادلة.

---

(٧٨) Mayer, The Crusades, p. 16; Riley-Smith, What were the Crusades?, pp.25-26.

ومن ناحية أخرى، تأثرت الكنيسة في موقفها من الحروب الصليبية بحركة «سلام الرب» التى كانت فى بداية أمرها وسيلة تدافع بها الكنيسة عن نفسها. إذ إن الفوضى التى استشرت فى أوروبا عقب انهيار الامبراطورية الكارولنجية بسبب المنازعات والحروب الاقطاعية جعلت الكنيسة تحاول تقييد العنف وتضييق نطاقه. فقد انهار النظام العام، وتراجعت الأخلاقيات، وفى كل مكان فى أوروبا، طوال القرن العاشر الميلادى، كان المحاربون من أبناء الطبقة الإقطاعية يمارسون أفظع الأعمال. وعندما كانت الحروب الإقطاعية (feuds) تمزق أوصال أوروبا الغربية بسبب حال الجوع إلى الأرض فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال فكرتين أساسيتين هما : سلام الرب، وهدنة الرب. فقد تم عقد مجمع كنسى فى شارو (Charroux) سنة ٩٨٩م أصدر مرسوما بالسلام جاء فيه تحريم مهاجمة ممتلكات الكنيسة، والفلاحين وأملاكهم، ورجال الكنيسة، مع تهديد كل من ينتهك هذه الشروط بالوقوع تحت طائلة عقوبة الحرمان.[٧٩] وتم التأكيد على قرارات هذا المجمع فى السنة التالية فى مجمع كنسى عقد فى لوبوى (Le Puy)، وجاء مجمع بواتييه سنة ١٠٠٠ ميلادية تأكيدا على هذا الاتجاه، الذى اتخذته الكنيسة الكاثوليكية للحد من أضرار الحروب الإقطاعية.[٨٠] لقد تدخلت الكنيسة لحماية أملاكها ورجالها، ولكن المجتمع كله أفاد من نتائج هذه الحركة.

وفى معاهدات السلام الباكرة فى شتى أنحاء أوروبا كان النبلاء الإقطاعيون يقسمون على مراعاة حصانة رجال الكنيسة، والمدنيين، وأملاك الكنيسة أيضا. ومنذ سنة ١٠٤٠م فصاعدا بات من المعتاد إصدار مراسيم تحرم القتال فى أيام معينة، ولدينا عدة وثائق من هذا النوع؛ منها نص وثيقة هدنة الرب التى عقدت فى أسقفية تيروان

---

(٧٩) أنظر نص هذه الوثيقة فى : Brian Tierney (ed.), The Middle Ages, vol. I, Sources of Medieval History, (3rd ed. New York, 1978), p. 136.

أنظر نص الترجمة العربية لهذه الوثيقة فى : قاسم، الحروب الصليبية – نصوص ووثائق، ص٦٦.

(٨٠) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p. 85.

(Terouanne) سنة ١٠٦٣م ميلادية،[٨١] وهى تحدد فترة «هدنة الرب» بأربعة أيام وخمس ليال تبدأ بغروب شمس الأربعاء، وتمتد حتى شروق شمس الإثنين، وكل من يخرق هذه الهدنة يعرض نفسه لعقوبة الحرمان.

ويبدو أنه كلما مر الزمان كانت نصوص مراسيم هدنة الرب تزداد تشددا، إذ إن لدينا وثيقة عن مرسوم بهدنة الرب صدر سنة ١٠٨٣م على يد أسقف كولون (Cologne)، [٨٢] تبدو نصوصها أكثر تشددا من نصوص هدنة الرب الصادرة عن أسقفية تيروان قبل عشرين عاما.

ثم كانت المرحلة الأخيرة متمثلة فى محاولة القضاء على الحروب الاقطاعية تماما. ويمكن إرجاع الفضل فى تطور حركة السلام إلى الرهبان الكلونيين الذين ارتبطوا بحركة الإصلاح الكلونية. لقد كان المصلحون الكلونيون يستهدفون إصلاح الحياة الديرية والكنيسة الكاثوليكية، والعالم الغربى. كان إصلاح الديرية يستدعى وضع أسس جديدة ودستور جديد للرهبان، وكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية يعنى إصلاح البابوية بالقدر الذى يمكنها من التصدى للعلمانيين، أما إصلاح العالم الغربى فكان يعنى إخماد الحروب الإقطاعية التى باتت هى النغمة الدالة فى الحياة الأوروبية آنذاك.

وقد خطت الكنيسة خطوات حاسمة تجاه «الحرب المقدسة» بسبب حركة السلام، إذ لم يكن يكفى إقناع النبلاء الإقطاعيين بعدم شن الحرب، وبات من الضرورى إيجاد وسيلة تجبرهم على حفظ السلام. ومن ثم تورطت الكنيسة فى تنظيم الحملات العسكرية وتوجيهها لعقاب من يعكرون صفو السلام.[٨٣] هذا النمط من الحروب

---

(٨١) Brien Tierney (ed.), op. cit., vol. I, pp. 136-136.
أنظر أيضاً، قاسم، المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨.

(٨٢) Norman F. Cantor (ed.) Med. World., pp. 183-186.

(٨٣) Mayer, The Crusades, p. 17; The Just War, p. 34; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol., I. pp. 85-86.
أنظر أيضاً : قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٥١-٥٢.

الكنسية اعتبرتها الكنيسة «حروبا مقدسة» تشن فى خدمة الكنيسة وتحت رايتها. وقد شاع هذا النمط ليكون بمثابة سلاح سياسى هام بأيدى رجال الكنيسة فى القرن الحادى عشر الميلادى. وكانت تلك خطوة هامة نحو بلورة فكرة الحروب الصليبية.

ولم يحدث قبل منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أن صارت البابوية قوية بالقدر الذى يجعلها تفكر جديا فى تجريد حملة عسكرية ضد الشرق العربى الإسلامى، إذ إن السياسة النشطة التى اتبعتها البابوية فى تلك الفترة التى شهدت إصلاح الكنيسة والبابوية(٨٤) كانت تدفع البابوات نحو موقف جديد من الحرب. ففي سنة ١٠٥٣م قام البابا ليو التاسع (Leo IX) (١٠٤٨-١٠٥٤م)، والذى يعتبر من أوائل البابوات الإصلاحيين، بقيادة جيش فى جنوب ايطاليا ضد النورمان.(٨٥) وفى هذه الحملة التى قادها البابا بنفسه منح الألمان الذين أرسلهم الإمبراطور الألمانى غفرانا يعفيهم من العقاب على ذنوبهم، كما يعفيهم من التكفير عنها. ومن الجدير بالذكر أن هذه المعركة التى عرفت باسم معركة كيفيتا (Civita) انتهت بالقضاء على الجيش البابوى، وتم أسر البابا نفسه ليبقى رهين محبسه لدى النورمان حوالى سنة، ثم أطلق سراحه سنة ١٠٥٤م، وعاد إلى روما ليلقى حتفه فى السنة نفسها.

وكان الغفران الذى منحه ليو التاسع فى هذه الحملة شبيها بالغفران الذى منحه أربان الثانى للمشاركين فى الحملة الصليبية الأولى.(٨٦) ثم حاول نيقولا الثانى

(٨٤) عن حركة الإصلاح البابوية، أنظر :

Geoffrey Barraclough, The Medieval Papacy, pp. 63-117, R.W. Southern, The Making of the Middle Ages, (London, 1973), pp. 130-148.

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٣٥-٣٤٢.

(٨٥) Mayer, op. cit., p. 19; Brundage, med. Canon Law, pp. 22-2; Barraclough, op. cit., pp. 73-4.

(٨٦) يقول نص الغفران الذى منحه أربان : «إن من يذهب إلى أورشليم، بدافع من الإخلاص فقط، وليس طلبا للشرف أو المال، لتحرير كنيسة الرب، يمكن أن يجعل هذه الرحلة بديلا من أى عمل يكفر به عن خطاياه» :

R. somerville, The Councils of Urban II, Decreta Cleromontensia, Amesterdam 1972), p. 74; Riley-Smith (eds.) The Crusades, p. 37.

(Nicholas II) (١٠٥٨-١٠٦١م) أن يحل المشكلة النورمانية بالتحالف مع أمراء النورمان على أن يكون ريتشارد أمير كابوا (Richard of Capua)، وروبرت جويسكارد (Robert Guiscard) تابعين إقطاعين عليهما أداء الخدمات الاقطاعية العسكرية لسيدهما (البابا).(٨٧)

هكذا صارت الكنيسة الكاثوليكية قوة عسكرية إقطاعية، استخدمت قواتها فى الدفاع عن الدويلات البابوية، ثم استخدمت هذه القوة العسكرية فيما بعد فى أغراض الحرب المقدسة. وكانت تلك فى الواقع بمثابة «السوابق»، أو «التجارب» العملية التى نضجت من خلالها «الحملة الصليبية». ومن ناحية أخرى كانت «الحرب المقدسة» مفيدة للنورمان بقدر ما كانت مفيدة للكنيسة، إذ قام روبرت جويسكارد بغزو شمال صقلية (١٠٦١-١٠٧٢م) تحت راية الحرب المقدسة، فقد أعلن أن هذه الحرب ضد المسلمين وفاء للقسم الذى قطعه علي نفسه أمام البابا نيقولا الثانى فى ملفى، وبذلك حصل على مباركة البابوية على هذا المشروع(٨٨).

والمثال الأكثر وضوحا من الحروب النورمانية يتجسد فى الحرب ضد المسلمين فى الأندلس، والتى وصفها الكثيرون فى مصطلحات أقرب إلى الحملات الصليبية، لاسيما غزو بربشتر (Barbastro) (١٠٦٤م) الذى ساهم فيه النورمان من ولاية نورمانديا بنصيب كبير.(٨٩) وقد ارتفعت هذه الحملة الكاثوليكية ضد مسلمى الأندلس إلى

---

(٨٧) Mayer, The Crusades, p. 19.

(٨٨) عن غزو النورمان لصقلية أنظر :

Robert S. Lopaz, "The Norman Conquest of Sicily", in Setton (ed.), A History of the Crusades, I, pp. 54-67.

(٨٩) كان جيش المسيحيين فى هذه المعركة خليطا من الأوروبيين، إذ جمع بين الكتلان والأرغونيين، والنورمان، والأقطانيين، والبرجنديين وقد شن هذا الجيش هجوماً ناجحاً ضد المعقل الإسلامى الحصين فى بربشتر، ونهبوا المدينة عن آخرها، ولكن المسلمين استردوها فى العام التالى ١٠٦٥م - أنظر :

Benjamin W. Wheeler, "The Reconquest of Spain before 1095", in Setton, I, pp. 38-39.

مستوى «السابقة الصليبية»؛ بيد أن غياب الدور البابوى النشط هنا ينفى عنها صفة «الحملة الصليبية» الكاملة، إذ إن موافقة البابا الإسكندر الثانى على هذه الحملة وتأييده لها ظل فى حدود منح الغفران الجزئى لمن ساهموا فيها. وما حدث فى إسبانيا كان «حربا مقدسة» عادية تتسق مع النموذج الذى دعا إليه البابوات والرهبان الكلونيون،[٩٠] لأن الأديرة الكلونية كانت هى الأكثر نشاطا فى مجال تسهيل الحرب ضد المسلمين فى الأندلس. ومن الواضح أنه كانت هناك رابطة تجمع بين مقاومة المسلمين من ناحية والحملات الصليبية من ناحية أخري.

وعلى الرغم من هذا إلا أن الحروب ضد المسلمين فى إسبانيا لم تكن حروبا صليبية، إذ إن البابوية سمحت فيما بعد للفرسان بالقتال ضد مسلمى الأندلس بدلا من الاشتراك فى الحملة الصليبية إلى فلسطين. ولدينا وثيقة صريحة في هذا الشأن. والوثيقة خطاب تاريخه فيما بين يناير ١٠٩٦م ويوليو ١٠٩٩م - أى فى خضم الحركة التى شكلت لأحداث الحملة الأولى - موجه من البابا إلى بعض أمراء الإسبان يقول فيه :[٩١] «وإذا كان الفرسان فى إقليم آخر قد قرروا جميعا الذهاب لمساعدة الكنيسة الآسيوية، وأن يحرروا إخوانهم من طغيان المسلمين فإنه ينبغى عليكم أيضا، وبتشجيع منا، أن تبذلوا قصارى جهدكم، ولا ينبغى لأحد أن يشك فى أن خطاياه سوف تغتفر إذا مات فى هذه الحملة حبا فى الرب وفى إخوانه، وأنه سوف ينال بالتأكيد نصيبه فى الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب الواسعة. ولذا فإنه إذا كان أحدكم قد قرر الذهاب إلى آسيا فعليه أن يفى بقسمه هنا، ذلك أنه ليس من الخير فى شئ أن ننقذ المسيحيين من المسلمين فى مكان لكى نعرضهم لطغيانهم فى مكان آخر».

---

(٩٠) Mayer, The Crusades, pp. 20-21.

(٩١) Riley-Smith (eds.), The Crusades - Idea and Reality, p. 40.

أنظر الترجمة العربية الكاملة للنص : قاسم، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق، ص ٨٩-٩٠.

وعلى الرغم من صراحة هذه الوثيقة فى المساواة بين القتال ضد مسلمى الأندلس والمشاركة فى الحملة الصليبية. إلا أننا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن هذه الوثيقة قد صدرت بعد أن صارت «الحملة الصليبية» أمرا واقعا، وليس قبل ذلك. ومن ثم فإن «السوابق الصليبية»، التى عرضنا لها، لم تكن في حقيقة أمرها سوى مجرد «حروب مقدسة». بيد أن «الحرب المقدسة» تظل حربا مسيحية، والقول بقدسيتها لا يعفيها من الحدود التى وضعها الفكر المسيحى التقليدى على استخدام العنف. إذ كان لابد لها من توفر الشروط التى تجعلها «حربا عادلة»، أى السبب العادل، والسلطة الشرعية، وسلامة القصد.[٩٢] وبطبيعة الحال، سيكون من العبث أن نفترض أن كل الحملات الصليبية كانت لها أسبابها العادلة - حتى من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية وأبناء الغرب الأوروبى - كما أن حركة التاريخ لم تكن أبدا محكومة بآراء علماء اللاهوت والقانون الكنسى؛ فليس ثمة نظرية تصنع الحركة التاريخية. وهذا أمر ستكشف عنه الأحداث نفسها[٩٣].

وعشية الحروب الصليبية كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وصلت إلى موقف جديد تماما من الحرب تبلور فى كتابات واحد من أهم أتباع البابا جريجورى السابع، وأكثرهم إخلاصا، وهو «بونيزو سوترى Bonizo de Sutri» الذى كان أول من جمع فى كتابه «عن الحياة المسيحية De Vita Christiana» (فيما بين سنة ١٠٩٠م وسنة ١٠٩٥م تقريبا) الآراء المتداولة عن واجبات الفارس المسيحى[٩٤].

ومن ناحية أخرى كانت فى أوروبا عشية الحملة الصليبية الأولى طبقة من الفرسان الإقطاعيين قد تطورت ونضجت عبر أحداث القرون السابقة، وصار لها قانون أخلاقى مشترك عن الحدود السياسية للإقطاعيات والدول. وربما يبدو أن المناقشة حول

---

(٩٢) Riley-Smith, What were the Crusades?. p. 17.

(٩٣) أنظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(٩٤) Mayer, The Crusades, p. 20.

أصول الحركة الصليبية قد طالت أكثر مما ينبغى، بيد أن هذه المناقشة بحد ذاتها كشفت عن حقيقة لا يرقى الشك إليها؛ مؤداها أن الحركة الصليبية لم تكن لترى النور إلا بعد أن مهدت الكنيسة الكاثوليكية الأرض بصياغة أيديولوچية الحرب المقدسة من ناحية وظهور طبقة الفرسان (التى وجه أربان خطابه إليها فى كليرمون) بسماتها الاقطاعية المشتركة، ونظامها القيمى والأخلاقي الواحد، وظروفها الاجتماعية والاقتصادية المتشابهة فى سائر أنحاء الغرب الأوروبى، من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من كل ما ذكرناه فى الصفحات السابقة عن الحج، والحرب المقدسة، وتطور الفكرة الصليبية من منظور تاريخى إلا أنه سيكون من الصعب علينا أن نشرح الدور الكبير الذى لعبه الفرسان فى الحركة الصليبية، أو دور العامة من الفلاحين وفقراء المدن، أو حتى دور البابوات والأساقفة وسائر رجال الكنيسة - فضلا عن ملوك أوروبا وأمرائها الكبار - أقول سيكون من الصعب علينا أن نشرح ذلك كله فى ضوء الدين والنفسية الجماعية، والاعتزاز بالفروسية... وما إلى ذلك. إذ إن العوامل الاقتصادية، والاجتماعية الفردية، كانت لها أهميتها، وربما كانت أهميتها أكثر من اليوم. وهذا هو موضوع الفصل الثانى.

الفصل الثانى

الظروف التاريخية والدوافع

أحوال أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى (الأحوال الاقتصادية والاجتماعية - الأحوال السياسية) - دوافع الفرسان - دوافع الكنيسة - أوضاع بيزنطة العسكرية والسياسية (مانزكرت وما بعدها - الاتصالات البيزنطية مع أوروبا الغربية) - الأوضاع السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية عشية الحروب الصليبية.

كانت الحركة الصليبية انعطافا خطيرا فى تاريخ الغرب الأوروبى. إذ كانت الحملات الصليبية التى دارت على نطاق واسع؛ سواء من حيث مجالها الجغرافى، أو إطارها الزمنى، أو أعداد الذين شاركوا فيها، أول حرب يخوضها الأوروبيون تحت راية أيديولوچية بعينها. وعلى الرغم من الإفلاس الأيديولوچى الذى تجلى منذ البداية فى خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى فإن القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى قد اعتنقت هذه الأيديولوچية الصليبية وفق تفسيرها الخاص الذى يناسب مصالحها.

ولما كانت الحركة الصليبية، فى التحليل الأخير، إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التى كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية؛ وهى أهداف كانت تتركز أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحى. كما أن الحركة الصليبية كانت، من ناحية أخرى، محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الاقطاعى، سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم، أو من الفلاحين. لقد كان الفرسان يتوقون إلى توسيع سلطانهم، وأملاكهم. ولم يكن هذا ممكنا دون الصدام مع الملكية. وبينما كانت البابوية تحارب ضد الملكية من أجل السيادة والسمو، كان النبلاء الإقطاعيون يتطلعون إلى

بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية، ولعل هذا هو ما جعل البابا أربان الثانى يوجه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات، لأن فرنسا كانت لا تزال الدولة الاقطاعية الوحيدة آنذاك.

أما البورجوازية الناشئة، ممثلة فى القوى التجارية الايطالية على وجه الخصوص، فقد رأت فى المشروع الصليبى فرصة هائلة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم. ولهذا سارعت بالإنضمام للمشروع بعد أن صار حقيقة واقعة.

بيد أن هذه الدوافع التى حركت مختلف القوى الأوروبية لشن حملتها الصليبية التى كانت «مشروع العصر» بالنسبة للكثيرين، كانت محكومة بالأحوال والظروف التاريخية السائدة فى الغرب الأوروبى من ناحية، وفى الإمبراطورية البيزنطية والعالم العربى من ناحية أخرى. وربما يكون مفيدا أن نلقى نظرة شاملة على أحوال أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية، قبل مناقشة دوافع المجتمع الغربى لشن الحرب تحت راية الصليب.

كانت أوروبا حتى القرن الحادي عشر الميلادى لاتزال مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسى، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطى والعالم العربى الإسلامى. فقد وصلت كل من الحضارة البيزنطية والحضارة العربية الإسلامية إلى قمتها، وبدأت بيزنطة منذ القرن الحادى عشر الميلادى تعانى مظاهر التآكل البطئ والضعف الناجم عن الصراع الداخلى، والهزيمة الخارجية الفادحة على يد المسلمين فى مانزكرت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١م. أما العالم العربى الإسلامى فكان يعانى التشرذم والضعف السياسى، على الرغم من أنه كان لايزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية والبشرية، وثرواته الأسطورية، وعلى الرغم من أن الزمان كان لايزال يحتفظ له ببعض من أعظم إنجازاته العسكرية والفكرية.

وقد كان القرن الحادى عشر الميلادى بالنسبة للغرب الأوروبى بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع فى تاريخ العصور الوسطى. وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، التى أخذت تتشكل منذ القرن السادس الميلادى، قد رسخت بحيث كانت الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى. ولعل هذا ما جعل المؤرخين الأوروبيين المتخصصين فى دراسة تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم «العصور الوسطى الناضجة» أو العالية The High Middle Ages.(١)

لقد شهد القرن الحادى عشر الميلادى من وجهة نظر الغرب قادة كبارا وزعماء بارزين، مثل وليم الفاتح ملك إنجلترا، والإمبراطور هنرى الثالث وابنه هنرى الرابع، وروجر الأول النورمانى حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد الذى كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، والفونسو السادس ملك قشتاله. وقد كان أولئك جميعا من الحكام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والنظام والكفاءة يمثلون الغدر والطموح والتعصب من وجهة النظر الشرقية. كما عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى معظم البابوات الإصلاحيين، وأبرزهم جريجورى السابع (الشيطان المقدس) الذى رغب فى تحقيق السمو البابوى، وكان خليفته أربان الثانى صاحب الدعوة إلى الحملة الصليبية. وكانت الكنيسة قد مرت بأهم عملية إصلاحية تحت زعامة أولئك الذين تربوا فى الأديرة الكلونية. أما الفلاحون المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات، ويزرعون

---

(١) يرى البعض أن العصور الوسطى العالية (High Middle Ages) هى العصور الوسطى الحقيقية؛ لأنها الفترة التى تكشف عن الخصائص والأخلاقيات والمثل التى تنطبق بحق على مفهوم العصور الوسطى. انظر : نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٢١-٣٢٨.
أنظر أيضاً :

Morris Bishopp, The Pelican Book of the Middle Ages, (Great Britain, 1978), pp. 45-84; Phillippe Wolf, The Awakening of Europe (transl. by Anna Carter, Penguin, 1968), p. 208; Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 304-310.

أرضها بالمحاصيل التى تحتاجها أوروبا، وبحارة جنوه وبيزا الذين طردوا المسلمين من شواطئ أوروبا، فلابد من أنهم كانوا مدفوعين بروح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى ميزت حركة التاريخ الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى.

ومن ناحية أخرى كانت ثمة تغيرات اجتماعية وتكنولوجية تجرى فى تلك الفترة. ولا شئ يكشف عن تأثير هذه التغيرات فى غرب أوروبا أفضل من أن نلاحظ أن الناس كانوا يبحثون لأنفسهم عن حياة أفضل. فقد أخذ الناس يسافرون إلى مناطق الحدود، وما وراء البحار بحثا عن فرص أحسن، وأملا فى تحقيق طموحاتهم.[٢] وباختصار كان التوسع والتنظيم أهم سمات القرن الحادى عشر الميلادى.[٣] لقد أخذت أوروبا توقن بأن طاقتها الحضارية النامية أكبر من أن تستوعبها أراضيها الضيقة، فأخذت تسعى لإيجاد منافذ خارجية لها. وقد كان هذا هو أهم أسباب التوسع الذى شمل جبهات عديدة، كما بدأت أوروبا تفيد من عقول أبنائها فى التنظيم، وكان لايزال بدائيا. وقد كانت الحملات الصليبية جزءا من التوسع الأوروبى، ولم يكن ممكنا القيام بهذه الحملات دون وجود المقدرة على تنظيمها.

كان الطابع الريفى هو الغالب على أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى، وقد توزع سكان أوروبا بين نموذجين رئيسيين للاستقرار : «البلدة Hamlet» التى كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب مساحة الأرض التى يتولون زراعتها، وقد خلت هذه البلدة من أى كنيسة. وفى اسكتلندة، وويلز، وأيرلندة، وبريتانى، وأقاليم فرنسا الجبلية كان نمط البلدة هو السائد.[٤] أما بقية مناطق أوروبا

(٢) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣١٢-٣١٨.

(٣) Sidney Painter, "Western Europe on the eve of the Crusdades", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, I, pp. 3-5; Hilmar C. Krueger, "The Crusades and European Expansion"; in : James A. Brudge (ed.), The Crusades-Motives and Achievements, (Boston, 1964), pp. 59.

(٤) Painter, ":Western Europe", p. 3.

فقد كانت القرية تمثل النمط السائد فيها لمراكز الاستقرار السكانى. وفى القرية عادة ما كانت توجد كنيسة، وبيت صاحب الإقطاع، أو قلعته، ثم بيوت الفلاحين التى بنيت من الطين وأغصان الأشجار. وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعى، ثم منطقة البرارى والغابات. وعلى حواف الحقول، التى تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية، كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكى يزرعوا محصولا أو إثنين فى الأرض التى خصبها الرماد الناتج عن الحرق.

وعلى الرغم من أننا نعرف بعض المعلومات عن تحسن الزراعة وأساليبها فى القرن الحادى عشر الميلادى فإننا لا نعرف إلى أى مدى تحسنت وسائل الزراعة على وجه الدقة. لقد كان اختراع الطواحين الهوائية من أسباب تسهيل زراعة الغلال، كما أن عمليات إزالة الغابات واستصلاح الأرض كانت تجرى فى كل مكان فى غرب أوروبا. وكانت الأخشاب الناتجة من قطع الأشجار تستخدم فى بناء المساكن والقلاع والكنائس فى مناطق الريف والحضر على حد سواء، كما أن الفلاحين غيروا من نظام الزراعة فى شريطين أو ثلاثة بسبب الابتكار الذى غير شكل المحراث الجرمانى القديم الذى كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين أو ثلاثة، فتحسن الإنتاج.[٥]

لقد أدت محاولات استصلاح الأرض على حساب الغابات والمستنقعات إلى زيادة الإنتاج الزراعى، وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن اقتصاديات الزراعة فى غرب أوروبا آنذاك فإنه يبدو أن القرية كانت قادرة، مع قلة إمكاناتها، على أن تعول الناس الذين عانوا من قسوة الطبيعة والقانون الاقطاعى على السواء.[٦] ولا ينبغى أن نبالغ فى قيمة عمليات النمو الزراعية؛ لأن التحسن النسبى الذى طرأ على مجال الزراعة فى

---

(٥) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣١٣؛ جـ٢، ص ٣٢٩.

(٦) R.W. Southern, The Making of the Middle Ages, (London, 1973), pp. 74-75.

أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية، وإنما أدى إلى زيادة موارد السادة الاقطاعيين المادية والبشرية.(٧)

كان الناس فى أوروبا العصور الوسطى تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد، إذ كانت الأرض المزروعة فى القرن الحادى عشر الميلادى لاتزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البرارى والغابات والأرض البور، وكانت كل هذه المساحات مرتعا حرا للدببة والذئاب وغيرها. ولم يكن غريبا أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى، أو تجوس فى الحقول المزروعة. وفى كوخ حقير كان يعيش القروى حياة أدنى من حيوان الحقل الذى يهتم به. أما طعامه فكان فقيرا وبسيطا من إنتاج حقله، وملابسه مصنوعة من جلود حيواناته، أو من صوف أغنامه.(٨) وكان يومه شاقا مضنيا يقضيه فى أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوى إلى فراشه الحقير فى المساء وقد هده التعب.(٩)

ولم يكن الفلاح الأوروبى يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة فى أعياد الميلاد، ثم يحتفظ بالباقى مقددا ومملحا ليأكل منه طوال العام. ولكنه فى كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من غائلة المجاعة. فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل فى ذلك الزمان كان تدهور المحصول المحلى فى أى إقليم مؤشرا على حدوث المجاعة.(١٠)

---

(٧) Wolff, The Awakening of Europe, pp. 198-202; Pianter, "Western Europe", pp. 8-9.

(٨) Pianter, "Western Europe", pp. 5-6; Coulton, The Medieval Scene, pp. 33-34.

(٩) لدينا نص عبارة عن حوار بين أحد السادة الاقطاعيين وواحد من الأقنان العاملين فى أرضه، يتحدث عن عدة حِرف فى القرية الأوروبية آنذاك، منها : الفلاحة، ورعى الأغنام، وتربية البقر والثيران، فضلا عن صيد السمك، وبعض الحرف الصغيرة المطلوبة فى القرية – أنظر :
Wright, Thomas, Anglo-Saxon and Old English Vocabulary (London, 1984), vol. I, p. 88.
أنظر الترجمة العربية الكاملة للنص : قاسم، الحروب الصليبية – نصوص ووثائق، ص ٦٨-٧٠.

(١٠) Pianter "Western Europe", p. 5; Norman Cohn, The Appeal of the Crusades for the poor", in Brundage (ed.), The Crusades, pp. 35-36.

وكانت السنوات العشر التى سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولا سيما فى شمال فرنسا وغرب ألمانيا. إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة. ومنذ سنة ١٠٨٩م كان الرعب يتملك السكان فى تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذى كان يضرب فجأة إحدى القرى، أو المدن، فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطئ. ومن الطبيعى أن يكون رد فعل الناس فى إطار رد الفعل الجماهيرى المعتاد، أى التعلق بأهداب الدين، أو محاولة التكفير عن الذنوب، والتجمع حول الزاهدين والنساك بحثا عن الخلاص. ولذا راقت الدعوة التى وجهها البابا لشن حملة صليبية ضد المسلمين فى عيون الفلاحين الفقراء، ورأوا فيها نبوءة Prophetae تعدهم بالخاص.(١١)

وبالنسبة لمعظم سكان الغرب الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت القرية هى الوحدة الأساسية: اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، وعلى المستوى الدينى أيضا، إذ إن التقسيم الاقطاعى فرض نوعا من الاقتصاد الطبيعى جعل الفلاحين فى كل قرية يحاولون تحقيق الاكتفاء الذاتى فى حدود ما تنتجه القرية. وفى أعياد القديسين الذين يبجلهم أهل القرية (وهم تعبير عن عبادة قوى الطبيعة على نحو أو آخر، ولم تعترف الكنيسة بأولئك القديسين الريفيين أبدا) كان القروى يجد المتعة والتسلية. وكان قساوسة الأبرشيات الريفية يقدمون للسكان الفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية، وأفكارهم الضيقة عن العالم. ولما كان القسيس الأبرشى أميا فى أغلب الأحوال فإن لنا أن نتصور طبيعة ما كان يقدمه من خدمات للفلاحين المساكين، وما ينتج من هذه الخدمات الجاهلة المقدمة من قسيس جاهل من تعصب

---

(١١) Maurice Keen, The Pelican History of the Middle Ages, (Penguin, 1971), p. 123; The Mayer, The Crusades, p. 22; Marc Bloch, Feudal Society (Chicago, 1961), pp. 72-73; Cohn, "The Appeal of the Crusades", p. 36.

وتزمت مقيت. لقد كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفى والإيمان بالخرافات والمعجزات. وكان سكان كل قرية يعتقدون بأن الينابيع والمجارى المائية والأشجار التى تحيط بقريتهم تضم بعض الأرواح التى يمكنها إتيان المعجزات.(١٢)

وقد اختلف الوضع القانونى للفلاحين، والجزء الذى يمكنهم الاحتفاظ به من محصول الأرض الزراعية، اختلافا بينا من قرية لأخرى. ففى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى كان كل رجل يعمل فى أرض زراعية، فى إنجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا، مقيدا بالتزامات إقطاعية تجاه أحد السادة الاقطاعيين؛ إما إيجارا وإما خدمة.(١٣) وفى بعض المناطق الريفية، مثل شرق ألمانيا وبعض أقاليم فرنسا، كان يوجد فلاحون أحرار، ولكن أولئك كانوا فى سبيلهم لأن يتحولوا إلى أقنان. ولم يتم هذا التحول على أى حال سوى بعد القرن الحادى عشر الميلادى. ولدينا وثيقة هامة يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الحادى الميلادى عشر تصف لنا عملية تحول فلاح حر إلى قن من عبيد الأرض. والوثيقة التى حفظها رهبان دير «مورموتييه Marmoutier» فى ضواحى «تور Tours» نموذج لكثير من الوثائق التي تكشف عن تحول أعداد متزايدة إلى أقنان خاضعين للأديرة والكاتدرائيات، فضلا عن السادة العلمانيين. يقول نص الوثيقة :(١٤) «... ليكن معلوما، لكل من يجيئون بعدنا، أن رجلا فى خدمتنا يدعى وليم، شقيق رينالد، الذى ولد لأبوين من الأحرار، قد تحرك مدفوعا بحب الرب صوب غاية سوف يحسبها له الرب حسنة. إذ وهب نفسه قنا للقديس مارتن فى «مورموتييه»، ولم يكتف بأن يهب نفسه فقط؛ بل وهب جميع ذريته من بعده لكى يظلوا إلى الأبد فى خدمة رئيس الدير والرهبان فى هذا المكان بشروط واضحة. ولكى يتم التأكيد على هذه الهبة وتوضيحها وضع حول رقبته حبلا،

---

(١٢) Wolff, The Awakening of Europe, p. 202; Coulton, The Medieval Scene, pp.33-34.

(١٣) Saidney Painter, "Western Europe", p. 6.

(١٤) Southern, The Making of the Middle Ages, pp. 96-97.

كما وضع أربع قطع من النقود على مذبح القديس مارتن اعترافا بالقنانة، وكرس نفسه للرب العظيم. وقد رأى ما حدث، وشهد عليه أولئك الآتية أسماؤهم...».

لقد كان تحول الفلاح الحر إلى قن عملية تجرى بمعدلات متصاعدة فى كافة أنحاء أوروبا، ولم تقف الكنيسة ضدها بل أفادت منها بصفتها أكبر ملاك الأرض الزراعية فى الغرب الأوروبى حتى ذلك الحين. فقد كانت الهبات التى أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها تمتلك مساحات زراعية شاسعة؛ ومن ثم كان لابد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عملية تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة حب الرب، أكثر الوسائل فعالية لضمان قوة العمل اللازمة لزراعة أملاك الكنائس والأديرة.

لقد كان الأقنان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف الأوروبى عشية الحملة الأولى. وكان أولئك الأقنان يحتلون مكانة فى البناء الاجتماعى بين الفلاحين الأحرار من ناحية، وعبيد الأرض من الأرقاء من ناحية أخرى. ولم تكن أعدادهم، أو نسبتهم متساوية فى كل أنحاء أوروبا؛ ففى إنجلترا كان عدد الأقنان كبيرا، على حين كان عدد عبيد الأرض كبيرا فى جنوب فرنسا وإسبانيا(١٥) وفى بقية مناطق فرنسا وفى الألزاس واللورين كانت الأغلبية من الفلاحين أقنانا دون أن تكون لهم حقوق تجاه سادتهم الاقطاعيين. وفى ظل تلك الظروف نجد أن الكثيرين ممن ولدوا فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى قد وقعوا فى أغلال القنانة، لأن واحدا من أسلافهم المجهولين قد أجبر على التخلى عن حريته.

وكانت العلاقة بين السيد الاقطاعى والفلاح تشبه علاقة كل منهما بالطبيعة فى تلك العصور. فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون صديقا كما يحتمل أن يكون عدوا، لكن القن يراه ضروريا لاستمرار حياته فى كل الأحوال. لقد كان كل أمر من أمور

(١٥) Coulton, Medieval Scene, pp. 23-26.

الحياة اليومية للأقنان مرتبطا بأسيادهم الاقطاعيين ومعتمدا على سلوكهم. وكان القن مربوطا إلى الأرض لا يمكنه الرحيل عنها، كما لا يستطيع أن يستبدل سادته، إلا بارتكاب جريمة، أو المغامرة بالهروب، أو بشراء حريته بالمال (إذا قبل سيده بيعها). أما فى شرق انجلترا وشمالها فربما كان أكثر من نصف الفلاحين أحرارا.[١٦] بيد أن أحوال الفلاحين عموما، سواء كانوا من الأحرار، أو الأقنان، أو الأرقاء، كانت عابسة كئيبة مثل الليالى الموحشة التى كانت تلف قراهم بالبرد والظلام.

لقد كان النظام الإقطاعى مجموعة من المؤسسات يسرت للطبقة الاقطاعية، بجناحيها من الفرسان والقساوسة، أن تعيش من ناتج عمل الفلاحين. ففى معظم المناطق الريفية كان الفلاحون الأقنان يجنون المحصول لكى يضعوه فى مخازن السيد الاقطاعى، إذ كان صاحب الاقطاع يعتبر نفسه مالكا للموارد العامة للقرية، وأن من حقه أن يعهد للفلاحين باستخدامها فقط، دون حيازتها. فقد كان على الفلاح أن يقدم عددا من الخنازير لسيده الاقطاعى إذا أراد أن ترعى خنازيره فى الغابة الملاصقة للقرية، كما كان عليه أن يقدم الزبد مقابل أن يترك أبقاره فى المراعى المحيطة بالحقول، وإذا صاد القروى بعض الأسماك من المجارى المائية، أو البحيرات الواقعة داخل نطاق الاقطاع يكون للسيد الاقطاعى حق الحصول على نصيب من حصيلة الصيد. وباختصار، كان السيد الاقطاعى يعتمد على ما ينتجه الفلاحون فى طعامه، كما كان يعتمد على قوة سواعدهم فى بناء بيته، أو قلعته، وفى ملابسه أيضا.[١٧] وفى المقابل كان الأقنان الخاضعون للسيد الاقطاعى لا يتمتعون بأى حقوق مدنية تجاهه.

وفضلا عن هذه الواجبات والخدمات التى ألزم بها الفلاحون تجاه السيد الإقطاعى، كانت له، أيضا، حقوق سياسية عليهم. ذلك أنه نتيجة تدهور سلطة الدولة

---

(١٦) Painter, "Western Europe", p. 6; Coulton, Medieval Scene, pp. 22-23; Keen, The Pelican Book, p. 58.

أنظر أيضاً : قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٩٤-٩٥.

(١٧) Painter, op. cit., p. 7.

المركزية بسبب ضعف الحكام الكارولنجيين الأواخر، وعدم قدرتهم على السيطرة على الدوقات والكونتات، اغتصب هؤلاء السلطة الملكية فى دوقياتهم وكونتاتهم وحولوها إلى قطاعات وراثية. وتضمنت السيادة على الضياع الاقطاعية السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين فى تلك الاقطاعات. فقد تمكنوا منذ القرن التاسع الميلادى، فى فرنسا، من انتزاع حق جمع الضرائب، وعقد المحاكمات فى القضايا الهامة.(١٨) وعلى الرغم من أن الأمراء الاقطاعيين ظلوا يمارسون هذه الصلاحيات باعتبارهم ممثلين للملك فإن الطبيعة الوراثية للإقطاع الأوروبى جعلت النبلاء الأوروبيين يعتقدون، بعد مرور الزمن، أن هذه الصلاحيات السياسية لهم دون سواهم.(١٩) وقد اختلف مدى السلطة السياسية للسادة الاقطاعيين على فلاحيهم من مكان لآخر داخل أوروبا. ففي انجلترا كانت قبضة الملك لاتزال قوية فى القرن الحادى عشر الميلادى، وكان له حق الفصل فى الجرائم الكبرى، ولم يكن للنبلاء غير سلطات تشبه سلطات أقسام الشرطة حاليا، وكذلك كان الحال فى نورماندى(٢٠) ولكن فى معظم أنحاء فرنسا وغرب ألمانيا كان السيد الاقطاعى يتمتع بسلطات قوية فى منطقته، وكانت تلك السلطات مصدر ربح وفير له، إذ كان بوسعه أن يعقد الأسواق الموسمية فى قريته، ويفرض الضرائب عليها، كما يفرض رسوم عبور الجسر أو الإيجار فى المجرى المائى داخل منطقته.(٢١)

وهكذا كان الفلاحون فريسة للخوف الدائم، والاضطراب المستمر، والافتقار للأمن. لقد كانت أيامهم تمضى كئيبة فى انتظار مستقبل لا يجئ، وقد وقعوا تحت وطأة الطبيعة التى كانت تقذفهم بنقص المحاصيل والمجاعات والأوبئة بين الحين والآخر، كما وقعوا تحت وطأة سادتهم الاقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب، كما جعلوهم

---

(١٨) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٢٧٢-٢٧٩.

(١٩) Painter, op. cit., p. 8.

(٢٠) Ibid, pp. 8-9.

(٢١) Bishop, The Pelican Book of the Middle Ages, pp. 254-55.

وقودا لحروبهم الاقطاعية. ومن ناحية أخرى، كان الفلاحون الذين لبوا نداء أربان الثانى فى كليرمون قد تشبعوا منذ زمن طويل بأفكار الوعاظ الجوالين.(٢٢) وفهموا دعوة البابا على أنها فرصة للخلاص الدنيوى والأخروى أيضا. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يتجسد فيها التعصب الدينى للطبقات الدنيا فى المجتمع الغربى الكاثوليكى، وكان ذلك التعصب موجها ضد أصحاب الديانات الأخرى، كما كان ثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة فى الوقت نفسه.

وهكذا كانت الأوضاع الاجتماعية المحبطة، والجو الفكرى المشبع بالخرافات والتدين العاطفى والتعصب من أهم الدوافع التى حركت المقهورين من أبناء الغرب الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى إلى المشاركة فى الحملة الصليبية. وكانت هذه الحملة تعنى بالنسبة للفلاحين وعامة سكان المدن الذين ساهموا فيها شيئا يختلف عما قصده البابا. ذلك أن الفقراء (pauperes)، كما تسميهم المصادر التاريخية لتلك الفترة، كانوا يرون فيها أملا لتحسين أحوالهم وخلاص أرواحهم.(٢٣) لقد كان البابا يوجه خطابه إلى الفرسان من أبناء الطبقة الاقطاعية، ولم يخطر بباله أن تسارع جماهير المحرومين إلى الخروج فى الحملة التى أرادها البابا أداة لتحقيق أهدافه السياسية فى الداخل والخارج، وأدرك البابا خطورة خروج العامة فأعلن أنهم يمكن أن يكونوا عقبة، وبذل بعض الجهد لمنعهم، ولدينا وثيقتان عبارة عن خطابين من البابا : أحدهما بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٠٩٦م موجه إلى أتباعه فى بولونى يذكر فيه : «ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب دون إذن.. كذلك يجب على الأساقفة أن

---

(٢٢) Marc Bloch, Feudal Society, pp. 81; Wolff, The Awakening of Europe, pp. 116-118; Rene Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, (Paris, 1934), I, p.11.

(٢٣) Boase, Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, (London, 1971), pp. 16-17; Bishop, op. cit., p. 105.

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ١٢٢-١٢٦.

يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب دون نصيحة وبغير علم القساوسة المسبق، كما ينبغى عدم ترك الشباب المتزوجين حديثا يذهبون فى رحلة طويلة على هذا النحو دون موافقة زوجاتهم... ».[٢٤] وفى الخطاب الثانى (٧ أكتوبر ١٠٩٦م) يقرر أن العامة الراغبين فى الذهب إلى القدس « ... أشخاص غير مناسبين، لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب فى هذه الحملة، لأنهم قد يستطيعون كبح وحشية المسلمين، ويعيدون للمسيحيين حريتهم... »[٢٥] لقد كان أربان يريد استبعاد غير المحاربين من مشروعه الكبير.

ولكن دوافع الفقراء للذهاب فى هذه الحملة كانت أعنف من أن تكبحها مثل هذه الإجراءات البابوية.[٢٦] ويخبرنا كتاب المؤرخات الصليبية المعاصرة كيف أن أخبار طريق الخلاص الجديد، الذى تصوروا أن خطبة أربان تفتحه أمامهم، انتشرت فى كل مكان بسرعة على الرغم من فقر وسائل الاتصال والمواصلات فى ذلك الزمان. ورأى الفقراء فى هذه الدعوة فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الاقطاعيين فضلا عن أنها فرصة لخلاص أرواحهم المثقلة بالذنوب والآثام.

ولما كانت حركة الفقراء ضد سياسة الكنيسة التى خطبت ود الفرسان فإن هذه الحركة كانت بالضرورة خروجا مضادا على أهداف الكنيسة كما يقول جروسيه.[٢٧] ولعل هذا يفسر لنا سبب الإدانة التى عامل بها مؤرخو الحملة الأولى أحداث الحملة الشعبية لاسيما إذا عرفنا أنهم جميعاً - باستثناء المؤرخ المجهول - كانوا من رجال الكنيسة.

---

(٢٤) خطاب أربان الثانى إلى أتباعه فى بولونى (١٥ سبتمبر ١٠٩٦م)، الترجمة العربية، انظر : قاسم، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق، ص ٩١.

(٢٥) خطاب أربان الثانى إلى رهبان دير فالومبروسا (٧ أكتوبر ١٠٩٧م) الترجمة العربية، قاسم، المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢٦) Frederic Duncalf "The First Crusade: Clermont to Constantinople", in Setton, I, 254-55.

(٢٧) Grousset, Histoire des Croisades, I, pp. 11-12.

لقد كان الجوع الذى عض بأنيابه معظم أنحاء الغرب الأوروبى فى سنة ١٠٩٥م وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعدمين خلف قادة العصابات التى شكلت ما عرف باسم «الحملة الشعبية»، أو «حملة الفلاحين»[٢٨]، لقد اكتشف الفقراء فى عبارات البابا، التى وصلتهم محملة بكثير من المبالغة بسبب وسائل الاتصال التى اعتمدت على النقل الشفاهى آنذاك، نغمة أخروية. فقد ربطوا أحوالهم المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التى ستنقلهم إلى أورشليم السماء. ولم يكن فى وسعهم أن يفرقوا بين أورشليم الحقيقية فى فلسطين، وأورشليم التى تخيلوها فى السماء فى أبهى الصور وأحلاها.[٢٩] ولأن المقهورين فى الغرب الأوروبى عشية الحروب الصليبية عاشوا فى إحباط ويؤس فإنهم رأوا فى الدعوة الصليبية فرصة هائلة اختلط فيها الطمع الدنيوى بالرغبة فى الخلاص.

ومن الطبيعى أن تروق الدعوة التى وجهها البابا أربان الثانى فى كليرمون ١٠٩٥م، لشن حملة مقدسة تحت راية الصليب، فى عيون فرسان الغرب الاقطاعى على نحو خاص. وعلى الرغم من كل ما قيل عن الحج والحرب المقدسة[٣٠] فإن من المستحيل تفسير الدور الكبير الذى لعبه الفرسان الاقطاعيون فى الحركة الصليبية فى ضوء الدين، والنفسية الجماعية، والاعتزاز بالمهنة التى نشأوا عليها، لأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية الجافة كانت لها أهميتها. وربما كانت أهم منها فى عالم اليوم. ويستدعى هذا بالضرورة أن نتعرف على أحوال الفرسان لنعرف حقيقة دوافعهم.

---

(٢٨) وصف سيجبير (Sigebert de Geemblou) سنة ١٠٩٥م بأنها «سنة مصائب، انتشرت المجاعة فى كل مكان، وأخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لسرقتهم وأشعلوا النيران فى ممتلكاتهم». أنظر :

Boase, Kingdoms and Strongholds, pp. 16-17; Bradford, The Sword and the Scimitar - The Saga of the Crusades, (London, 1974), pp. 30-31.

(٢٩) Mayer, The Crusades, pp. 12-13; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p. 115.

(٣٠) انظر ما سبق فى الفصل الأول من هذه الدراسة.

لقد كان من أهم خصائص القرن الحادى عشر الميلادى فى أوروبا الغربية بلورة النظام الاقطاعى الذى كانت مؤسساته آخذة فى التطور والنمو منذ القرن الثامن الميلادى. وقد قام هذا النظام، بشكله التقليدى الذى عرفته فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، على أساس من ثلاثة عناصر هى : أولا : عنصر شخصى يربط السيد الاقطاعى (Lord) بتابعه (vassal)، ويتمثل هذا العنصر فى رابطة الولاء الشخصى الذى يدين به التابع لسيده. وقد اصطلح على تسميته السيادة والتبعية (Lordliness and vassalage). ثانيا : عنصر فعلى : وهو حيازة الإقطاع (feif) «فى مقابل تقديم الخدمة العسكرية المناسبة فى جيش السيد الاقطاعى. ثالثا : لا مركزية القضاء : وقد أتاح هذا العنصر حقوقا قضائية للسادة الاقطاعيين على حساب سلطة الملك المركزية كما أوضحنا فى الصفحات السابقة. وفضلا عن ذلك صار الاقطاع يشكل نظاما قيميا وأخلاقيا واجتماعيا فى فرنسا القرن الحادى عشر الميلادى.[٣١] وكان الفرسان الاقطاعيون نتاجا لهذا النظام بطبيعة الحال.

ونكشف لنا ملحمة راؤول دى كامبرى[٣٢] عن مجموعة القيم والمثل التى تحرك الطبقة الحاكمة فى المجتمع الاقطاعى فى أوروبا فى العصور الوسطى. وتكشف هذه الملحمة عن أن القيم والمثل الحاكمة فى المجتمع الاقطاعى كانت ثلاثا : (١) البطولة والبسالة العسكرية اللتان كانتا تعتبران من الحسنات الاجتماعية؛ لأن الرجل القوى

---

(٣١) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٢٧٥-٢٨٣.

(٣٢) الملحمة الفرنجية الكبرى «راؤول دى كامبرى» (Raoul de Cambrai) كتب فى صورتها المعروفة حالياً فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أنها بنيت على أساس من الأحداث التاريخية، وعلى الرغم من أنها قطعة من الأدب الشعبى الفرنسى الباكر إلا أن المؤرخ يمكن أن يجد فيها إشارات حقيقية عن سلوك النبلاء الأوروبيين وقيم أبناء هذه الطبقة ومواقفهم. أنظر :

Raoul de Cambrai, (transl. by J. Grossland, London, 1926).

أنظر الترجمة العربية لبعض أجزاء الملحمة. قاسم، الحروب الصليبية، ص ٥٧-٦٥.

فقط كان هو الذى يستطيع توفير الأمن والحماية فى ذلك العصر الذى مزقته الحروب الاقطاعية. (٢) كان الولاء الشخصى هو عصب النظام الاجتماعى الاقطاعى، كما كانت العلاقات الشخصية بين الأفراد هى الوسيلة الوحيدة لإقرار الالتزامات السياسية والقانونية. (٣) كان ثمة نظام تصاعدى من روابط الولاء الشخصى يبدأ من القاعدة عند الفارس البسيط الذى يمتلك أرضا بالكاد تكفى لإعالته وتسليحه، حتى الهرم الاقطاعى عند القمة التى كان يفترض أن يكون الملك متربعا عليها.

وكانت فرنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى نموذجا للمجتمع الاقطاعى، ولعل هذا من بين الأسباب الرئيسية التى دعت أربان الثانى لأن يوجه دعوته إلى أمرائها وفرسانها بعيدا عن السلطة الملكية القوية فى كل من ألمانيا وانجلترا. على أى حال كان الوضع الاجتماعى/ السياسى فى فرنسا آنذاك تجسيدا للفكرة الاقطاعية القائلة : «لا أرض من دون سيد إقطاعى». وقد أدى هذا إلى دخول أعضاء المؤسسة الاقطاعية فى فرنسا، منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، فى نظام تصاعدي كون الهرم الاقطاعى الذى كان الملك من «أسرة كابيه»[٣٣] على قمته، وله السلطة الاسمية على كبار السادة الاقطاعيين. وقد كان يليه فى السلم الاقطاعى مباشرة عدد من «الأمراء الاقطاعيين» هم : كونت الفلاندرز، ودوق نورماندى، وكونت شامبنى، ودوق أقطانيا، وكونت تولوز، ثم دوق برجنديا. وكان لكل واحد من هؤلاء أفصاله. كما كان لكل فصل منهم أفصال تابعون له،[٣٤] وهكذا حتى نصل إلى الفارس العادى الذى يملك أرضا بالكاد تعوله وتكفيه.[٣٥] وكان لكل عضو فى الهرم الاقطاعى التزاماته وواجباته تجاه سيده وتجاه

(٣٣) عن حكم أسرة كابيه فى فرنسا، انظر : كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٤٢-٥٤٩.

(٣٤) اشتق اصطلاح فصل (Vassal) من كلمة كلتية معناها «ولد» أو «صبى». وهذا يعنى أن أفصال القرنين السادس والسابع الميلاديين كانوا مجموعة من «الأولاد» أو «الصبيان»، أى جماعات البلطجية الذين يقاتلون رجالا من ذوى الشأن والمكانة لحساب رجل آخر من منطقة مجاورة. فقد كانوا أبعد ما يكونون عن الفرسان ذوى الشهامة الذين يصورهم الأدب الرومانسى.

(٣٥) Painter, "Western Europe", pp. 11-12.

أتباعه من الأفصال حسبما يحددها العرف الاقطاعى. ولدينا عدة وثائق تحدد هذه الواجبات والالتزامات : منها وثيقة ترجع إلى سنة ١١١٠م، تنقل لنا عملية الولاء الاقطاعى من فيكونت كاركاسون إلى مقدم دير سانت مارى فى جراس[٣٦] بفرنسا. وتبدأ الوثيقة على لسان النبيل الاقطاعى «باسم الرب، أنا برنار أتون، فيكونت كاركاسون فى حضور «.... بما أن السيد ليو، رئيس الدير المذكور، قد طلب منى فى حضور جميع المذكورين أعلاه أن أعترف له بالولاء والتبعية مقابل القلاع والضياع، والأماكن التى حازها أسلافى وأجدادي من أسلافه فى رئاسة الديرالمذكور إقطاعا لهم، والتى ينبغى أن أحوزها كما حازوها، فإننى اعترفت بالتبعية والولاء للسيدرئيس الدير ليو كما ينبغى».

ثم تمضى الوثيقة لتحدد مفردات الاقطاع الذى حازه الفيكونت من رئيس الدير، كما يعترف بأنه وأسلافه يجب أن يأتوا إلى الدير كلما عين رئيس جديد للرهبان لكى يجددوا التبعية والولاء. ثم يحدد بقية التزاماته الاقطاعية.

وقد حدد أسقف شارتر فلبرت الحقوق والالتزامات المتبادلة بين السيد الاقطاعى وتابعه فى نص يعود إلى سنة ١٠٢٠م.[٣٧] وبغروب شمس القرن العاشر الميلادى كانت حقوق وواجبات كل من السيد الاقطاعى والتابع (الفصل) قد تحددت واستقرت تماما. ولما كان الهدف الأساسي من التنظيم الاقطاعى هو التعاون فى الحرب، فقد قام العرف الاقطاعى على هذا الأساس. وكان الفصل ملزما بتقديم الخدمة العسكرية لسيده، بحيث لا تتجاوز مدتها أربعين يوما فضلا عن عدة التزامات أخرى. وفى المقابل كان على السيد الاقطاعى أن يحافظ على تابعه، ولم يكن من حقه أن يحط من شأنه

(٣٦) J.H. Robinson, Reading in European History, (Boston, 1904), vol. I, pp. 180-182.

(٣٧) Fulbert of Charteson, The Duties of Lord and Vassal, in: Cantor (ed.), Med. World, pp. 176-177.

بالإهانة، أو بأى طريقة أخرى، وإذا لم يف الفصل بقسم الولاء، الذى قطعه لسيده، كان يتعرض لأن ينتزع منه إقطاعه بعد محاكمته فى بلاط سيده. أما إذا كان تصرف السيد الاقطاعى تجاه فصله غير لائق فيكون للفصل حق التحلل من الرابطة الاقطاعية التى عرفت باسم (difidatio). وعادة ما كانت تبدأ بتكسير السنبلة الرمزية، أو السكين الرمزى الذى يعنى انتقال الاقطاع إليه.[٣٨] وكان هذا يعنى الحرب. بيد أن الحرب كانت حقيقة يومية فى المجتمع الاقطاعى.

لقد كانت الحرب هى الحرفة الأساسية للفارس الاقطاعى. وكان يتم تدريبه منذ صباه على حمل سلاح الفارس ودرعه، واستخدام ذلك كله بمهارة. لقد كانت الحرب مهنة الرجل الراقى، إذ كان تعليمه منذ نعومة أظفاره يهدف إلى تكريس الخشونة جسديا وروحيا. فقد كانت مدرسته حجرة حارس فى مركز أو موقع عسكر، والقلعة هى منزله، كما أنه متأهب دائما لوقوع أى هجوم. ولذلك كان يقضي الشطر الأكبر من حياته متدربا على القتال، أو مشتبكا فى معركة حقيقية.[٣٩] لقد كانت الحرب مصدر فرح ومتعة للفارس الاقطاعى.

أما أوقات السلم المملة فكان يقضيها بين الجدران الصماء فى القلاع الكئيبة، إذ لم تكن ثمة وسائل للتسلية، ولم يكن هناك بديل من الصيد. ولذلك كانت المعركة هى قمة حياة الفارس، وفى كثير من الأحيان كانت هى النهاية لحياته أيضا. وعلى العموم كان الفارس الاقطاعى فى غرب أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى متوحشا همجيا، مولعا باللذات الحسية. ولكنهم جمعوا بين هذا النمط من التدين الشكلى والوحشية التى ميزت سلوكهم العام.[٤٠] وكان من عادة فرسان الغرب الأوروبى منح الهبات

---

(٣٨) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٣٩) Bishop, The Pelican Book of the Middle Age, pp. Painter, "Western Europe", pp. 15-16; A History of the Middle Ages - 284-1500 (New York, 1954), p. 118.

(٤٠) Charles, T. Wood, The Ages of Chivalry - Manners and Morals 1000-1450, (London, 1970), pp. 100-101; Painter, "Western Europe", pp. 15-16; Bishop op. cit., p. 85.

السخية للأديرة التى أسستها العائلة، أو تأسيس أديرة جديدة باعتبار ذلك وسيلة للتكفير عن الخطايا. ولذلك كانت الدعوة إلى الحملة الصليبية، وما يصحبها من غفران، مصدر إغراء لأبناء هذه الطبقة.

ولم يكن الفارس يعيش فى مستوى معيشى أفضل كثيرا من مستوى الفلاحين فى أرضه، إذ كان يأكل النوعية نفسها من الطعام، وإنما بكميات أكبر، ويلبس الملابس نفسها التى صنعتها الفلاحات، ولكنه كان يمتلك عددا من الثياب أكثر من الفلاح الذى لم يكن يملك سوى ثوب واحد فى أغلب الأحوال. وكان يعيش مع زوجته فى بيت خشبى يحيط به خندق، صحيح أنه أكبر من بيوت أهل القرية ولكنه لم يكن أكثر راحة من بيوت الفلاحين الأحرار الموسرين. أما قلاع النبلاء فكان شكلها وحجمها وطريقة بنائها تعتمد على موارد السيد الاقطاعى، وما توفره له الأرض من ميزات. وربما كان هناك عدد قليل من الاقطاعيين يملكون داخل قلاعهم بعض المبانى الحجرية، مثل البوابة وبعض الأبراج. وقد كانت القلعة عنصرا هاما فى السياسة الاقطاعية؛ لأن قلعة بها حامية قوية، وتتوفر فيها المواد التموينية، كانت تستطيع الصمود فترة طويلة بوجه أى هجوم، أو حصار ضدها، بالوسائل المعروفة آنذاك.(٤١)

ولم يكن الفلاحون، فقط، يعانون من الزيادة السكانية فى أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى بالنسبة لموارد بلادهم المحدودة، إذ كانت الحقول الشحيحة لا تزال عاجزة عن أن تعول سكانها، وفيهم الفرسان بطبيعة الحال. ونتيجة ربط التبعية الاقطاعية بالأرض التي تمنح فى المقابل كانت الاقطاعات أقل من عدد الفرسان الطامحين إلى الحصول على الأرض. وقد عرفت هذه الظاهرة باسم الجوع إلى الأرض، وقد تسببت فى كثير من الحروب الاقطاعية التى مزقت أوروبا تماما. وعند نهاية القرن العاشر الميلادى كان تقسيم الاقطاع إلى اقطاعات صغرى قد صار أمرا شائعا، وبذلت الكنيسة كل ما

---

(٤١) Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 237-238.

فى وسعها لحصر نطاق الحرب فى المجتمع الاقطاعى فى القرن الحادى عشر الميلادى عن طريق الترويج لحركة «سلام الرب».[٤٢] ولكن هذه الحركة لم تحرز نجاحا يذكر.

كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين سيدا على كبار الأمراد الاقطاعيين كما أوضحنا، بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من كبار الدوقات والكونتات. وطالما كان الملك القابع فى باريس عاجزا عن أن يهزم دوق نورماندى، أو كونت تولوز، فلم تكن له أى سيطرة حقيقية عليهما أو على غيرهما. ومن الناحية العملية، فإن ملك فرنسا - سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة ٩٨٧م - لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس.[٤٣] لقد كانت فرنسا فى حقيقة أمرها تحالفا بين الإمارات الاقطاعية التى استقرت حدودها فى نوع من التوازن السياسي البدائى في القرن الحادى عشر الميلادى، ولم يكن للملك سوى ظل من سلطة باهتة. ولذلك اختار البابا فرنسا لتكون المكان الذى يطلق فيه دعوته إلى الحملة الصليبية.

أما فى ألمانيا فقد كان هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦م) وابنه هنرى الرابع (١٠٥٦-١١٠٦م) يحاولان إرساء ملكية قوية ومركزية، على الرغم من أن تمرد الأمراء المحليين جعل ألمانيا تعانى بعض الارتباك فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، وعلى الرغم من أن النزاع مع البابوية حول ترسيم الأساقفة (النزاع حول التقليد العلمانى) قد أدى فى النهاية إلى بروز سلطة الأمراء المحليين.[٤٤] وقبيل

(٤٢) انظر الفصل السابق.

(٤٣) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٢٨١-٢٨٢.

Bishop, op. cit., p. 45; Painter, "Western Europe", p. 17.

(٤٤) عن النزاع بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلمانى، انظر :

Hoyt and Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 292-302; Barraclough, The Medival Papacy, pp. 77-93.

وعن تأثير هذا النزاع على السلطة الملكية فى ألمانيا وتحول البلاد إلى النظام الاقطاعى، أنظر : كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٧١-٣٧٤.

الحروب الصليبية كانت الامبراطورية مشغولة بصراعاتها في الداخل والخارج. أما فى انجلترا فكان الملك يفرض سلاما قويا على توليفة غير مستقرة من السكان الذين تألفوا من الأنجلو - سكسون، والنورمان ذوى الأصول الدانمركية.[٤٥] وفى إسبانيا كانت ممالك الشمال المسيحية تأخذ زمام المبادرة فى الهجوم ضد مسلمى الأندلس. ولأن كل الموارد والإمكانات الإسبانية كانت مطلوبة فى الحرب ضد المسلمين[٤٦] فإن الإسبان لم يتمكنوا من المشاركة فى الأحداث التى شهدتها أوروبا عامة، ومن المساهمة فى الحملة الصليبية على نحو خاص.

هذا هو الموقف السياسى فى أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية؛ وهو موقف يكشف الدوافع التى حدت بأبناء الطبقة الاقطاعية من الفرسان إلى أخذ شارة الصليب.

لقد كانت الرغبة فى المغامرة وحب النهب من دوافع الأفراد حقا، ولكننا نعرف المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى واجهت طبقة الفرسان كلها، وهى مشكلات جعلتهم يرون فى الحملة الصليبية منفذا للخروج من هذه المشكلات، إذ كانت هناك أزمة فى الاقتصاد الزراعى بجنوب فرنسا وايطاليا منذ سنة ٨٥٠م، أخذت تتفاقم حتى بلغت ذروتها سنة ١٠٠٠ ميلادية. وقد وصف لنا رالف جلابير الوباء المخيف الذى عرف باسم «نار القديس انطونيو» الذى كان يأكل أطراف البشر، كما حدثنا عن المجاعات الرهيبة التى طحنت أقاليم أوروبا آنذاك.[٤٧] وكان هذا كله ناتجا من نقص الإنتاج وعجز الأرض عن إطعام أعداد السكان المتزايدة. وقد ذكر أربان الثانى لمستمعيه من الفرسان ما نصه : «... هذه الأرض التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكبيرة، وهى لا تفيض

---

(٤٥) كانتور، المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٧٥-٣٨٩.

(٤٦) Benjamin W. Wheeler, "The Reconquest of Spain", pp. 31-40.

(٤٧) Ralph Glaber, "Historiarum" in Bryce (eds.) The High Middle Ages, pp. 35-36.

بالثروات الكبيرة، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها. وهذا هو السبب فى أنكم تشنون الحرب ضد بعضكم بعض، وتقتلون بعضكم بعضا...».(٤٨)

لقد كانت الكلمات التى نسبها روبير راهب ريمس على لسان البابا تشير إلى حقيقة مؤداها أن الزيادة السكانية فى غرب أوروبا القرن الحادى عشر الميلادى من أهم الأسباب التى حفزت أبناء الغرب الأوروبى على البحث عن أرض جديدة وموارد جديدة خارج أوروبا. وإذ كانت جبهات التوسع الأوروبية عاجزة عن تحقيق هذه الطموحات، جاءت الدعوة إلى التوسع فى الشرق العربى، وبمباركة الكنيسة بمثابة الحل السعيد للمشكلات الناجمة عن حرص العائلات الإقطاعية على عدم تقسيم الأرض الزراعية.

لقد دأبت طبقة الفرسان على إتباع عدة وسائل للحفاظ على إقطاع العائلة دون تفتيت. ففي شمال فرنسا كان حق الإرث قاصرا على الإبن الأكبر، أما الأبناء الذين يصغرونه فكان عليهم أن يبحثوا عن منفذ إما بالانضمام للكنيسة، وإما بالبحث عن وريثة اقطاعية (وهو أمر نادر على أى حال)، وإما بالبحث عن مستقبل عسكرى مع البارونات اللصوص، وإما ضمن أتباع أحد السادة الاقطاعيين الكبار. ومن الواضح أن الحملة الصليبية جاءت متنفسا وصمام أمن لطبقة الفرسان التى كان عددها ينمو باستمرار.(٤٩) لقد كان الحفاظ على مستوى معيشة العائلة ومركزها الاجتماعى يستوجب التضحية من جانب بعض الأفراد. وفى إيطاليا وفرنسا جنوب نهر اللوار تم تجنب تقسيم الأرض بعدة أشكال من الملكية الجماعية. كما أن المصادر التاريخية تحدثنا عن الملكيات الحرة التى لم تكن مرتبطة بأى التزامات اقطاعية. وقد عرف هذا الشكل باسم ملكية الأخوة (fraternitia) الذى تم ابتكاره لمنع تفتيت ملكية الأرض،

---

(٤٨) من المهم أن نشير إلى أن البابا استغل هذه النقطة وهو يخاطب الفرسان الفرنسيين فى كليرمون – انظر رواية روبير الراهب الذى كان من بين حضور مجمع كليرمون :
Robert de Rheims, "Historia Iherosolimitana", RHC, Occ., III, pp. 727-30.
أنظر الترجمة العربية : قاسم، الحروب الصليبية، ص ٧٧–٨٠.

(٤٩) Painter, "Western Europe", p. 23.

إذ كانت الأرض ملكية مشاعة بين الأخوة. وفى بعض الأحيان كان الأعمام، وأبناء الأخوة يشاركون فى الملكية. وإذا كان هناك عدد كبير من الورثة كان لابد لبعضهم من أن يلحق بالأديرة أو الكاتدرائيات.(٥٠) وكان هذا يعنى الفرار من قيود العائلة إلى الكنيسة بقيودها. وفي القرن الحادى عشر الميلادى، وفى القرن الثانى عشر الميلادى أيضا، كان الانضمام إلى الحملة الصليبية فرصة حقيقية للهرب من نظام ملكية الأخوة، كما كان فرصة حقيقية أمام المرء لكى يحقق استقلاله.

على أى حال، كانت ثمة أهداف ومطامع دنيوية عديدة وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة فى الاشتراك فى الحملات الصليبية تبلورت كلها حول الرغبة فى التوسع وملكية الأرض، وفى طياتها تأتى أسباب فرعية عديدة.(٥١)

وعلى الرغم من أن غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى كان منطقة ريفية الطابع كما أسلفنا القول إلا أن هناك بعض الدلائل على بدايات متواضعة للصناعة اليدوية والتجارة. كذلك كانت المدن قد بدأت تظهر على استحياء فى بعض مناطق أوروبا، ولا سيما فى إيطاليا حيث لم تكن المدن قد اندثرت تماما. فقد استمرت عدة مدن ايطالية فى الحفاظ على علاقتها التجارية بالقسطنطينية طوال العصور الوسطى الباكرة(٥٢)، إذ استمرت سفن التجارة تروح وتغدو بين العاصمة الإمبراطورية، وآمالفى، والبندقية تحت حماية الأسطول البيزنطى.

وحول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى كانت البندقية قد بنت أسطولها القوى. وفى الفترة نفسها تقريبا كانت جنوا وبيزا قد بدأتا التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط مع مارسيليا، وناربون، وبرشلونة. وقد أخذت جنوا وبيزا زمام المبادرة فى

---

(٥٠) Ibid, p. 24.

(٥١) أنظر الدراسة التفصيلية لدوافع الفرسان؛ قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١١٩-١٢٢.

(٥٢) Painter, op. cit., p. 9.

الهجوم على أساطيل المسلمين التى كانت قد دأبت على مهاجمة موانيهما والاستيلاء على سفنهما. وقد ابتكرت مدن الشمال الايطالى الكوميونات التى عرفها أحد الباحثين بأنها «رابطة تجمع كل سكان المدينة، وليس التجار فقط، يرتبطون بقسم يتعهدون فيه بالحفاظ على السلام، والدفاع عن الحريات العامة وطاعة الحكام،[٥٣] ولم يلبث كوميون جنوا وكوميون بيزا، وجمهورية البندقية التجارية أن فرضت نفسها على تجارة البحر المتوسط. ثم لم تلبث هذه المدن التجارية أن تحولت إلى جمهوريات مستقلة غير خاضعة لسلطة الكنيسة. وقد لعبت اثنتان من هذه الجمهوريات، هما جنوا وبيزا، دورا هاما فى الحملة الأولى فى مقابل السيطرة على موانئ شرق المتوسط، ولم تلبث البندقية أن لحقت بهما فى هذا المضمار. ومثلما كان الفقراء من فلاحى الغرب الأوروبى يبحثون عن فرصة لحياة أفضل تحت سماء الشرق، ومثلما كان فرسان أوروبا يحاولون التوسع لحل مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الناجمة عن عجز الموارد الزراعية، كانت الجمهورية التجارية الايطالية الطموح تحاول أن تفوز بالثروة الطائلة التى نعم بها العالم الإسلامى، وأن ترث دور المسلمين فى تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم. وجاءت الحروب الصليبية فرصة للتوسع الأوروبى على شتى المستويات.

وبينما كان الفلاحون يزيلون الغابات لكى يستزرعوا أرضها، والفرسان يحاولون بلورة مؤسساتهم الاقطاعية طوال القرن الحادى عشر الميلادى، كان رجال الكنيسة أيضا يحاولون تطوير مؤسساتهم وإحكام سيطرتهم على الغرب الأوروبى. ومن المثير أن هذه كلها كانت خيوطا فى شبكة واحدة للتوسع والنمو وجدت ضالتها فى مشروع الحملة الصليبية الذى طرحه أربان الثانى.

فخلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تورطت فى الشئون العلمانية إلى حد بعيد، إذ كانت الأراضى الزراعية الشاسعة التى

---

(٥٣) Bishop, op. cit., p. 46.

امتلكتها الأديرة والأسقفيات بمثابة إقطاعيات تستوجب الخدمة العسكرية. وبالفعل قاد بعض رجال الكنيسة قواتهم الاقطاعية وهم يصرون على أن ذلك لا يمثل انتهاكا للقانون الكنسى، ولكن معظم الأساقفة ومقدمى الأديرة عهدوا إلى وكلاء علمانيين بأداء الخدمة العسكرية الاقطاعية بدلا منهم. وكان السادة العلمانيون هم الذين يعينون الأساقفة ومقدمى الأديرة داخل إقطاعاتهم وإماراتهم. وقد خدم رجال الكنيسة فى بلاط السادة العلمانيين مستشارين ورجال إدارة. وقد أضر هذا الوضع بالوظيفة الروحية للكنيسة إلى حد بعيد.[٥٤] وانعكس هذا على حال الكنيسة الكاثوليكية عموما بين بابوية يوحنا الثامن (٨٧٢-٨٨٢م) ويوحنا الثانى عشر (٩٥٥-٩٦٤م) على وجه الخصوص. وكان يوحنا الثانى عشر «ذلك الولد الفاسد» فى الثامنة عشرة من عمره عندما اعتلى العرش البابوى، وقد قال لويد براند أسقف كريمونا[٥٥] إنه مات بسبب إفراطه الجنسى أثناء نومه مع إحدى عشيقاته،[٥٦] مثالا واضحا على فساد البابوية والكنيسة الكاثوليكية عامة. وفى القرن الذى أعقب وفاة يوحنا الثامن مات معظم البابوات فى حوادث قتل واغتيال ولم يمت على سريره فى سلام سوى عدد قليل منهم. فقد اغتيل يوحنا الثامن، وزج بستيفن السادس (٨٩٦-٨٩٧م) فى السجن حتى لقى حتفه، أما بندكت السادس (٩٧٣-٩٧٤م) فقد خنق، على حين قتل يوحنا الرابع عشر (٩٨٣-٩٨٤م) فى كنيسة سانت أنجيلو.

---

(٥٤) Painter, "Western Europe", p. 23; Bryce, The High Middle Ages, pp. 15-16.
أنظر أيضاً : كانتور : التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٥٥) عن لويد براند أسقف كريمونا (Luidprand of Cremond) الذى قام بسفارة إلى القسطنطينية لكى يخطب إحدى الأميرات البيزنطيات لابن سيده الامبراطور الألمانى أوتو الأول الكبير (٩٣٦-٩٧٣)، أنظر :
The Works of Luidprand of Gremona, (transl. by F.A. Wright, London, 1930).

(٥٦) Barraclough, The Med. Papacy, p. 63.

وكان هذا كله تعبيرا عن مدى هوان البابوية من ناحية، وعن أن البابوات كانوا من أبناء الأسر النبيلة التى رفعت كلا منهم إلى عرش القديس بطرس لأسباب تتعلق بمصالح الأسرة وسياستها من ناحية أخرى. وكانت المنافسة بين العائلات الأرستقراطية لجعل الكرسى البابوى عرشا وراثيا هى العامل الفعال فى جعل البابوية تخسر هيبتها وسيطرتها على العالم المسيحى الكاثوليكى.

ومن ناحية أخرى، فإن دخول الكنيسة فى النسيج الاقطاعى لمجتمع غرب أوروبا أدى فى النهاية إلى أن صارت الوظائف الكنسية تباع وتشترى. وكانت النتيجة أن أغلبية رجال الكنيسة كانوا جهلة فاسدين. وعلى العموم كانت أحوال الكنيسة تبعث على الرثاء.(٥٧)

وفى سنة ٩١١م تأسس دير كلونى على يد الدوق وليم أمير أقطانيا أملا فى إصلاح الأوضاع الديرية المتردية.(٥٨) وكان ذلك أول رد فعل واضح ومؤثر فى مواجهة الفساد الذي عانت منه الكنيسة الكاثوليكية. وفى مقابل العلاقات الاقطاعية التى كانت الكنيسة قد تورطت فيها، حتى ذلك الحين، حرم دستور كلونى قبول أى أرض إذا كانت مشروطة بالخدمة العسكرية. وسرعان ما انتشر دستور رهبان دير كلونى فى كل مكان، وفى شى بقاع أوروبا وجدت الأديرة الكلونية الى صار لها نفوذ ضخم. وبفضل مساعدة الإمبراطور الألمانى هنرى الثالث تم إصلاح الكثير من الأدير الألمانية. وصارت الأديرة الكلونية مقصد كل المتحمسين والمخلصين من رجال الكنيسة.

بيد أن أولئك المتحمسين من رجال الكنيسة لم يكونوا على استعداد لأن يقصروا حدود إصلاحاتهم على الأديرة، إذ كانت الممارسات السيئة والفاسدة لرجال الكنيسة

---

(٥٧) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣٠٣-٣٠٨.

Barraclough, The Med. Papacy, pp. 63-66; Hoyt, Europe in the Middle Ages, pp. 279-292; Bryce, The Middle Ages, pp. 15-18.

(٥٨) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣٠٣-٣٠٨.

تثير قلقهم. وأدرك الإصلاحيون أن هناك وسيلة واحدة لتحقيق أهدافهم هى تنظيم الكنيسة على أسس قوية، وبحكومة مركزية فعالة. ولذلك تحولوا صوب البابوية التى تتبلور حولها الكنيسة الكاثوليكية. وكان البابا ليو التاسع أول البابوات الإصلاحيين. فبعد أن ارتقي العرش البابوى (١٠٤٩-١٠٥٤م) عقد عدة مجامع دينية، وأصدر عدة قرارات ضد السيمونية(*)، وزواج رجال الدين، والعنف والتحلل الأخلاقى. وبهذه الطريقة صارت السلطة البابوية سلطة حقيقية وواضحة للعيان. وكانت النتيجة أن البابوية - التى كانت حتى ذلك الحين مصدر عار وفضيحة بالنسبة للجادين من رجال الكنيسة - كسبت تأييد الحركة الإصلاحية. ولأن البابا كان يتم اختياره بواسطة القساوسة وشعب روما، وهو ما كان يعنى أن النبلاء الايطاليين كانوا يتدخلون فى اختيار البابا بالشكل الذى يوافق مصالح عائلاتهم، فإن الإصلاحيين انتهزوا فرصة مواتية بعد وفاة الامبراطور هنرى الثالث، وتم إصدار مرسوم الانتخاب البابوى الشهير سنة ١٠٥٩م.(٦٠) وقد أنهت هذه الوثيقة التى أصدرها البابا نيقولا الثانى (١٠٥٩-١٠٦١م) تدخل العلمانيين فى انتخاب البابا وقصر هذا الحق على مجلس الكرادلة. وتقول الوثيقة : «... نحن (البابا نيقولا الثانى رسمنا وقررنا(٣) أنه عندما يموت بابا كنيسة روما العالمية فإن الأساقفة الكرادلة ينبغى أن يجتمعوا ويتدبروا الأمر مليا، ثم يلحق بهم القساوسة الكارديناليون، ثم يوافق بقية رجال الكنيسة

(*) السيمونية : تعنى المتاجرة بالأشياء المقدسة، وهى نسبة إلى سيمون الساحر وهو شخص سامرى الأصل، ماهر فى فن السحر. تنصر وأراد أن يشترى من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدى وصنع المعجزات، فخذل. (المحرر)

(٥٩) كان هنرى الثالث صديقا حميماً لأوديلو (Odilo) مقدم دير كلونى. وقد كان عهد هذا الامبراطور نقطة انطلاق بالنسبة لحركة الإصلاح الكلونية. عن تفاصيل التطورات التاريخية لحركة الإصلاح راجع : كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(٦٠) انظر نص المرسوم :
Henry Bettenson, Documents of the Christian Church, (London, 1950), pp. 140-141; (ed.), The High Middle Ages, pp. 88-9.

والشعب على الانتخاب الجديد... » والوثيقة تمنع صراحة تدخل أى سلطة علمانية فى هذه المسألة.

وقد تمكن الإصلاحيون من زيادة سلطة البابا على الكنيسة الكاثوليكية بأسرها من خلال عدة وسائل أهمها «المندوبون البابويون» الذين كان البابا يرسلهم فى مهمات متعددة فى شتى أنحاء العالم الكاثوليكى لتأكيد سلطته. وعند هذه النقطة بدأ الصراع على السلطة بين الكنيسة والدولة. وقد تفجر الصراع علنا عندما تولى هيلدبراند عرش القديس بطرس تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣م. وقد ارتبطت هذه الفترة كلها باسمه فعرفت باسم «الثورة الجريجورية»، أو «الإصلاح الجريجورى».(٦١) وقد اهتم جريجورى السابع بتدعيم سلطة البابوية إلى أبعد الحدود. وقد نسب إليه مرسوم يحدد أبعاد السلطة البابوية يتكون من ست وعشرين نقطة تدور كلها حول مفهوم سمو البابوية على الدولة. وقد عرفت هذه الوثيقة «بالإملاء البابوى» (dictatus papae).(٦٢)

وحين اعتلى جريجورى عرش البابوية وجد أن الجالس على عرش الامبراطورية هو الامبراطورهنرى الرابع الذى كان قد بلغ السن القانونية لتوه، ولكنه كان أقوى حاكم فى أوروبا. ومع هذا فإن «الشيطان المقدس» جريجورى السابع الذى كان قد انطلق فى سبيل تدعيم السلطة البابوية لم يتورع من أن يطلب من الملك الألمانى أن يوقف فورا نظام التقليد العلمانى الذى كان يتيح له التحكم فى تعيين كبار رجال الكنيسة، وهدد بتوقيع الحرمان على الامبراطور إذا لم يمتثل للمرسوم الذى أصدره. وقرر هنرى أن

---

(٦١) كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٣٥-٣٧٤؛

Barraclough, The Med. Papacy, pp. 77-93; Hoyt, Europe in the Middle Ages, pp. 292-296; Southern, The Making of the Middle Ages, pp. 134-145; Painter, "Western Europe", pp. 25-28.

(٦٢) E.F. Henderson, Selected Historical Documents of the Middle Age, (London 1896), pp. 366-367; Cantor Medieval World, pp. 195-196).

الترجمة العربية لهذه الوثيقة : قاسم، الحروب الصليبية، ص ٥٠-٥٢.

يتصدى بقوة لطموح البابا، وعقب مجمع دينى أيده فيه القساوسة الألمان الذين ازعجتهم سياسة جريجورى السابع، أرسل المجتمعون فى وورمس إلى البابا سنة ١٠٧٦م رسالة حادة الكلمات تقول : «... قررنا بالإجماع... أنه لن يكون بمقدورك أن تتولى رئاسة الكرسى الرسولى بعد الآن...». وتمضى الوثيقة لتصف البابا بالغطرسة والشر، وبأنه راهب مزيف، يعاشر امرأة فى الحرام، وأن «... ارتفعت الشكوى فى كل مكان بأن كافة الأحكام والقرارات الصادرة عن الكرسى الرسولى، وأن الكنيسة كلها تحكمها هذه المرأة...».(٦٣)

وكان الرد الفورى من البابا العدوانى خلع الامبراطور.(٦٤) ووقع عليه قرار الحرمان الذى أعطى الذريعة للأمراء فى الأقاليم لإشعال نار التمرد من جديد ضد الامبراطور، مع التهديد بانتخاب غيره إذا لم يحصل على الغفران البابوى. ثم حدث أن استعد البابا لرحيل إلى ألمانيا لحضور انتخاب النبلاء الألمان لامبراطور جديد، وفى الوقت نفسه استطاع رجال الكنيسة الألمان فى بلاط هنرى أن يقنعوه بأن الحل الوحيد هو أن يطلب الغفران البابوى حتى ينقذ عرشه. وبالفعل سافر الامبراطور إلى إيطاليا. وفوق قمة جبلية على مسافة قريبة من بارنا، كانت هناك قلعة كانوسا التى تملكها ماتيلدا صديقة البابا، ولا تزال أطلال هذه القلعة العابسة باقية حتى اليوم توحى بالعداء مثلما كان حالها يوم قصدها هنري الرابع تحت ثلوج يناير. وعندما قابله البابا تحول استسلام الامبراطور إلى نصر سياسى. وسرعان ما عاد إلى ألمانيا ليخمد تمرد النبلاء الذين لم يتلقوا من البابا سوى خطاب يصف فيه خضوع هنرى الرابع.(٦٥)

---

(٦٣) Henry Betterson, Documents of the Christian Church, pp. 53-ff; Bryce, The high Middle Ages, pp. 90-92.

أنظر الترجمة العربية : قاسم، الحروب الصليبية، ص ٥٢-٥٤.

(٦٤) لدينا وثيقة بتاريخ فبراير ١٠٧٦م تتضمن قرار البابا جريجورى السابع بخلع الامبراطور هنرى الرابع عن عرشه.

Bettenson, op. cit., pp. 144-145.

وسرعان ما أدت تطورات الأحداث إلى تعيين بابا مضاد. وعندما طلب البابا مساعدة روبرت جويسكارد زعيم النورمان فى جنوب ايطاليا جاءت جيوش الملك النورمانى، ونهبت روما، واسترقت الآلاف من رجالها ونسائها بيعوا فى أسواق النخاسة. ولم يستطع جريجورى أن يبقى فى المدينة المنهوبة، فغادرها مع جيش النورمان ليموت فى منفاه داخل الحذاء الايطالى بعد وقت قصير.(٦٦) وعلى الرغم من موت جريجورى السابع سنة ١٠٨٥م إلا أن النزاع العلمانى، أى الصراع على السمو والسيادة بين الدولة والكنيسة ظل قائما لفترة طويلة بعد ذلك. وقد كان لهذا الصراع أثره فى شكل الحملة الصليبية الأولى، إذ إن مساهمة الألمان فيها لم تكن مساوية لمساهمة الفرنسيين الذين وجه البابا إليهم خطابه.(٦٧) كذلك كان النزاع العلمانى من أهم دوافع البابوية فى الدعوة إلى الحملة الصليبية.

لقد كانت البابوية راغبة فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب فى خدمة أهدافها بحيث يتحقق السمو البابوى على الامبراطورية، ويؤكد هذا كلام المؤرخ القسيس فوشيه دى شارتر على أن البابا أربان الثانى كان حريصا على أن يسمو بالكنيسة.(٦٨) ومما يسترعى الانتباه أن البابا وجه دعوته إلى الأمراء الاقطاعيين دون الملوك الذين كان فى خصومة مع كل منهم من ناحية، ولكى يكون النبلاء وسيلة البابوية فى التصدى لأولئك الملوك من ناحية أخرى. وقد أشار وليم الصورى إلى هذه

---

(٦٥) انظر نص الوثيقة فى :

Ephraim Emerton, The correspondence of Pope Gregory VII, selected letters from The Registrum (New York, 1932), pp. 111.

(٦٦) Bishop, The Pelican Book, pp.53-64; Southern, The Making of the Middle Ages, p. 136; Barraclough, op. cit., 87-90.

(٦٧) عن مدى مساهمة الألمان فى الحملة الصليبية الأولى، أنظر :

Henry Hagenmeyer, "Etudes sur la Chronique de Zimmern" Archics de l'Orient Latin, Tom. II, (Paris 1884), pp. 17-25; Fulcher de Chartres, p. 62'.

(٦٨) Fulcher de Chartres, p. 62.

الحقيقة أيضا.(٦٩)

وهكذا كان اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لفكرة الحملة الصليبية تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها البعض، كما كان - فى الوقت نفسه - تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع. لقد كانت الحملة الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، كما سبق القول، ومن ثم فإنها سعت لتحقيق أهدافهما. وكانت الدوافع التى حركت الجميع تتجه نحو بؤرة واحدة : هى التوسع فى الخارج، وإيجاد مجال حيوى للنمو الحضارى الذى كانت أوروبا الغربية تعانى إرهاصاته فى ذلك الحين.

ولاشك فى أن الظروف السائدة فى الشرق قد شجعت البابوية على طرح مشروعها الكبير. وإذا كان البابا جريجورى السابع، والبابا أربان الثانى من بعده، قد استغلا أزمة الامبراطورية البيزنطية لصالح الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يتم توحيد الكنيستين تحت زعامة بابا روما، فإن تطورات الأحداث لم تلبث أن غيرت هدف الحملة من القسطنطينية إلى بيت المقدس. والحقيقة أن الفترة التى شهدت نضج الفكرة الصليبية فى الغرب الأوروبى كانت هى نفسها فترة التراجع والتدهور فى أحوال بيزنطة على النحو الذى جعلها تلجأ للغرب اللاتينى - عدوها التقليدى - فى طلب المساعدة.

عندما مات باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م، كان موته بمثابة الخاتمة لفترة باهرة متألقة فى التاريخ البيزنطى.(٧٠) فقد ترك باسيل الثانى لخلفائه امبراطورية امتد سلطانها

---

(٦٩) William of Tyre, A History of the Deeds done beyond the sea, (transl. and annonated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, Colombia University Press, 1943), vol. I, pp. 85.

(٧٠) عن عصر باسيل الثانى (Basil II)، (٩٧٦-١٠٢٥م) الذى عرف باسم سفاح البلغار (Bulgaroctonus)، أنظر :

Michael Psellus, Fourteen Byzantine Rulers - The Chronographia of Michael Psellus, (translated with an introduction by E.R.A. Sweter, Penguin Books, 1984), pp. 27-49.

أنظر أيضاً : وسام عبدالعزيز فرج، دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٨٣)، ص ٣٠٢-٣٢٨.

إلى مدى لم تصله منذ حملات هرقل المظفرة ضد الفرس فى القرن السابع الميلادى. بيد أن خلفاء باسيل الثانى لم يكونوا رجال دولة أو قادة عسكريين، فى الوقت الذى أحاط الأعداء بالامبراطورية من كل جانب. فقد كان المسلمون على الحدود الشرقية وفى البحر المتوسط مصدر إزعاج وتهديد، ولكن جيوش الامبراطورية كانت لاتزال قادرة على التصدى لهم. وفى البلقان أخذ السلاف يثيرون المتاعب، وحاصر البلغار تسالونيكا كما نهبت جيوشهم بلاد اليونان، ولكن الجيش البيزنطى تمكن من قمعهم فى النهاية. وفى سنة ١٠٤٣م هاجم الروس العاصمة بسبب امتيازاتهم التجارية تحت قيادة فلاديمير أمير نوفجورود، ولكنهم ردوا على أعقابهم وتحطم أسطولهم.(٧١) أما فى ايطاليا فقد كانت أوضاع البيزنطيين لاتزال جيدة على الرغم من فشل حملتهم ضد مسلمى صقلية سنة ١٠٣٨م. وهكذا كان موقف الامبراطورية جيدا على الصعيد العسكرى فى السنوات العشرين التى أعقبت وفاة الامبراطور باسيل الثانى.

وإذا كانت بيزنطة تمكنت من كبح جماح أعدائها القدامى فإن الساحة لم تلبث أن شهدت أعداء جددا، أكثر حيوية وجرأة، وأشد تصميما على تدمير الامبراطورية. وقد كان ظهورهم فى وقت غير مناسب تماما للامبراطورية التعسة التى كان يعتلى عرشها أفراد أقل كثيرا من أن يملأوا الفراغ السياسى والعسكرى. وكان أهم أولئك الأعداء الجدد: البشناق، والنورمان، والأتراك السلاجقة.

والبشناق قبائل بدوية من أصل تركى، عرفهم البيزنطيون قبل القرن الحادى عشر الميلادى. ومنذ تولى الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م) عرش بيزنطة حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى استمرت هجمات البشناق على جبهة البلقان. وفى عصر الامبراطور قسطنطين التاسع مونو ماخوس (١٠٤٢-١٠٦٧م) شنت هذه القبائل واحدة من أكثر هجماتهم تدميرا، ودمروا الجيش الامبراطورى سنة ١٠٥٣م،

(٧١) Peter Charanis "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", in Setton, vol. I, pp. 180-81.

ولكنهم لزموا السكون خلال حكم الامبراطورة تيودورا (١٠٥٥-١٠٥٦م)، وحكم الامبراطور ميخائيل السادس (١٠٥٦-١٠٥٧م). وهى فترة قصيرة على أى حال. ثم انضموا فى هجوم كبير مع المجريين ضد الامبراطورية سنة ١٠٥٩م. وبعد خلع الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨م) اندلعت الحرب الأهلية داخل الامبراطورية، مما أتاح الفرصة أمام البشناق وحلفائهم من قبائل الأوز (Uzes) لنهب الأراضى البيزنطية فى البلقان.[٧٢] وكان هذا هو الحال عندما تولى أليكسيوس كومينينوس العرش.[٧٣]

أما الجهة الايطالية فقد بدأت المشاكل فيها بالغزو النورمانى لصقلية وجنوب ايطاليا.[٧٤]. وعلى الرغم من أن المد النورمانى فى جنوب إيطاليا قد انتهى بالاستيلاء على ميناء بارى (Bari) على البحر الأدرياتى، والذى كان يمثل آخر المعاقل البيزنطية فى ايطاليا، إلا أن كلا من الامبراطور رومانوس ديوجينيس وخليفته ميخائيل السابع كانا يأملان فى أن يفيدا من النورمان لكسر شوكة الأتراك السلاجقة من جهة، ويحاولان اتقاء أى هجمات أخرى يشنها روبرت جويسكارد، حاكم النورمان الطموح، ضد الأراضى البيزنطية نفسها بعد أن بات سيد الجنوب الايطالى بلا منازع.[٧٥] وقد وافق روبرت جويسكارد على مهادنة الامبراطورية البيزنطية فى وقت كانت فيه علاقته مع البابوية فى أسوأ أحوالها، وربما كان يقصد أن يحول دون قيام تحالف بين الامبراطور البيزنطى والبابا الكاثوليكى ضده. وعندما أطاحت واحدة من مؤامرات القصر الشهيرة فى التاريخ البيزنطى بالامبراطور ميخائيل السابع سنة

---

(٧٢) Psellus, Chronographia, pasoim.

(٧٣) Charanis, op. cit., pp. 182-187.

(٧٤) عن الغزو النورمانى لصقلية وجنوب ايطاليا، انظر :
Robert S. Lopez, "The Norman Conquest of Sicily", in Setton, vol. I, pp. 54-67.

(٧٥) Charanis, op. cit., p. 188.

١٠٧٨م وجد روبرت جويسكارد فيها فرصة سانحة للهجوم على الامبراطورية. ومن ناحية أخرى، كان البابا جريجورى السابع حانقا على البيزنطيين بعد فشل المفاوضات معهم، ولذلك سارع إلى مباركة حملة جويسكارد على بيزنطة. وبينما كان القائد النورمانى يحشد جيوشه استعدادا لعبور البحر الأدرياتى ومهاجمة الأراضى البيزنطية كان النزاع على السلطة قد حسم لصالح أليكسيوس كومنينوس.[٧٦] وكان حكمه الذى دام سبعا وثلاثين سنة نقطة تحول هامة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية.

وبينما كان البشناق يعيثون فسادا فى ولايات البلقان البيزنطية، وبينما كان النورمان يهددون وجود الامبراطورية ذاته، كان الموقف فى آسيا الصغرى قد تدهور إلى درجة خطيرة، بحيث لم تعد الحدود بين ما تبقى بأيدى البيزنطيين وما استولى عليه السلاجقة، الذين غزوا هذه المناطق، واضحة.

كان الأتراك السلاجقة الذين ظهروا فى القرن الخامس الهجرى[٧٧] / الحادى عشر الميلادى علامة على بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العالم الإسلامى وفى تاريخ الامبراطورية البيزنطية أيضا. لقد كان السلاجقة من الأتراك الغز، وهم قبائل بدوية مثل بقية القبائل تركية الأصل.[٧٨] وقد اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، ثم تأقلموا مع المعطيات

---

(٧٦) Runciman, A. Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 67-68; Charanis, op. cit., pp. 188-189.

(٧٧) يذكر ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٣) فى حوادث سنة ٤٣٦هـ أن الأخبار وردت بظهور راية السلطان طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق. «... وقوة شوكة الأتراك، وابتداء دولتهم، واستيلائهم على الأعمال وضعف أركان الدولة البويهية...».

وهذه أول إشارة عند ابن القلانسى إلى الأتراك السلاجقة.

(٧٨) انظر ما يلى عند الحديث عن أحوال المسلمين، أيضاً :

Claude Cahen, "The Turkish Invasion: The Selchukids", in Setton, vol. I, pp. 135-144.

الحضارية فى العالم الإسلامى. ويدأ دورهم العسكرى والسياسى النشط فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وقد توجه طغرل بك بدخول بغداد بناء على دعوة من الخليفة العباسى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م لكى يخلصه من مؤامرة حاكها أبوالحارث البساسيرى لكى يبسط سلطة الخلافة الفاطمية الشيعية على بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية. وقد أخمد طغرل بك المؤامرة وقتل البساسيرى. ودخل السلاجقة بغداد ليحلوا محل البويهيين فى الهيمنة على الخلافة العباسية الضعيفة.(٧٩)

وقد كان السلاجقة قد تمكنوا فى ذلك الحين من بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة بين خراسان وبغداد، وبات توسعهم، إلى الشمال والغرب، على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين جميعا، أمرا حتميا. وقد أدت توسعاتهم إلى التوسع فى آسيا الصغرى طوال القرن الحادى عشر الميلادى، بيد أن توسعهم ظل على حساب الأرمن حتى عهد الامبراطور قنسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٥م).(٨٠) ففى سنة ١٠٤٨م شن إبراهيم بن اينال، أحد القادة السلاجقة، هجوما على الأراضى البيزنطية، ثم قام طغرل بك بقيادة هجوم بنفسه فى سنة ١٠٥٤م. وكان هذان الهجومان فاتحة غارات كثيرة متكررة شنها الأتراك السلاجقة ضد الامبراطورية.(٨١).

وفى سنة ١٠٥٩م نهبت قوات السلاجقة سيواس. ولكن وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣م غيرت من اتجاه الأحداث. ذلك أن خليفته وابن أخيه ألب أرسلان كان منزعجا

---

(٧٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص ٦٥-٦٨؛ ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧-٨٩، ويذكر أنه يسمى البساسيرى «الفساسيرى». وينسب إليه أنه كتب إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، «.. يذكر له كونه فى طاعته وإخلاصه فى موالاته وعزمه على إقامة الدعوة له بالعراق..».

(٨٠) عن عهد هذا الامبراطور، أنظر : Psellus, op. cit., pp. 162-259.

(٨١) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 60-61; Charanis, "The Byzantine Empire", pp. 188-189.

من احتمال حدوث تحالف بين البيزنطيين والفاطميين، ومن ثم هاجم العاصمة الأرمنية القديمة «مانى Mani» واستولى عليها، ثم هاجم قيصرية فى إقليم قبادوقيا ودمرها سنة ١٠٦٧م، ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الضعاف أن يفعلوا شيئا لصد هذه الهجمات.[٨٢]

وفى شهر يناير سنة ١٠٦٨م اعتلى العرش الامبراطورى فى القسطنطينية الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس (١٠٦٨-١٠٧١م). وقد كان جنديا محترفا، شجاعا، وصفه ميخائيل بسللوس (الذى كان من خصومه السياسيين) بالرعونة والتهور.[٨٣] وبعد عدة شهور كان الامبراطور على رأس جيشه لمنازلة السلاجقة على الرغم من نقص التنظيم والتدريب فى جيشه، وأحرز بعض النجاح بيد أنه لم يحقق نصرا حاسما. وفى سنة ١٠٦٩م تصدى للسلاجقة الذين نهبوا قونية وهم عائدون بغنائمهم وأجبرهم على تركها والفرار. ثم عاد إلى القسطنطينية ليمضى سنة ١٠٧٠م كلها.

فى ذلك الوقت كان السلطان السلجوقى ألب أرسلان يعد حملة ضد الخلفاء الفاطميين فى مصر، وآثر أن يعقد معاهدة أو هدنة مع البيزنطيين، وربما يكون الطرفان قد توصلا إلى اتفاق، ولكن غارات بعض أمراء السلاجقة المغامرين كانت تتم دون علم السلطان أحيانا، وضد إرادته أحيانا أخرى. وكانت نتيجة هذه الأحداث أن وصلت محاولة إرساء السلام بين الجانبين إلى طريق مسدود. ويقول ابن الأثير: إن رد الامبراطور البيزنطى على السلطان السلجوقى بالسلام كان قاسيا، إذ قال: «لا هدنة إلا بالرى».[٨٤] وهو ما يعنى أن الامبراطور كان قد عقد العزم على دخول عاصمة ألب أرسلان.

---

(٨٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ١، حوادث ٤٥٦هـ؛
Runciman, op. cit., vol. I, pp. 62-63; Charanis, op. cit., pp. 190-191.

(٨٣) Psellus, Chronographia, pp. 350-366.

(٨٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص ٦٥-٦٧.

وهكذا وصلت الأمور إلى نقطة الالتهاب. وفى شهر رجب سنة ٤٦٣هـ (أغسطس ١٠٧١م) التقى الجيشان فى ساحة المعركة، وانقشع غبار القتال عن هزيمة فادحة للقوات البيزنطية، ووقع رومانوس ديوجنيس أسيرا، وكان بذلك أول امبراطور بيزنطى يقع أسيرا بأيدى المسلمين.(٨٥) وعلى الرغم من اللوم الذى وجهه بسللوس لرومانيوس بسبب هذه الهزيمة إلا أنه اعترف بأن الامبراطور قاتل بشجاعة، وقتل عددا من جنود الأتراك بسيفه.(٨٦) ويعد هذه المعركة التي عرفت فى تاريخ المنطقة باسم «معركة مانزكرت» أو «ملاذكرد» أو «منازجرد» (كما يسميها ابن القلانسى وابن العبرى والفارقى) لم تكن ثمة قوات بيزنطية يمكنها صد الأتراك السلاجقة الذين جاءوا إلى هذه المنطقة بقصد الاستقرار الدائم.(٨٧)

لقد كانت هزيمة البيزنطيين فى مانزكرت تعبيرا عن تردى الأوضاع الداخلية فى الامبراطورية أكثر من كونها سببا فى هذا الانهيار، إذ إن السنوات التى انقضت ما بين وفاة باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م وارتقاء اليكسيوس كومنينوس العرش الامبراطورى سنة ١٠٨١م شهدت تعاقب ثلاثة عشر امبراطورا على العرش بينهم امرأتان. وكان معظمهم رجالا عاجزين غير قادرين على مواجهة الظروف العصيبة التى عصفت بالامبراطورية. لقد كانت الأحوال الداخلية متردية تماما، فالمنازعات الداخلية والتمرد كانا من سمات الحياة السياسية، كما أن المرتزقة من الروس، والأتراك، والآلان، والإنجليز، والنورمان، والألمان، والبشناق، والبلغار، وغيرهم كانوا عماد الجيش

---

(٨٥) يقول ابن القلانسى : (... وقتل من عسكر الروم الخلق الكثير بحيث امتلأ واد هناك عند التقاء الصفين..). انظر : ذيل تاريخ دمشق، ص٩٩؛ ابن العبرى، تاريخ مختصر لدول، ص ١٨٥؛ أومان، الامبراطورية البيزنطية (تعريف مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٢)، ص ١٩٥-١٩٩.

(٨٦) Psellus, op. cit., pp. 355-356.

(٨٧) Charanis, "The Byzantine Empire", 192-193; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, pp. 62-63; Chroniques de Michel le Syrien (editee et traduite Par J.B. Chabot) III, p.

البيزنطى، ولم يكن هذا مما يمكن أن يكون جيشا قويا. وفضلا عن تأثير المرتزقة السلبى فى الجيش كانت لهم تأثيراتهم السلبية أيضا فى البنية الاجتماعية فى الامبراطورية.(٨٨) وكان الاقتصاد الداخلى منهارا، والخزانة خاوية لدرجة «... أن أبوابها لم تكن تغلق...»، كما تقول آناكومنينا التى أرخت لعهد أبيها الامبراطور أليكسيوس كومنينوس.(٨٩) وكانت الحروب الداخلية تمزق الامبراطورية عقب مانزكرت، وانتهت بصعود اليكيسوس إلى العرش سنة ١٠٨١م.

يقول المؤرخ ستيفان رنسيمان : إن أحوال الامبراطورية البيزنطية سنة ١٠٨١م كانت غاية فى السوء، بحيث لا يقبل مسؤولية حكمها سوى رجل غاية فى الشجاعة، أو رجل على قدر كبير من البلاهة.(٩٠) ولكن السنوات السبع والثلاثين التى تولى فيها أليكيسوس حكم الامبراطورية وسط أمواج السياسة والحرب الهادرة فى شرق المتوسط أثبتت أن الرجل لم يكن شجاعا فقط، وإنما كان غاية فى الكفاءة والقدرة السياسية.

كانت مواجهته الأولى مع النورمان، فعندما اعتلى العرش كان روبرت جورد كارد دوق أوبوليا قد عبر الأدرياتى بجيشه وبصحبته راهب زعم أنه الامبراطور المخلوع ميخائيل دوكاس، وأنه جاء ليعيده إلى عرشه. وتقول آنا كومنينا :(٩١) إن جيش روبرت المكون من أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة كانوا قد ضربوا خيامهم بالفعل فى أراضى الامبراطورية فى شهر يونيو من سنة ١٠٨١م. وإزاء هذا الموقف الصعب كان على أليكسيوس أن يفاوض البنادقة لكى يساعدوه بأسطولهم القوى لقاء حصولهم على الامتيازات التجارية فى القسطنطينية، كما طلب مساعدة الامبراطور الألمانى هنرى الرابع، فأرسل له وفدا بقيادة أحد رجاله ويدعى مثيمس (Methymes) يطلب

---

(٨٨) Charanis, op. cit., pp. 200-206; Runciman, op. cit., vol. I, p. 65.

(٨٩) Anna Comnena, The Alexiad, (translated from the Greek by E.R.A. Sweter, Penguin Books, 1969), p. 157.

(٩٠) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p. 71.

(٩١) Anna Comnena, The Alexiade, pp. 135-137.

فيه غزو لمبارديا لكى يشغل روبرت جويسكارد عن غزو الامبراطورية البيزنطية. وعلى الرغم من أن أليكسيوس كومينوس قد اضطر للهرب فى معركتين ضد النورمان إلا أن مساعدات البنادقة، وهجوم الامبراطور هنرى الرابع على ايطاليا للانتقام من البابا جريجورى السابع جعلت الخطر النورمانى يتلكأ كثيرا. ولكن موت روبرت جويسكارد المفاجئ سنة ١٠٨٥م أنهى هذه المواجهة المضنية التى استمرت بشكل دائم منذ اعتلاء اليكسيوس العرش سنة ١٠٨١م. وهكذا انزاح خطر النورمان مؤقتا عن الامبراطورية البيزنطية.[٩٢] وفى هذه الحروب برز بوهيموند ابن جويسكارد الذى كان واحدا من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى.

كانت هذه فرصة بالنسبة لأليكسيوس كومنينوس لمواجهة البشناق والكومان فى الجبهة الشمالية. وقد فشل الامبراطور فى مواجهتهم بالقوة العسكرية لأنهم هزموا جيشه، ومن ثم لجأ إلى السلاح البيزنطى التقليدى وهو دبلوماسية الدس والوقيعة والرشوة. فقد جعل الكومان يحملون السلاح ضد حلفائهم البشناق، وفى سنة ١٠٩١م جرت بينهما مواجهة حاسمة، وتمزق البشناق شر ممزق، واختفوا من مسرح تاريخ المنطقة بعدها.[٩٣]

أما السلاجقة فكانوا قد بدأوا يتوغلون فى آسيا الصغرى منذ سنة ١٠٧٣م. وأخذ سليمان بن قتلمش[٩٤] يتوسع على حساب البيزنطيين حتى استولى على معظم أنحاء آسيا الصغرى، منتهزا فرصة التخلخل السكانى وتدهور أحوال بيزنطة الداخلية، وفى العاشر من شعبان سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م استولى سليمان على مدينة

---

(٩٢) عن حروب اليكسيوس ضد النورمان، انظر :
Anna Comnna, The Alexiad, pp. 135-215; Runciman, A History of the Crusades, pp. 73-75; Charanis, "the Byzantine Empire", p. 214.

(٩٣) Charanis, op. cit., p. 215.

(٩٤) يعتبر سليمان بن قتلمش المؤسس الحقيقى لدولة سلاجقة الروم التى استمرت موجودة حتى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وقد عينه ملكشاه واليا عليها. أنظر : أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة فى التاريخ والحضارة (الكويت ١٩٨٦)، ص ٣٩-٤٠.

أنطاكية.[٩٥] وفى الوقت نفسه كان هناك أمراء من الأتراك أقل شأنا من سليمان بن قتلمش «مثل : «الدانشمند»، و«شاكا»، أو «منجوشك» يحاولون الاستيلاء على مدينة أو قلعة يحكمونها أيا كان عدد سكانها. ومن ورائهم كان التركمان الرحالة، بأسلحتهم الخفيفة وخيامهم وعائلاتهم، يطاردون البيزنطيين ويحلون محلهم فى آسيا الصغرى.[٩٦]

ولما رأى أليكسيوس أن من المستحيل طرد السلاجقة من آسيا الصغرى قرر مهادنتهم. وعلى الرغم من أن الأحوال ساءت بين البيزنطيين والسلاجقة بعد موت سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م[٩٧] إلا أن الأمور ظلت مضطربة بين الجانبين حتى استولى على نيقية قلج أرسلان بن سليمان فى سنة ١٠٩٢م.[٩٨]

كانت هذه هى الحالة على كافة الجبهات البيزنطية، وهكذا كان أليكسيوس كومنينوس عاكفا على تنظيم امبراطوريته، وإعادة بناء جيشه لتأمين حدوده. وكانت إعادة بناء الجيش البيزنطى تستوجب الاعتماد على المرتزقة الذين صاروا عماد قوة الجيش البيزنطى منذ تلاشت المزارع الصغيرة التى كان أصحابها المصدر الأساسى لجنود الجيش. وكان أحد أسباب دخول الامبراطور مع البابا أربان الثانى فى مفاوضات أن الأول يريد مساعدة البابا فى تجنيد المرتزقة من غرب أوروبا، والثانى يريد انتهاز الفرصة لكى يعيد توحيد كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما تحت الزعامة البابوية.

والحقيقة أن أربان الثانى كان يواصل نفس سياسة سلفه البابا جريجورى السابع فى هذا الشأن. فالواقع أن البابا جريجورى السابع حاول أن يحول ورطة بيزنطة بعد

---

(٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٧.

(٩٦) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. I, p. 74.

(٩٧) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ١١٨-١١٩؛ أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة؛ ص ٤٠-٤١.

(٩٨) Charanis, "The Byzantine Empire", p. 215-216.

معركة مانزكرت إلى ميزة ومصدر نفع للبابوية. فقد أراد إعادة توحيد الكنيستين تحت زعامته بعد الانشقاق الذى حدث سنة ١٠٥٤م.[٩٩] وخلال سنة ١٠٧٤م كان جريجورى السابع قد أعد خطة لحملة تتجه لإنقاذ القسطنطينية تحت قيادته.[١٠٠] ولكن نزاعه مع الامبراطور هنرى الرابع من ناحية، وفشل مشروع التحالف النورمانى البيزنطى الذى تبناه نتيجة انقلاب أطاح بالامبراطور ميخائيل السابع من ناحية أخرى، جعل الشيطان المقدس (جريجورى السابع) يتخلى عن هذه السياسة.

وجاء خليفته اربان الثانى ليواصل السياسة نفسها، فسارع بتحسين علاقته بالامبراطور أليكسيوس كومنينوس. ففى سنة ١٠٨٩م تلقى أليكسيوس رسالة من أربان الثانى يحثه فيها على إرساء السلام والانسجام بين الكنيستين، ويشكو من أن اسم بابا روما قد رفع من مراسيم بطريركية القسطنطينية دونما سند من القانون الكنسى، ويطلب إعادة الاسم. وبعد مشاورات واجتماعات ومناقشات بين أليكسيوس ورجال الكنيسة البيزنطية اقترح الكنسيون حلا وسطا. وعلى الرغم من أن كل هذه المحاولات لم تسفر عن أى نتائج حاسمة إلا أن العلاقات تحسنت نسبيا بين البابوية والامبراطورية البيزنطية.[١٠١]

وعندما قابل الامبراطور البيزنطي الكونت روبرت أمير الفلاندرز أثناء قيامه برحلة حج إلى فلسطين طلب منه أن يرسل بعض الفرسان للعمل فى الجيش الامبراطورى لدفع خطر السلاجقة. ويثور الجدل بين المؤرخين حول صحة خطاب يقال إن

---

(٩٩) عن هذا الموضوع، انظر : إسحق عبيد، روما وبيزنطة - من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى تنسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤م - (القاهرة، ١٩٧٠م). ص٢٥-٣٩.

(١٠٠) انظر الوثائق التى تتضمن مراسلات جريجورى السابع بهذا الشأن وهى ست وثائق :
Archives de l'Orient Latin, tom I, pp. 56-61.

(١٠١) Charanis, "The Byzantine Empire", pp. 217-218; Mayer, The Crusades, p. 8; Frederic Duncalf, "The Councils of Piacen and Clermont," in Setton, I, p. 266.

قاسن، الخلفية الأيديولوچية، ص ١١٤-١١٥.

أليكسيوس أرسله إلى الكونت روبرت بعد رجوعه إلى بلاده يذكره بوعده بإرسال الفرسان.[١٠٢] ولدينا وثيقة أخرى عبارة عن خطاب أوردته المصادر التاريخية اللاتينية فى تلك الفترة زعمت أن تاريخه فى الفترة ما بين أغسطس سنة ١٠٩٤م ويناير سنة ١٠٩٥م، وهو خطاب منسوب إلى اليكسيوس كومنينوس موجه إلى البابا أربان الثانى «وكل المؤمنين فى الغرب» يطلب منهم النجدة لمواجهة المسلمين الذين يهددون الامبراطورية البيزنطية. ولكن الشك يحوط بحقيقة هذا الخطاب، وربما كان من بين الوثائق المزورة التى استخدمتها الكنيسة فى الدعاية للحملة الصليبية، إذ إن الأوضاع البيزنطية كانت قد استقرت فى ذلك الحين، ولم يعد الخطر السلجوقى محدقا بالامبراطورية مثلما كان الحال قبل عشر سنوات. كما أن الامبراطور أليكسيوس كان يطلب من الغرب شيئا أصبح مألوفا فى الجيش البيزنطى منذ فترة طويلة، وهو المرتزقة الغربيون الذين باتوا يشكلون قسما هاما من هذا الجيش، أما الحملة الصليبية فكانت آخر ما يخطر على بال هذا الامبراطور الذكى، على نحو ما ستؤكده تصرفاته حيال قادة الحملة الصليبية الأولى فيما بعد.[١٠٣]

وفى مارس ١٠٩٥م عقد البابا أربان الثانى مجمعا فى بياكنزا بإيطاليا، ودعا إليه الأساقفة من ايطاليا، وبورجندى، وفرنسا، وألمانيا، وبافاريا، وغيرها من البلاد، لمناقشة بعض أمور تتعلق بالكنيسة وإدانة البابا المضاد الذى عينه الامبراطور هنرى

---

(١٠٢) انظر الترجمة العربية لهذا الخطاب فى :

جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، (دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٦٧)، ص ٣٠٧-٣٠٩.

انظر أيضاً، ص ٥٢-٥٤ من الكتاب نفسه.

أنظر أيضاً النص الأصلى :

Hagenmeyer, (ed.), Epistolae et Chartae and Historiarum Belle Sacri Spectantes (Heidelburg, 1901), pp. 129-136.

(١٠٣) أنظر نص الخطاب فى AOL, tom. II, pp. 101-105.

وأيضاً : قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ١١٥-١١٦، وعن حقيقة المساعدة العسكرية التى طلبها أليكسيوس من البابا أنظر : Duncalf, "The Councils", pp. 227-28.

الرابع. وقد حضر هذا المجمع عدد من كبار الزعماء العلمانيين مما يكشف عن مدى نجاح أربان الثانى فى توطيد مركزه. وقد مثلت سفارة من القسطنطينية أمام هذا المجمع ومعهم طلب من الامبراطور البيزنطى إلى البابا لكى يحث المحاربين الغربيين على مساعدة الامبراطورية الشرقية. وبالفعل خطب البابا فى الجماهير المحتشدة فى الحقول المفتوحة، والتى لم يكن ممكنا أن تستوعبهم أى كنيسة، وطلب من الموجودين أن يقدموا للامبراطورية الشرقية كل مساعدة ممكنة.[١٠٤]

ولم يكن هناك سوى مصدر واحد عن مجمع بياكنزا هو المؤرخ برنولد الكونستانسى (Bernold of Constance)[١٠٥]، ولكن هذه الرواية التى يتقبلها المؤرخون باعتبارها رواية صادقة تأكدت من خلال مصدر آخر وهو عبارة عن حولية بيزنطية من القرن الثالث عشر الميلادى، تم اكتشافها منذ نصف قرن مضى تقريبا. وقد أكدت هذه الحولية رواية برنولد، كما أوضحت أن الامبراطور البيزنطى أليكسيوس كومنينوس قد طلب النجدة من مجمع بياكنزا، كما ركز أيضا على طلب النجدة لمدينة بيت المقدس، لأنه كان يرى أن استخدام اسم القدس سيكون له وقع حسن من حيث الدعاية فى أوروبا الغربية. بيد أن الامبراطور كان يحلم باستعادة الأناضول من الأتراك السلاجقة، ولم يكن يفكر في شن حملة صليبية. لقد كان الامبراطور يريد بعض المرتزقة فى أعداد قليلة تنضم إلى جيشه بحيث يمكن السيطرة عليها، ولكنه لم يكن يتوقع تلك الجيوش الضخمة التى كونت الحملة الصليبية الأولى.[١٠٦] على أى حال

---

(١٠٤) Mayer, The Crusades, p. 8; H. Hagenmeyer, "Etudes sur la Chronique de Zimmern", en AOL , tom. II, pp. 66-67; Dunca "The Councils of Piocenza and Clermont", pp. 228-229; Runciman, A History of the Crusades, I, pp. 103-105.

(١٠٥) Bernold of st. Blaise, Chronicom (Monementae Germani His toriarum, SS., V).

وقد مات برنولد هذا سنة ١١٠٠م.

(١٠٦) عن هذا الموضوع انظر المناقشة التفصيلية لدانا مونرو :

D.C. Munro "Did the Emperor Alexius I ask for Aid at the Council of Pia Cenza?" American Historical Review, XXVII, (1922), pp. 731-733 of. Mayer, The Crusades, p. 8; Duncalf, op. cit., pp. 229-230.

تقول الرواية : إن البابا جعل الحاضرين يقسمون على الذهاب لمساعدة الامبراطور البيزنطي بكل ما في وسعهم من قوة.

ولابد من أن فكرة الدعوة إلى حملة صليبية، على النحو الذى تم فى كليرمون بعد عدة أشهر قليلة، قد اختمرت فى وجدان البابا وعقله خلال الرحلة من ايطاليا إلى فرنسا. وهكذا كان الموقف عشية الحملة الصليبية، إذ وجدت البابوية ذريعتها النهائية فى هذه السفارة البيزنطية إلى بياكنزا، وكانت القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى جاهزة لكى تنفذ دعوة البابا.

ترى ماذا كانت أحوال الشرق العربى الإسلامى آنذاك؟

عشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسى والتناحر العسكرى مخيما على العالم العربى. وفى ظل هذه الظروف نجح الصليبيون فى زرع إمارتهم ومملكتهم. لقد انتصرت الحملة الصليبية الأولى بفضل هذا التمزق وحاز الفرنج انتصاراتهم الأولى، وتم محو الامارات العربية والاسلامية الصغيرة فى بلاد الشام، واحدة تلو الأخرى فى طيات الموجة الصليبية. وكانت إمارة سلاجقة الروم، وعاصمتها نيقية، أول ضحايا التشرذم السياسى من جهة، والهجوم الصليبى من جهة أخرى، ثم تلتها بقية الامارات. ولنعرض لهذا بشئ من التفصيل.

ففى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان المسلمون فى المنطقة العربية موزعين فى ولائهم السياسى بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة. وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم بين الخلافتين فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام – وهى المجال الحيوى الذى تنازعت الخلافتان السيادة عليه – موزعا بين عدة إمارات صغيرة. فقبيل الحملة الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة فى بلاد الشام تقريبا إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربى، أو من الأتراك السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة

بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سببا فى العداء السياسى والعسكرى الذى سبب تنافر هذه القوى وعدم توحدها فى مواجهة الغزو الصليبى.

كانت الأحوال السياسية الداخلية فى الخلافة العباسية قد جعلت الخلافة رهينة لدى البويهيين الشيعة. وفى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) نجح السلاجقة، بزعامة طغرل بك، فى القضاء على النفوذ الشيعى فى بغداد بعد قتل البساسيرى الذى أراد أن يحدث انقلابا سياسيا لصالح الخلافة الفاطمية من داخل عاصمة الخلافة العباسية.[١٠٧] حقيقة أن هذه الواقعة كانت بمثابة الدفعة التى أنعشت الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للأتراك السلاجقة، ولكن الفاتحين الذين جاءوا منقذين سرعان ما بدأوا يتصرفون باعتبارهم غزاة، مثلما يحدث غالبا.

لقد صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسى إسميا، ولكنها تدين بالخضوع الفعلى لسلطة سلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك، ألب أرسلان، وملكشاه). ومنذ وقت مبكر اتجه السلاجقة نحو الشمال والغرب على حساب الأرمن والبيزنطيين والفاطميين. وفى الوقت الذى كانت قوات ألب أرسلان تضرب فلول الجيش البيزنطى بعد أسر الامبراطورالمهزوم رومانوس ديوجينيس فى ملاذكرد سنة ١٠٧١م، كانت قوات أحد القادة التركمان قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين، وهو «أتسز بن أوق».[١٠٨]

وفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م عين ملكشاه أخاه تاج الدين تتش واليا على الأجزاء التى استولى عليها السلاجقة فى بلاد الشام،[١٠٩] وفوض إليه مهمة الغزو مستقبلا فى هذه المناطق، كما عين سليمان بن قتلمش واليا على بلاد الروم (أى آسيا

---

(١٠٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٧-٨٩.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٩٨-٩٩؛

Claude Cahen, "The Turkish Invasion", p. 144.

(١٠٩) أحمد كمال الدين حلمى، السلاجقة، ص ٣٨-٣٩.

الصغرى). وقد أدى هذا الاتجاه إلى استمرار التوسع السلجوقى فى بلاد الشام على حساب الفاطميين والقوى المحلية، وفى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين.

وبعد حصار فاشل ضد حلب قاده جيش تتش مع حليفه أمير الموصل «شرف الدولة مسلم العقيلى» استطاع هذا الأخير أن يقتنص المدينة لنفسه من آخر أمرائها أبو الفضائل سابق بن محمود آخر الأمراء المرداسيين الذين ظلوا يحكمون حلب حوالى نصف قرن من الزمان.(١١٠) وهكذا قامت فى حلب إمارة قصيرة العمر سنة ١٠٧٩م. وقد أورد ابن القلانسى هذا الخبر بصورة مقتضبة للغاية، إذ قال فى حوادث سنة ٤٧٢هـ «.. فيها تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش حلب».(١١١)

من ناحية أخرى كان الأمير التركمانى أتسز قد استولى من الفاطميين على معظم أنحاء فلسطين. وفى سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٦م) كانت دمشق تعانى من تدهور اقتصادى وغلاء فاحش فى الأسعار، ونقص فى الأقوات اقترب من حافة المجاعة، مما اضطر أهلها إلى تسليم المدينة إلى أتسز بالأمان.(١١٢) وقد أغرى هذا النصر أتسز بالسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية، ولكن أمير الجيوش بدر الجمالى ألحق به هزيمة منكرة. «وأفلت هزيما بنفسه فى نفر يسير من أصحابه». ثم وصل دمشق.. وبعدها جاءت أخبار وصول تتش إلى بلاد الشام، وبذلك صارت دمشق إمارة سلجوقية.(١١٣)

ودار الصراع بين سلاجقة الشام، بقيادة تتش، وسلاجقة الروم، بقيادة سليمان بن قتلمش حول السيادة على حلب. وانتهى القتال سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بمصرع سليمان

---

(١١٠) سعيد عاشور، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٢، ص ٥٨-٥٩.

(١١١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٣.

(١١٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

(١١٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩-١١٢.

وتحول حلب إلى إمارة سلجوقية.[١١٤] وكان من النتائج السلبية لمصرع سليمان بن قتلمش ازدياد حدة التفكك والتشرذم السياسى بين السلاجقة.

ولسنا نقصد أن نتتبع تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية الكثيرة والمتشابكة المتلاحمة فى الفترة السابقة على الحملة الصليبية الأولى، لأن هذه الدراسة لا تهتم بهذه الأحداث فى حد ذاتها، وإنما تهتم بإبراز الحقيقة القائلة إن المنطقة العربية فى أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى كانت نهبا للمعارك بين الحكام الكثيرين الذين اقتسموا حكم مدنها وأقاليمها بصورة فسيفسائية مربكة.

فالخلافة الفاطمية كانت قد دخلت مرحلة التدهور السياسى الداخلى بعد أن سيطر الوزراء العظام على الخلفاء، وحولوهم إلى دمى يحركونها كيفما شاءوا. وعلى الرغم من محاولاتهم العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا فى استرداد نفوذهم الضائع فى بلاد الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين الأتراك السلاجقة حماة الخلافة العباسية الطامحين إلى ضم الشام ومصر تحت رايتها، كما كانت هناك منازعات بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية.. وهكذا.

فعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة فى حلب يحكمها رضوان (١٠٩٥-١١١٣م) الموالى للفاطميين، وكان العداء مستحكما بينه وبين إمارة دمشق التى يحكمها دقاق الموالى للخلافة العباسية السنية (١٠٩٥-١١٠٤م)، أما إمارة شيزر على نهر العاصى قرب حماة فكانت تحت حكم بنى منقذ، الذين برز منهم الفارس المؤرخ الشاعر «أسامة بن منقذ»، على حين كانت طرابلس تحت حكم بنى عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظلت بأيدى السلاجقة حتى استعادها الفاطميون فى سنة ١٠٩٨م أثناء وجود الصليبيين فى أنطاكية، ولكنهم لم يلبثوا أن فقدوها بعد مذبحة مروعة ارتكبها الصليبيون الأوائل بعد أن استولوا على القدس التى كانت هدف رحلتهم ذات

---

(١١٤) المصدر نفسه، ص ١١٨-١١٩.

الألف ومائتى ميل. أما مدن الشمال فى آسيا الصغرى وأعالى بلاد الشام، والتى أخذت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية وإيقاع سريع، فكانت ضحية التخريب والتدهور السكانى.

لقد كانت هذه الكيانات السياسية المتصارعة كلها متورطة تماما فى الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين. وعندما قدموا لم يكن لدى الحكام سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر. ومن ثم مضت قوات الصليبيين كما تمضى السكين فى الزبد. وفى طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارة الصغيرة واحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة نيقية فى أيدى قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة، وذلك النذير بلا فائدة.

الفصل الثالث

الحملات الصليبية : عرض تاريخى

أحداث الحملة الصليبية الأولى - الكيان الصليبى - رد الفعل العربى الإسلامى - عماد الدين زنكى وتحرير الرها - الحملة الثانية - نور الدين محمود وتوحيد الجبهة العربية الإسلامية - حطين وتحرير القدس - الحملة الصليبية الثالثة - خلفاء صلاح الدين والتشرذم السياسى - الحملة الرابعة - الحملة الخامسة - فردريك الثانى والكامل الأيوبى - الحملة السابعة وقيام دولة سلاطين المماليك - نهاية الوجود الصليبى فى فلسطين.

كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م.

هذة المدينة الصغيرة فى الجنوب الفرنسى أصبحت رمزا إلى بداية أكبر حركة فى تاريخ الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى، كما أن هذا اليوم من شهر نوفمبر كان يمكن أن تطويه سجلات النسيان التى تطو ى أياما كثيرة متشابهة ، بيد أنه صار نقطه البداية لهذه الحركة التى مثلت ظاهرة تاريخية فذة لاتزال تغرى المؤرخين والباحثين بدراستها.

كان أربان الثانى قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء الأعمال التى ناقشها مجمع كليرمون على مدى الأيام التى مضت منذ بداية انعقاده فى اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر. ويبدو أن البابا الذى أعد نفسه للدعوة إلى حملة مقدسة تحت راية الصليب قد استعد لهذا اليوم الاستعداد الذى يضمن له النجاح إذ أنه طلب من الأساقفة ومقدمى الأديرة الفرنسيين ان يدعوا كبار الأمراء الاقطاعيين فى مناطقهم.

لسماع البابا. وقد حفظ الزمن عدة وثائق تتضمن مراسلات البابا بهذا الشأن.[١]
ويبدو أن الاستجابة كانت مرضية الى حد بعيد ، فقد حضر عدد من الفرسان والنبلاء الإقطاعيين، كان أبرزهم ريمون الرابع، كونت تولوز، الذى اشتهر عادة باسم ريمون السانجيلى (Raymond de Saint-Gille) الذى حرص على أن يرسل للبابا من يخبره مسبقا بأنه سوف يحضر لكى يستمع إلى خطبته.[٢] ومن المفهوم أن هناك عددا كبيرا من الحضور قد جذبتهم فكرة أن البابا وكبار كرادلته سوف يتواجدون فى هذا الحفل الخطابى ،وهو أمر كان نادر الحدوث فى تلك العصور على أى حال.

وفى حقل فسيح بين تلال أوفرينى (Auvergne) خارج مدينة كليرمون احتشد جمع غفير من الناس ، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا. ولم يخيب البابا ظنون الحاضرين أو توقعاتهم، فإن كلماته الحماسية داعبت أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين.

ولسنا نملك نصا موثقا لخطبة البابا فى كليرمون . وعلى الرغم من أن ثلاثة مؤرخين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى ، هم المؤرخ المجهول الذى كتب «أعمال الفرنجة - Gesta Francorum»، وفوشيه الشارترى، وريمون الأجويلرى إلا أن فوشيه هو الوحيد من بينهم الذى سجل ماحدث فى كليرمون.[٣] وكان هناك ثلاثة مؤرخين آخرين، حضروا كليرمون، لكنهم لم يكتبوا عن المجمع إلا بعد نهاية القرن، وبعد نجاح

---

(١) A.O.L, tom. I, pp. 107-9 .

(٢) H. Hagenmeyer, "Chronologie de la Premiere Croisade 1094-1100", ROL VI, p. 225.

وعن الجولة التى قام بها البابا فى الجنوب الفرنسى، وإعداده لمجمع كليرمون، أنظر :
Dunculf, "The Councils of Piacenza and Clermont", in Setton, vol. I, pp. 234-237.

(٣) أنظر نص روايته عن كليرمون : Fulcher, de Chartres, pp. 61-69
والترجمة العربية الكاملة لهذا النص : قاسم، الحروب الصليبية، ص ٧٣-٧٧.

الحملة الصليبية الأولى، وهم بلدريك الدوللى، وروبير الراهب، وجيوبرت النوجنتى[٤]، ومن ثم فإن الكلمات التى وضعها أولئك المؤرخون اللاتين على لسان البابا أربان الثانى فى كليرمون تعكس ما وقع من أحداث تاريخية بالفعل بعد الحملة الأولى ونجاحها أكثر مما تنقل لنا كلمات البابا.

بيد أن هذه الروايات تتفق فى عدة أمور تجعلنا نرجح أن البابا أربان الثانى قد ضمنها خطبته بالفعل[٥] ويمكن أن نرجع من قراءة نصوص الروايات التى أوردها المؤرخون حول خطبة البابا فى كليرمون أولا أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين، اعتمادا على نصوص وردت فى الأناجيل المسيحية، وأهمها نص من إنجيل لوقا يقول : «ومن لايحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذا».[٦] وثانيا، أنه كان يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه فى الأرض،[٧] فقد ذكر فوشيه أن البابا خاطب المستمعين قائلا : «.. ومن ثم فإننى، لست أنا، ولكن الرب هو الذى يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات ..». كما ذكر روبير الراهب، وبلدريك الدوللى، ووليم الصورى كلاما مشابها.[٨]

---

(٤) Robert le Moin, "Historia Iherosotimitana", RHC, occ. III, 727-730; Guibert de Nogent," Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos", RHC, Occ. IV, pp. 137-140; Baudri de Bourgueil, "Historia", RHC, Occ. IV, pp. 12-16.

(٥) أحسن دراسة عن خطبة البابا فى كليرمون قام بها مونرو، عن طريق مقارنة نصوص المؤرخين الذين أوردوها، أنظر :

D.C. Munro, "The Speech of Pope Urban II at Clermont", American Historical Review XI, (1906), pp. 231-242.

أنظر أيضاً لدانا مونرو :

Dana Carleton Munro, "Papal Proclamation of the Crusade", in : James A. Brundage (ed.), The Crusades, pp. 7-11.

(٦) انجيل لوقا ١٤ : ٢٧.

(٧) Fulcher, de Chartres, p. 69,

(٨) Robert le Moin, p. 4; Baudri de Bourgueil, p. 7; William of Tyre, vol. I, p. 93.

لقد تحدث أربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب فى سبيل المسيح، وبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم، هذه الأرض التى وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التى تفيض باللبن والعسل، ووصفها أربان الثانى بأنها ميراث المسيح.(٩) وثالثا : امتدح البابا شجاعة الفرنج كما امتدح قدراتهم القتالية، وذكرهم بأسلاف أمجادهم، ولكنه أدان حروبهم بعضهم ضد بعض، واقتتالهم المستمر، وحثهم على نبذ المنازعات وعدم إراقة الدماء المسيحية مقارنا بين الفارس الجديد الذى يحب المسيح ويحمل صليبه، ويحب جاره ويناضل من أجل تحريره، والفارس القديم الذى كان يسعى وراء طموحاته الخاصة وأطماعه الشخصية، فيصب العنف على اخوانه المسيحيين.(١٠) ورابعا : أشار أربان الثانى إلى منح غفران جزئى لكل من سيشارك فى هذه الحملة، سواء مات فى الطريق إلى الأرض المقدسة، أو قتل فى الحرب ضد المسلمين.

والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما تخللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب فى المكاسب الدينية، لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين. ولم تكن الاستجابة ناتجة من فصاحة البابا وقوة بيانه، بقدر ما كانت تعبيرا عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكى مشروعا طال انتظارهم إياه. فقد كانت الدعوة الى القيام بالحملة الصليبية دعوة تناسب العصر تماما، إذ كان المجتمع الإقطاعى بغطرسته وكبريائه، وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذى يحل مشكلته فى الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح.

وتجسدت الحماسة العاطفية التى أيقظتها كلمات البابا فى صيحة رددها جمهور الحاضرين فى ذلك الحقل الفسيح (Deus lo volt)(١١) (أى الرب يريدها). ومنذ ذلك

---

(٩) Fulcher de Chartres, pp. 65-66; Robert le Moin, pp. 2-3.

(١٠) Fulcher de Chartres, p. 67; Baudri, pp. 14-15; Guibert de Nogent, p. 11.

(١١) Robert le Moin, pp. 4-5.

الحين باتت تلك هى صرخة الحرب التى رددها الصليبيون فى كل معاركهم ضد المسلمين. وسارع الكثيرون إلى البابا يقسمون أمامه على القيام بالرحلة كما أخذ كثيرون يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزا لأخذهم شارة الصليب على نحو ما يحكى فوشيه.(١٢) وقد تم الاعتراف بجميع الفرسان الذين أقسموا على الذهاب جنودا فى جيش الرب فى احتفال رمزى. وصار الصليب شارة لكل فارس فى كل حملة صليبية. وباعتباره رمزا فقد كان له مغزى مزدوج : أولا : كان علامة على الحماية الإلهية، أى علامة تدل على أن حاملها ينتمى إلى جماعة خاصة، جماعة من الحجاج الذين تمتعوا بامتياز حمل السلاح. وثانيا : كان الصليب شارة قانونية، تدل على الامتيازات الدنيوية، لأن الكنيسة أصدرت مراسيم غاية فى الأهمية لصالح الصليبيين. فأثناء فترة غيابه تعفى أملاك الصليبى من الضرائب. وعادة ما كان يمنح تسهيلات فى الديون التى يدين بها، لاسيما أن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة إما من أقاربه ومعارفه، وإما من الكنيسة.(١٣)

ومن ناحية أخرى، كان توزيع الصلبان القماش على الفرسان عملية قصد بها البابا ورجال الكنيسة استبعاد العناصر غير المحاربة من الانضمام للحملة الصليبية. ويبدو أن البابا قد انزعج من الاستجابة الحماسية والسريعة من جانب الفئات غير المحاربة فى المجتمع الأوروبى آنذاك . وقد بذل عدة محاولات لمنع أولئك من الذهاب(١٤) بيد أن حماسة الفقراء (Pauperes) للسير على طريق الخلاص الجديد الذى بناه الرب كانت أكبر من محاولات البابا(١٥). وترسم لنا المصادر التاريخية المعاصرة

---

(١٢) Fulcher de Chartres, p. 68.

(١٣) Mayer, The Crusades, pp. 41-42; Runciman, A Hist. I, p. 109.

(١٤) أنظر خطاب البابا إلى «كل المؤمنين فى الفلاندرز» بتاريخ ديسمبر ١٠٩٥م، وكذلك خطابه إلى أتباعه في بولونى بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٠٩٦م؛ وفيها محاولة لوضع بعض القيود على انضمام غير المحاربين.
قاسم، الحروب الصليبية - نصوص ووثائق، ص ٩٠-٩١.

(١٥) Fulcher de Chartres, p. 75; William of Tyre, vol. I, pp. 96-97; Guibert de Nogent, p. 66; Gesta Francorum, p. 2.

كيف أن الغرب الأوروبى بدأ فى ذلك الوقت يتحرك كله استعدادا للخروج «... كافة ممالك الأرض كانت تتحرك ..»، كما يقول فوشيه، و «... جميع مناطق الغرب لم يكن هناك منزل خال... » لأن الكل كل يستعد للرحيل، كما يقول وليم الصورى.

وقد تركت هذه الحركة العامة الهائلة أصداءها فى الأدب الشعبى الأوروبى، بحيث وجدنا الملاحم الشعرية، وأغانى الحروب الصليبية، تتحدث فيما بعد عن مدى استجابة الناس فى أوروبا الكاثوليكية لدعوة أربان الثانى.(١٦) ومن المهم أن نشير هنا الى أن الحملة الصليبية قد جاءت فى زمن ازدهر فيه الشعر الشعبى فى فرنسا، وكانت قصص التاريخ التى تروى شعرا وغناء بمثابة البديل من الكتاب فى زمن ندر فيه عدد من يعرفون القراءة، كما كانت وسائل النشر محدودة للغاية.

على أى حال تم تحديد الخامس عشر من شهر أغسطس فى العام التالى (١٠٩٦م) موعدا لرحيل الحملة، حين تكون المحاصيل قد جمعت من الحقول. أما مكان اللقاء فكان فى مدينة قسطنطين الحصينة على ضفاف البسفور. ثم عين الأسقف أديمار دى مونتى (Addemar de Monteil) أسقف لوبوى Le Puy قائدا للحملة، أو مندوبا عن البابا الذى أراد أن يوضح أن الحملة يجب أن تكون تحت السيطرة البابوية.

وعلى مدى ثمانية شهور بعد كليرمون أخذ البابا أربان الثانى يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسى، داعيا إلى حملته الصليبية فى محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين من كبار الأمراء الإقطاعيين فى كليرمون كان قليلا. وقد رأى رنسيمان فى ذلك أن خطط أربان لم تنجح تماما.(١٧) وربما كان ذلك سببا من أسباب بقاء أربان فى فرنسا طوال هذه الشهور

(١٦) Lewis A.M. Sumberg, La Chanson d'Antioche-etude historique et literaire, (Paris, 1968), pp. 154-155; Paul Meyer, "Un Recit en vers Francais de la Premiere Croisade fonde sur Baudri de Bourgueille", extrait de la Romania, V, (Paris, 1976), pp. 12-13.

(١٧) Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 108-109; Mayer, The Crusades, pp. 42-43.

الثمانية، وربما كان ذلك أيضا حافزا على مواصلة الدعوة إلى الحملة الصليبية بوسائل تعددت بين المجامع الدينية، والخطابات التى يوجهها هنا وهناك، ثم تكليف رجال الكنيسة والرهبان الكلونيين (الذين كان هو نفسه واحدا منهم) بالدعوة إلى هذه الحملة[١٨] وقد أشار المؤرخ فوشيه الشارترى، الذى كان واحدا من شهود كليرمون، صراحة إلى أن البابا قد كلف القساوسة بالترويج لهذه الدعوة.[١٩]

وفى هذه الأثناء كان الفرسان عاكفين على تدبير الموارد اللازمة لترحيلهم فى الموعد الذى تحدد فى كليرمون، ومن قلاع السادة الإقطاعيين تسربت الأنباء الى الفلاحين الذين أهاجهم ما نقل إليهم من كلام البابا محملا بالمبالغات المعهودة، والتفسيرات العاطفية التى صادفت رغبة الفلاحين فى التخلص من ربقة الإحباط والجوع، ومن نير القنانة وسيطرة سادتهم الإقطاعيين. وسرعان ما سرت أخبار المشروع البابوى بشن حملة مقدسة، تحت راية الصليب ضد المسلمين فى الشرق العربى، لتخليص القدس وتحرير المسيحيين الشرقيين مسرى النار فى الهشيم. وكانت الاستجابة الشعبية أكبر من كل التوقعات. ففى أنحاء فرنسا، وفى الأراضى الواطئة، وألمانيا، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التى ألقاها أربان الثانى فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م.

---

(١٨) فى الفترة ما بين ٢٣ ديسمبر ١٠٩٥ و ٦ يناير ١٠٩٦م أقام البابا فى مدينة ليموج الفرنسية. وهناك عقد مجمعا كرر فيه الدعوة إلى الحملة الصليبية، وفيما بين ٦ فبراير و١٢ فبراير من عام ١٠٩٦م عقد مجمعاً مشابهاً فى مدينة أنجير، كما عقد مجمعاً ثالثاً فى مدينة تور، بين ١٦ و٢٢ مارس من العام نفسه، ثم عقد مجمعاً رابعاً فى مدنية نيم فيما بين ٦ و١٤ يوليو، أنظر :

Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VI, pp. 224-225, p. 226, 243; AOL, I, pp. 109-110, 116, 119.

وعن الخطابات التى أرسلها فى تلك الفترة أنظر الترجمة الإنجليزية :

Riley-Smith (eds.), The Crusades, pp. 38-40. AOL, I, pp. 113-116, 121-122; Hagenmeyer, "Chronologie, p. 251.

(١٩) Fulcher de Chartres, p. 72.

وإذا كانت استجابة النبلاء والفرسان الإقطاعيين متوقعة إلى حد ما[٢٠] فإن ما ظهر من استجابة جماهير العامة فاق كل التوقعات. إذ كان الجو الفكرى والنفسى، والظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة.[٢١] لقد فهم الناس فى غرب أوروبا آنذاك دعوة أربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل فى الشرق المقدس، وفرصة لضمان الخلاص فى يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق صوب هذا الشرق المقدس. وربما يكون الفقراء (Pauperes) قد وقعوا فى شباك الطمع الدنيوى، وراودتهم الأحلام بامتلاك الضياع فى فلسطين الأرض «التى تفيض باللبن والعسل».

لقد كان العامة من الفلاحين وفقراء أهل المدن يظنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الدينى العاطفى هو الذى ميز حركة الفقراء فى غرب أوروبا وموقفهم تجاه دعوة البابا، بيد أن هذا التدين العاطفى نفسه كان سببا من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التى اتسمت بالقسوة والغلظة. ذلك أن الفقراء فى الغرب الكاثوليكى كانوا يخلطون بين التدين العاطفى المتعصب وحقائق حياتهم التعسة فى ظل المجتمع الإقطاعى.

لقد كانت استجابة الناس من أبناء الطبقة الدنيا فى غرب أوروبا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك. لقد طلب

---

(٢٠) زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٤٩-٥١.

(٢١) لمزيد من المعلومات التفصيلية عن هذه النقطة، أنظر :

قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٩٢-١٠٠، ص ١٤٣-١٤٧؛ زابوروف، المرجع السابق، ص ٤٦-٥٠ ؛

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 114-115; Paul Rousset, "Popular Response to the Crusade", in Brundage (ed.), The Crusadesmotives and achievements, pp. 30-33; Duncalf, "The First Crusades: Clermont to Constantinople" in Setton A Hist. of the Crusades, pp. 253-255.

البابا من الأساقفة أن يواصلوا الدعوة إلى الحملة الصليبية، ولكن تأثيرهم كان ضئيلا إذا قيس بتأثير المبشرين والدعاة الفقراء الذين تشبهوا بالحواريين فى فقرهم. وكان هناك عدد من هؤلاء الدعاة الحفاة أبرزهم روبرت الأربريسيلى (Robert d'Arbrissel) وبطرس الناسك.

كان بطرس الناسك[٢٢] هذا راهبا فى اميان، ،هجر الدير بتكليف من البابا لكى يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية. وفى شمال شرق فرنسا واللورين أمضى شتاء سنة ١٠٩٥/١٠٩٦م يتجول من مكان لآخر داعيا إلى حملة البابا. وفى كل مكان كان يذهب إليه يسحر الباب الفقراء بفصاحته التى تناقض هيئته الزرية، إذ كان رث الثياب، بينه وبين حماره شبه عجيب وحيثما حل كان الفقراء المأخوذون ببطرس الناسك يتسابقون لنزع شعرات من جسد الحمار المسكين وذيله، طلبا للبركة. لقد أخذ بطرس الناسك يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره فى ذلك الوقت الذى ميزه التدين الشعبى العاطفى. وقد كان الرجل محور أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية، كما ألهمت الفنانين والأدباء على مدى عدة أجيال. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل اثارة الغرب الأوروبى لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربى الإسلامى.[٢٣]

---

(٢٢) Fulcher de Charters, pp. 72-73; William of Tyre, I, pp. 81-85; Albert D'Aix, in Peters (ed.), The First Crusade (Philadelphia, 1971), pp. 94-95.

وقد عرف بطرس الناسك باسم (Kiokio)، أو (Chtou) ومعناها «الصغير» فى لهجة أهل بيكارد (Picard) نظراً لضآلة حجمه، أنظر :

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p. 113.

(٢٣) ملخص هذه الأسطورة أن بطرس حاول القيام برحلة حج إلى القدس. وفى أثناء نومه فى كنيسة بيت المقدس رأى المسيح يأمره بالتوجه إلى البابا، وأمراء الغرب الأوروبى لإنقاذ القدس من المسلمين. والجدير بالذكر أن المصادر اللاتينية التى عاصرت أحداث السنوات من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٩م لم تتحدث عن بطرس كثيراً، ولم تذكر رحلته إلى القدس، أنظر :

Fulcher de Chartres, pp. 72-73; Guibert de Nogent, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 91-92.

وبينما صمت المؤرخ المجهول، وروبير الراهب، وبلدريك الدوللى عن هذه القصة نجد ألبرت الآيكسى، ووليم الصورى على التوالى يستكملان نسج الأسطورة :

Albert of Aix, in Peters (ed.), pp. 94-99; William of Tyre, I, pp. 81-85.

وإذا كانت الدراسات التاريخية منذ منتصف القرن التاسع عشر قد كشفت زيف أسطورة بطرس الناسك بفضل بحوث هنريخ فون سيبل (سنة ١٨٤١م)[٢٤] فإن بطرس الناسك لايزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيدا للحماسة الدينية الشعبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذى بشر به ودعا إليه. إذ أن بطرس، الذى يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبى الحركة الصليبية، قد هرب أثناء معاناة الصليبيين فى حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨م، وقبض عليه وأعيد إلى المعسكر الصليبى بصورة مهينة.[٢٥]

وعلى أى حال، فإن الفلاحين لم يصبروا حتى يرحلوا فى الموعد الذى حدده البابا لرحيل الفرسان، فمع تباشير ربيع سنه ١٠٩٦م كانوا قد جمعوا محاصيلهم، ولكنهم لم يخزنوها تحسبا لشتاء قد يجوعون فيه، كما جرت عادتهم طوال سنوات وسنوات . لقد حملوا هذه المحاصيل فوق عرباتهم الثقيلة التى تجرها الثيران، ومعها الزوجات والأطفال والمتاع الهزيل. وفى النهاية تحرك موكب الفلاحين صوب الشرق... مطلع الشمس ومهبط المسيح.

كانت جماعات العامة والفلاحين التى تجمعت حول بطرس الناسك أكبر من أن تستطيع أى مدينة أو قرية فى غرب أوروبا أن تعولها ، ومن ثم تكونت من هذه الأعداد الغفيرة فرق وجيوش بائسة، بقيادة واحد من الفرسان المغامرين أو المشعوذين، فى فوضى تبعث على الرثاء. وكانت أول فرقة من حملات الفلاحين، أو حملات العامة، هى تلك التى قادها فارس شرس نبيل المولد من بلدة بواسى (Poissy) هو والتر المفلس (Walter Sansavoir) الذى لم يكن فى جيشه سوى ثمانية فرسان حسبما يذكر ألبرت الآيكسى.[٢٦] وقد سخر الألمان من والتر المفلس وأتباعه الذين باعوا أملاكهم

---

(٢٤) زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٥٢-٥٣.

(٢٥) Gesta Francorum, pp. 28-33.

(٢٦) Albert D'Aix, in Peters (ed.), The First Crusades, pp. 95-6.

لكى يذهبوا فى رحلة حمقاء، وقالوا انهم بادلوا ما هو مضمون بما هو غير أكيد، وأنهم تركوا مسقط رأسهم ووطنهم فى سبيل أرض ترتبط بوعد مشكوك فيه.(٢٧) ولكن الألمان عندما رأوا جموع أتباع والتر المفلس تعبر أراضيهم فى طريقها إلى حوض نهر الراين ثم البلقان، غيروا من رأيهم وكفوا عن السخرية، وأخذوا ينضمون إلى المشروع الصليبى.(٢٨)

ولم تواجه هذه الحملة سوى متاعب قليلة فى نهاية رحلتها عبر المجر، ولكن أعمال النهب والسلب، التى بدأ أتباع والتر المفلس يمارسونها فى بلغاريا، جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون منهم عددا كبيرا على حين لاذ الناجون بالغابات عدة أيام حتى وصلوا فى النهاية تحت أسوار العاصمة البيزنطية، القسطنطينية. وهناك أمر الامبراطور بأن يعسكروا خارج المدينة انتظارا لوصول جيش بطرس الناسك. وهكذا، انتهت رحلة الألف ومائتى ميل بالنسبة لأتباع والتر المفلس.(٢٩)

فى ذلك الوقت كان بطرس قد أعد نفسه للرحيل وتحت قيادته جيش كبير من المشاة والفرسان ترافقهم أعدادا أكبر من غير المحاربين، رجالا ونساء وأطفالا. وغادر هذا الجيش الأراضى الألمانية فى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٦م.(٣٠) وسمح له ملك المجر

---

(٢٧) Duncalf, "Clermont to Costantinople", p. 259.

(٢٨) H. Hagenmeyer, "Etudes sur la chronique de Zimmern Renseignements qu'elle fournit sur la premiere Croisade trduit par Raynaud, AOL, II, pp. 23-28.

(٢٩) عن هذه الحملة وتفاصيل أحداثها، أنظر :
Albert D'Aix, pp. 95-96; william of Tyre, I, pp. 97.
وأيضا : Duncalf, op. cit., pp. 258-261; Runciman, A History of the Crusades, I, pp. 122-123; Mayer, The Crusades, p. 43.
قاسم، الخلفية الأيديولوچية، ص ١٥٥-١٥٧؛ زابوروف الصليبيون فى الشرق، ص ٥٤-٥٥؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص ١٥٢-١٥٣.

(٣٠) عن حملة بطرس الناسك وأحداثها التفصيلية، أنظر :
Albert D'Aix, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 96-99; William of Tyre, I, pp. 99-106; Chronique de Zimmern, AOL, II, pp. 23-24; Anna Comnena, Alexiade, pp. 310-311; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 123-127; Duncalf, "Clermont to Constantinople", p. 260-262.
قاسم، الخلفية الأيديولوچية، ص ١٥٧-١٦٢.

بعبور بلاده بشرط ألا يثير المتاعب. وفى المجر تولى بطرس قيادة جيش الفقراء. وكان المشهد مثيرا.. إذ كان بطرس فى مقدمة الجيش يمتطى حماره الذى يشبهه، وخلفه الفرسان يعتلون صهوات جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التى تجرها الثيران حاملة معها المؤن والأموال التى كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوروبى.

بيد أن بطرس الذى كان قادرا على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذى تألف من المقاتلين والطامعين، والذى ضم مئات من الأفاقين، والمجرمين، وبنات الهوى، والفلاحين، والفقراء من أهل المدن، فضلا عن عدد صغير من الفرسان. فعند مدينة "سملين" على حدود المجر مع الامبراطور البيزنطية كشف "جيش الرب" عن وجهه القبيح، وجرت على سملين وأهلهامذبحة رهيبة، وأزهقت أرواح أربعة آلاف من أبناء المدينة التى تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق التى أشعلها الفرنج فى كل مكان لتختلط بأصوات الجرحى عنوانا على الجريمة التى ارتكبها "جنود الرب" ضد الأخوة المسيحيين الذين زعم الصليبيون أنهم جاءوا لنجدتهم. وإذ خاف بطرس من انتقام المجريين، فقد اختبأ مع جيشه داخل غابات المجر، ثم تجمع جيشه مرة أخرى عندما وصلوا الحدود البيزنطية. وخاف نيكيتاس قائد الحامية البيزنطية فى مدينة نيش (Nish) الحدودية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء، فاتخذ بعض الاحتياطات لمواجهتهم عند الضرورية... ولم يخيب الصليبيون ظنه، فقد أحرقوا مساكن القرويين مع سكانها الأحياء فى داخلها، ونهبوا وسلبوا. وهاجم البيزنطيون جيش بطرس الناسك فقتلوا الكثيرين من رجاله، وأسروا عددا آخر، كما استولوا على الأموال والتبرعات التى كان ذلك الراهب قد جمعها من أغنياء غرب أوروبا. وبعد أيام ثلاثة من التشتت والاختباء عاودت شراذم جيش بطرس التجمع وسارت صوب مدينة صوفيا، وهناك لقيهم مندوبون عن الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس وأبلغوهم باستياء الإمبراطور، وأبلغوهم بأوامره التى تقضى

بألا يمكث الصليبيون فى أى مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام[٣١] . ثم وصلت الشراذم الباقية من حملة بطرس الناسك إلى أسوار القسطنطينية فى مطلع شهر أغسطس ١٠٩٦م.

ودعى ذلك الناسك العجيب لمقابلة الإمبراطور البيزنطى. وربما تأرجحت على شفتى الإمبراطور ابتسامة سخرية ورثاء وهو يرى ذلك الرجل أمامه على حين كان يتوقع مقابلة قائد عسكرى. أدرك الإمبراطور أن هذه الجموع الهائجة الجائعة لم تصمد أمام المسلمين الذين طالما أذاقوا جيوشه المدربة المنظمة مرارة الهزيمة، ونصح الإمبراطور الصليبيين بأن ينتظروا حتى قدوم جيوش الأمراء، بيد أن بطرس غرته كثرة أتباعه، فقبل من الإمبراطور الهدايا التى أعطاها إياه، ورفض النصائح التى أسداها اليه.

وفى الوقت نفسه أخذ الصليبيون يعيشون فسادا فى مدينة القسطنطينية التى بهرتهم بجمالها، ونهبوا وأحرقوا وسرقوا ،ووجد الإمبراطور نفسه مضطر لأن ينقلهم بسرعة عبر المضايق الى آسيا الصغرى[٣٢] . وهناك تصرف "جنود الرب" على نحو لايرضى عنه الرب، فارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين . وبسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون فى شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، على حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.[٣٣] وهكذا انتهت مسيرة الفقراء فوق تراب الشرق العربى الذى

---

(٣١) William of Tyre, I, p. 105, Hagenmeyer, "Chronologie", p. 243.
والجدير بالذكر أن هذه المعركة جرت فى أوائل يوليو سنة ١٠٩٦م.

(٣٢) Gesta Francorum, pp. 24' Anna Comnena, Alexiad, p. 311; William of Tyre, I, pp. 105-106; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 245-246; Duncalf, op. cit., pp. 259-62.

(٣٣) عن نهاية الحملة الشعبية، أنظر :
Anna Comnena, Alexiade, pp. 311-313; Gesta Francorum, pp. 2-4; Albert D'Aix, in Peters (ed.) pp. 108-112; William of Tyre, I, pp. 106-109; Hagenmeyer, "Chronology", pp. 245, 251-254; Runciman, "Constantinople to Antioch", in Setton, I, pp. 281-284; Bradford, The Sword, pp. 38-39. =

داعب خيالهم، وحرك فيهم مشاعر الطمع على مدى ألفى ومائتى ميل.

وفى تلك الأثناء كانت هناك مجموعات أخرى من العامة والفلاحين تتجمع فى الغرب الأوروبى حول هذا القائد، أو ذاك. ولكنها اشتركت جميعا فى مصير واحد هو تلك النهاية المفزعة داخل الأراضى المجرية بعدما قرر كولومان(ملك المجر) أن يتصدى بحزم لأولئك المخربين باسم الرب.[٣٤]

هكذا كانت الحملات الشعبية بمثابة زلزال اجتماعى هائل هز أركان الغرب الأوروبى عقب الدعوة التى وجهها البابا أربان الثانى فى كليرمون. وعلى الرغم من الفشل المزرى الذى منيت به تلك الحملات الشعبية، سواء فى الشرق أو فى داخل أراضى المجر، إلا أنها كانت ذات مغزى لايخطئه الباحث فى تاريخ الحروب الصليبية. لقد كانت التعبير التلقائى عن عدم الصبر الذى تملك الناس فى غرب أوروبا إزاء فرصة لاحت لتغيير نمط الحياة التى يحيونها، والبحث عن مستقبل أفضل. وبينما كان الفرسان من أبناء الطبقة الإقطاعية يدركون أهمية الإعداد للحملة ، فضلا عن البحث عن موارد لتمويلها، لم يستطع المحرومون صبرا على معاناة المزيد فى ظل ظروفهم المتردية. ولكن أهم ما نخرج به من حوادث الحملات الشعبية أن «المثال الصليبى» قد مرغه أصحابه فى طين أطماعهم ووحشيتهم.

أما البابوية والفرسان فكانوا مشغولين آنذاك بالاستعداد للخروج بالحملة فى موعدها المحدد من قبل. ولذلك أشاحوا بوجههم عن الزلزال الاجتماعى الذى أحدثته حملة الفقراء أو حملة العامة. وكانت مشكلة التمويل هى أكبر المشكلات التى واجهت

= قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ١٦٥ وما بعدها، جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص ١٥٨-١٧٠، زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٥٧-٥٩.

(٣٤) Ekkhard D'Aura, in Peters (ed.), pp. 100-101; Albert d'Aix, pp. 99-100; William of Tyre, p. 112; Duncalf, "Clermont to Constantinople", pp. 262-265.

الأمراء والفرسان، وكان على كل منهم أن يبحث عن حل لهذه المشكلة بطريقته الخاصة. وفى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م كانت جيوش الفرسان متأهبة للرحيل صوب فلسطين. وتكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساس من الروابط الإقطاعية من جهة ثانية.

فقد تولى جودفرى البويونى (Godfrey de Bouillon) قيادة الجيش الذى جمعه من اللورين، شمال فرنسا، والألمان واشترك معه أخوة بلدوين.[٣٥] وتولى روبرت دوق نورماندى (Robert Duke of Normandy)،[٣٦] وزوج أخته ستيفن كونت بلوا (Stephen of Blois) قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا ونورماندى وبعض مناطق الشمال، فضلا عن الكثير من الفرسان الإنجليز من أتباع أخيه الملك الإنجليزى وليم روفوس. أما الجيش الثالث فكان تحت قيادة ريمون الرابع كونت تولوز (Raymond Iv of Toulouse)[٣٧] الذى كان يقترب من الستين من عمره. وقد تألف جيشه من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال. وكان فى صحبته أديمار أسقف لوبوى، والمندوب البابوى فى هذه الحملة. أما أصغر الجيوش فكان جيش هيو كونت فرماندوا (Hugh Count of Vermandois) المعروف باسم «الأشغر– Le Masne»[٣٨]، وهو شقيق

---

(٣٥) تكونت حول شخصية جودفرى أسطورة بعد نجاح الحملة الصليبية، وكان المؤرخ وليم الصورى هو الذى نقل لنا صورة كاملة عن هذه الأسطورة، أنظر :

William of Tyre, I, pp. 116-120.

وعن رحلة جيش جودفرى وأخيه بلدوين، أنظر أيضاً :

Chronique de Zimmern, AOL, II, pp. 17-28.

وعن قصة حياة جودفرى الحقيقية منذ صار كونت اللورين الأدنى سنة ١٠٨٧م، أنظر :

Mayer, The Crusades, p. 45; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 145-47.

(٣٦) Fulcher de Chartres, pp. 74-78.

(٣٧) Raymond d'Aguilers, in Peters (ed.), The First Crusade, pp. 181-211. William of Tyre, I, pp. 139-141.

(٣٨) ترجمت هذه الكلمة، وهى كنية هيو بصورة عكسية حتى فى زمانه إلى «الكبير» (Magnus)، ولعل القارئ سيلاحظ هذا الاختلاف عندما يقرأ عن هذا الرجل فى كتب أخرى عن الحروب الصليبية، أنظر :

Runciman, A Hist. of the Crusades, I, p. 142.

فيليب الأول ملك فرنسا آنذاك.[٣٩] وكان جيشه هو أول الجيوش الصليبية فى الوصول إلى الأراضى البيزنطية . وثمه جيش خامس قاده بوهيموند النورمانى،[٤٠] ابن روبرت جويسكارد، تألف من المقاتلين النورمان الأشداء فى جنوب ايطاليا.

كان هيو أول الراحلين، كما كان أول من وصل إلى الأراضى البيزنطية وقد أرسل قبله وفدا من خمسة وعشرين فارسا يحملون رسالة تفيض غطرسة وغرورا إلى الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس، يحذره فيها وينبهه إلى وجوب مقابلته بما يليق بمكانته العلية.[٤١] وعندما وصل هذا الأمير إلى الأراضى البيزنطية كان قد بقى معه عدة شراذم من جيشه الذى أهلكته عاصفة بحرية. واستقبله القائد حنا كومنينوس ابن أخى الإمبراطور البيزنطى بعد ما انتشله ضباطه من البحر، فأكرم وفادته، وأرسله الى القسطنطينية فى حراسة واحد من الموظفين البيزنطيين الكبار.

لقد استولت الدهشة على الإمبراطور البيزنطى من كبر حجم الجيوش الصليبية لأنه كان يتصور أن تجيئه فرق من المرتزقة الذين تعود البيزنطيون أن يجندوهم فى خدمتهم، ولكنه إذ كان عاجزا عن أن يفعل شيئا فإنه قرر أن يفيد من الموقف بأقصى مايمكن. ولم يكن لديه أدنى قدر من التسامح فى مسألة عدم السماح للقوات الصليبية بدخول مدينته، ومن ثم فقد سمح لهم بأن يضربوا خيامهم فى ضواحى المدينة. ولم يسمح سوى للقادة وعدد قليل من مرافقيهم بالدخول إلى العاصمة الإمبراطورية، وقد حرص على أن يستعرض أمامهم عظمة البلاط البيزنطى، قاصدا أن يجعلهم فى دهشة وانبهار مشوب بالطمع فى مظاهر الثراء الذى تميزت به الإمبراطورية.

---

(٣٩) Anna Comnena, Alexiade, pp. 313-315.

(٤٠) يذكر المؤرخ المجهول ما يفيد أن النورمان فى جنوب ايطاليا لم يعرفوا بأمر دعوة البابا أربان لشن حملة صليبية إلا فى مرحلة متأخرة عندما وصلت جيوش الفرنج من فرنسا إلى إيطاليا فى طريقها إلى فلسطين. وأدرك بوهيموند أهمية هذه الحركة وسارع إلى الانضمام إليها - أنظر :
Gesta Francorum, pp. 7-12.

(٤١) Anna Comnena, p. 314; AOL, I, pp. 121-122, 145; Hagenmeyer "Chronologie", p. 248.

لقد آثر اليكسيوس كومنينوس أن يتعامل مع قادة الصليبيين بشكل انفرادى، واتفق مع كل منهم على حدة. وتنوعت أساليبه فى التفاهم معهم ما بين إغراقهم بالهدايا، أو قطع المؤن والإمدادات عنهم، أو القتال، حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعا على يمين الولاء باستثناء ريمون السانجيلى الذى أقسم بحماية شرف الإمبراطور البيزنطى وحياته.

وكان هيو أول من أقسم يمين الولاء للإمبراطور على الطريقة الإقطاعية.[٤٢] ثم وصل جيش جودفرى البويونى إلى القسطنطينية بعد أن عبر بلاد المجر دون مشاكل تذكر، بعد أن أخذ الملك المجرى الكونت بلدوين وعدد آخر من كبار الفرسان فى جيش جودفرى رهينة وضمانا لحسن سلوك الصليبيين. وعندما وصل جودفرى كانت فى انتظاره دعوة من الإمبراطور تحثه على اللقاء، وخاف الزعيم الصليبى فأخذ يراوغ، ويماطل، وتوترت العلاقات بين الجانبين حتى وصلت إلى القتال.. ولكن الدوق رضخ فى نهاية الأمر، ورضى بأن يقسم يمين الولاء للإمبراطور.[٤٣]

أما بوهيموند زعيم النورمان فى جنوب ايطاليا، فقد بدأ رحلته بعبور البحر الأدرياتى فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م . وفى القسطنطينية لقيه الإمبراطور البيزنطى عدوه اللدود بترحاب كبير. ولم يجد الإمبراطور صعوبة تذكر فى إقناع هذا الأمير النورمانى الطموح بأن يقسم له يمين الولاء.[٤٤]

---

(٤٢) Anna Comnena, p. 315; Fulcherde Chartres, p. 72.

(٤٣) تفاصيل هذه الأحداث ترويها المصادر المعاصرة، وتحللها دراسات المؤرخين المحدثين، راجع : Anna Comnena, pp. 318-323; Gesta Francorum, pp. 6-7; Albert D'Aix, in Peters (ed.), pp. 125-131; William Tyre, I, pp. 120-132; Chronique de Zimmern, 21-27; Hagenmeyer "Chronologie", pp. 246-268, 269, Mayer, The Crusades, p. 48; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 149-154.

(٤٤) المصدر الأساسى لرحلة بوهيموند هو المؤرخ المجهول الذى كتب «أعمال الفرنجة» وقد كان فارساً من أتباع بوهيموند. وأمدنا بوصف حى للقاء الامبراطور والأمير النورمانى، على حين قدمت لنا آنا كومنينا، ابنة الامبراطور، الوجه الآخر من وجهة النظر البيزنطية - أنظر : =

أما ريمون السانجيلي، كونت تولوز المسن، فكان يقود أكبر جيوش الحملة الصليبية الأولى، وكان يصاحبه أديمار المندوب البابوى. وعندما دخلت قواته الأراضى البيزنطية بعد رحلة مضنية فى إقليم البلقان، تأرجحت العلاقات بين الكونت الصليبى المسن والإمبراطور البيزنطى الداهية، بين القتال والمفاوضات، وأخيرا نجح زعماء الصليبيين فى تهدئة خاطر ريمون، فأقسم على طريقة البروفنسال أن يحمى شرف الإمبراطور وحياته، ولكنه لم يوافق أبدا على أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل الأمراء الصليبيون الآخرون.[٤٥] ثم وصل جيش روبرت دوق نورماندى وبصحبته ستيفن كونت بلوا بعد وصول جيش البروفنساليين بقيادة ريمون السانجيلى بعدة أيام.

كانت هذه هى نهاية المرحلة الأولى من حملة الفرسان، وقد آثرنا أن نعالجها بشىء من التفصيل لأنها كانت بمثابة صدام حضارى وسياسى بين البيزنطيين ورجال الحملة الصليبية الذين زعموا أنهم جاءوا لنجدتهم. لقد كان ذلك هو لقاء الصليبيين الأول مع الشرق. فقد كانت مدينة القسطنطينية الجميلة بوابة الشرق والمدخل الكبير الى هذا الشرق الساحر الغامض.

ثم بدأت عجلة الحرب تدور بعد أن بدأت قوات الصليبيين تعبر مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى. وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم فى "أرض العدو" للمرة الأولى. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من حملته. واعتذر الإمبراطور البيزنطى عن قبول العرض الصليبى بقيادة

= Gesta Francorum, pp. 6-13; Anna Comnena, pp. 326-329.

راجع أيضاً :

William of Tyre, I, pp. 135-138; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 272, 281; Runciman, "Constantinople to Antioch", pp. 270-272.

(٤٥) كان ريمون أول من أخذ شارة الصليب فى كليرمون، وكان متديناً مخلصاً، ولذلك حاز إعجاب آنا كومنينا التى أثنت عليه كثيراً – أنظر :

Anna Comnena, pp. 329-331; Gesta Francorum, p. 13; Raymond d'Agueiler, in Peters (ed.), pp. 140-142; William of Tyre; I, pp. 139-146.

الحملة، ولكنه زود الجيش الصليبى بعدد من الأدلاء والمرشدين، وأرسل معهم بعض ضباطه، كما ظل يرسل إليهم المؤن والإمدادات عن طريق البر والبحر.

وفى السادس من شهر مايو سنه ١٠٩٧م وصلت جيوش الحملة الصليبية أمام مدينة نيقية فى آسيا الصغرى ، وكانت فى ذلك الحين عاصمة دولة سلاجقة الروم التى يحكمها قلج أرسلان. وكانت المدينة تتحكم فى الطريق الأساسى عبر الأناضول ، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية والبيزنطية حول المدينة التى كان حاكمها غائبا. وحين عاد فى الواحد والعشرين من الشهر نفسه شن هجوما على قوات الحصار لكنه رد خائبا. وفى التاسع عشر من يونيو استسلمت المدينة لقوات الإمبراطور البيزنطى خوفا من وحشية الصليبيين.[٤٦] وكان النصر الذى أحرزوه فى نيقية حافزا للصليبيين على مواصلة الزحف جنوبا صوب فلسطين.

وعوض الإمبراطور قادة الصليبيين وجنودهم بالهدايا التى أغدقها عليهم بدلا من الغنائم والأسلاب التى كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة. ثم انقسم جيش الصليبيين إلى قسمين : ضم أحدهما بوهيموند، وتنكرد، وروبرت أمير نورماندى على حين ضم القسم الآخر ريمون السانجيلى، وأديمار المندوب البابوى، وهيو، وروبرت كونت الفلاندرز. وفى بداية شهر يوليو ١٠٩٧م اصطدمت قوات الصليبيين بقوات قلج أرسلان المتحالفة مع قوات غازى بن الدانشمند، وانتهى القتال بنصر حاسم لصالح الصليبيين.[٤٧] وكانت تلك معركة فاصلة حسمت مصير الحملة الصليبية الأولى

---

(٤٦) حول المعارك والأحداث التى انتهت بتسليم نيقية، أنظر :
Gesta Francorum, pp. 13-15; Fulcher de Chartres, pp. 81-83; Raymond d'Agueilers, in Peters, pp. 147-148, Anna Comnena, pp. 333-341; William of Tyre, I, pp. 152-168; Mattieu d'Eddesse Chronique de Mattieu d'Edesse 926-1136 avec la Continuation de Gregoirea le pretre jusqu'en 1163, (traduites par M. Edmond Dulaurier, Paris 1858), pp. 214-216.

(٤٧) Gesta Francorum, pp. 19-22; Fulcher de Chartres, pp. 83-87; William of Tyre, I, pp. 169-173; Runciman, "Constantinople to Antioch", pp. 293-294; mayer, The Crusades, pp. 50-51.
=

إلى حد بعيد، إذ توقفت كل مقاومة إسلامية منظمة منذ ذلك الحين .

لقد بهت المسلمون بوصول هذه القوات الصليبية، ولكنهم كانوا قادرين على إبادتها. بيد أن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة، والذى غرسته وأنبتته طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة قوات الصليبيين. ولكن الصليبيين من ناحية أخرى لم يكونوا فى نزهة عسكرية، فقد كلفتهم المقاومة التى اتخذت شكلا يقترب من حرب العصابات كثيرا من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السريعة من رماة السهام، والتى كانت تشيع الرعب فى أوصال الصليبيين. أما المناخ فكان عدوهم الرئيس، لاسيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام ونفاذ المياه.[(٤٨)]

وفى الطريق إلى أنطاكية انفصل بلدوين بقواته عن الجيش الصليبى، وكذلك فعل تنكرد النورمانى. وراح الإثنان يبحثان عن فرص للمغامرة ويسعيان لتحقيق مكاسب خاصة بكل منهما، وقادهما التنافس فى هذا المضمار إلى القتال الوحشى أمام مدينة المصيصة فى أعالى الشام،[(٤٩)] ثم استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على إمارة الرها التى كان حاكمها الأرمنى« ثوروس » قد تبناه، ورد له الأمير الصليبى الجميل... إذ اشترك فى مؤامرة راح الحاكم الأرمنى المسن ضحية لها.[(٥٠)] وهكذا رفرف بيت أمراء

= أنظر أيضاً : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ (الطبعة الثانية - دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٦٧)، جـ٨، ص١٨٦، حوادث سنة ٤٩٠ هجرية. وقد أشار إلى انتصار الفرنج على قلج أرسلان فى عبارة مقتضبة، قارن، ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٤.

(٤٨) راجع ما كتبه فوشيه عن مشاق الطريق من ضوروليوم إلى قونية فى صيف عام ١٠٩٧م، وكذلك ما كتبه الفارس المجهول :

Fulcher de Chartres, pp. 87-88; Gesta Francorum, p. 28.

(٤٩) William of Tyre, I, pp. 184-186.

(٥٠) Fulcher de Chartres, pp. 89-91; Mattieu d'Eddesse, pp. 217-218; William of Tyre, I, pp. 189-194; Hagenmeyer, "Chronologie de la premiere Croisade", pp. 532-533; Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 204-208; Mayer, the Crusades, pp. 52-53.

اللورين الأدنى على أول إمارة صليبية فى الشرق العربى. وكانت هذه الكونتية الصليبية تسيطر على مساحة من الأرض تمتد شرق نهر الفرات وغربه، أما سكانها فكانوا فى أغلبيتهم من الأرمن. وتمثلت أهميتها فى أنها لعبت دور الدولة الحاجزة فى الشمال الشرقى بحيث تلقت الهجمات الأولى بدلا من الإمارات الأخرى والمملكة الصليبية التى قامت فى جنوب بلاد الشام وفلسطين.. وهنا قبع بلدوين فرحا بما حققه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الصليبيين الرئيس الذى كان لايزال يحث الخطى نحو أنطاكية.

لقد أفاد الصليبيون كثيرا من التشرذم السياسى للحكام العرب والسلاجقة فى المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم فى آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم فى بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات[٥١] ولابد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذى تعودوا عليه. أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا أبدا فى مساعدة السلاجقة السنة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة ، كما سنرى.

كانت هذه ظروفا سياسية مثالية للتقدم الصليبى. وبالفعل واصل الصليبيون مسيرتهم حتى مدينة أنطاكية ذات الموقع الجميل بالقرب من البحر على منحدر يؤدى إلى وادى نهر العاصى الخصيب، والتى كانت ذات مرة درة فى تاج الإمبراطورية الرومانية القديمة.

---

(٥١) فى سنة ٤٩٠ هجرية/ ١٠٩٧م، وبعد أن كان الصليبيون قد دخلوا المنطقة بالفعل هاجم جيش مصرى مدينة صور وفتحها عنوة، وأخضعها للفاطميين، كما نشبت حرب أخرى بين دقاق حاكم دمشق، وأخيه رضوان أمير حلب الذى استعاد ياغى سيان أمير أنطاكية. أنظر : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٢-١٨٥؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٣-١٣٤.

وفى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٩٧م بدأ الصليبيون يفرضون الحصار على أنطاكية. وطال الحصار وبدأت معاناة الصليبيين، ففى عيد الميلاد فى نهاية ذلك العام كانت المجاعة قد أنشبت مخالبها فى معسكرهم، واتفق الزعماء على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة. ومن ناحية أخرى، كان المسلمون من العرب والأتراك قد أخذوا ينظمون وسائل الدفاع عن أملاكهم. وهكذا بات الصليبيون فى مأزق حقيقى لأن فرق السلب والنهب لم تجد ما تنهبه، كما أن المسلمين قضوا على فرق كاملة منها.[٥٢] وفى غمرة البؤس الذى حاق برجال الجيش الصليبى حاك بوهيموند المؤامرة التى رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه التى جعلته ينضم إلى الحملة الصليبية، أى بناء إمارة نورمانية فى الشرق العربى. ولعب النورمانى الداهية بأعصاب الفرنج، فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافقوا على منحه حكم أنطاكية، ووافق الزعماء المذعورون على ذلك، لأن الكثيرين من أفراد جيش الرب كانوا قد بدأوا يهربون، ومنهم ستيفن كونت بلوا، بطرس الناسك «نبى الحركة الصليبية»، وداعيتها المفوه.[٥٣]

وكان بوهيموند قد تآمر مع أحد الأرمن على فتح البرج الذى يتولى حراسته من أبراج أنطاكية.[٥٤] وتحت جنح الليل تم تنفيذ المؤامرة وسقطت المدينة، ولكن القلعة

---

(٥٢) كان قوام كل فرقة من هذه الفرق أحياناً يصل إلى ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد :
Raymond d'Agueiler, in Peters, pp. 160. ff; William of Tyre, I, pp. 204-220; Hagenmeyer, "Chronologie", pp. 514-516, 529-530.

(٥٣) Gesta Francorum, pp. 28-33.

(٥٤) Gesta Francorum, pp. 63-65; Fulcher de Chartres, pp. 97-f. William of Tyre, I, pp. 274-278; Hagenmeyer, "Chronologie", ROL, VII, pp. 283-284.

وقد ذكر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص١٨٦) أن الخائن كان «زرادا» اسمه زوربه، أما ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥-١٣٦) فذكر أن قوما من أهل أنطاكية من حملة الأمير ياغى سيان من الزرادين «... عملوا على أنطاكية وواطوا الفرنج على تسليمها لهم، لإساءة تقدمت منه فى حقهم ومصادرتهم...»، على حين يذكر ابن العديم فى حوادث سنة ٤٩١ هجرية (زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ١٣٣-١٣٤) أن ذلك الرجل كان يحمل ضغينة ضد ياغى سيان لأنه صادر أمواله.

صمدت فى مواجهة الهجوم الصليبى. وفى اليوم التالى مباشرة، أى الرابع من يونيو ١٠٩٨م شن جيش الإنقاذ الإسلامى الذى جاء من فارس بقيادة كربوقا هجوما سريعا، لكنه فشل فى انقاذ المدينة. وفى الداخل بدأت متاعب الحصار المزدوج بالنسبة للصليبيين. وبدا أن الصليبيين بحاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة... ولم يتأخر رجال الكنيسة فى تلفيق هذه المعجزة، إذ خرج قسيس بروفنسالى على الصليبيين بحكاية عن رؤية مقدسة أخبرته عن مكان الحربة التى طعن بها المسيح منذ أحد عشر قرنا من الزمان، وربط بين العثور على هذه الحربة وبين النصر. وبطبيعة الحال تم العثور على هذه الحربة فى سهولة.(٥٥) وقد أدت هذه الحادثة إلى رفع معنويات الفرنج كثيرا. وعندما اصطدموا بجيش كربوقا، الذى مزقته الإنقسامات، تمكنوا من هزيمته... ولم يكن هناك جيش إسلامى آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس.

تسلم بوهيموند قلعة أنطاكية من قائدها أحمد بن مروان، وحين توقفت الحرب تجلى الإفلاس الأيديولوچى للحركة الصليبية، وتجسد فى بؤرة شريرة من الصراعات والدسائس والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين زعماء الصليبيين. فقد تحدى ريمون السانجيلى بوهيموند النورمانى، صاحب الفضل فى أخذ المدينة بالخيانة والذى ادعى أن المدينة حق خالص له. وقرر الزعماء تأجيل السير إلى بيت المقدس حتى أواخر سنة ١٠٩٨م.(٥٦) ثم تفرقوا، وأخذ كل منهم يحاول تحقيق بعض المكاسب الشخصية. واستولى ريمون السانجيلى على أحد أبراج مدينة أنطاكية، ولكن بوهيموند طرده منه بالقوة...(٥٧)

---

(٥٥) Raymond d'Agueiler, in Peters (ed.), The First Crusades, pp. 166-168, 174-175, 178-185, 189-194.

أنظر أيضاً : زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٩٣-١٠٧.

(٥٦) Fulcher de Chrtres, pp. 98-107; Gesta Francorum, pp. 43-71.

(٥٧) Gesta Francorum, pp. 74-82; William of Tyre, I, pp. 298-313; Mayer, The Crusades, pp. 57-58.

وهكذا قامت الإمارة الصليبية الثانية على أرض الشرق، فى مطلع سنة ١٠٩٩م.

وفى تلك الأثناء كانت تجرى تغيرات هامة فى الجانب الإسلامى، إذ كانت الخلافة الفاطمية فى مصر قد أفاقت من الصدمة التى سببتها الهجمات السلجوقية الأولى على أملاكها فى بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، ظن الفاطميون أن بوسعهم الإفادة من الهجوم الصليبى. وكان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالى وزيرا للخليفة الفاطمى المستعلى. وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام، ولم تثمر هذه المحاولات شيئا.[٥٨] وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأى سلطات. ولم يدرك الفاطميون حقيقة أهداف الصليبيين. ولاشك فى أنهم ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبى مجرد مرتزقة فى خدمة البيزنطيين.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة فى شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا (كربوقا) فى أنطاكية أدرك أن السلاجقة ليسوا فى وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد. وشن هجومه على فلسطين التى كانت فى حوزة سقمان وايلغازى ولدى أرتق، وكانا يدينان بالولاء لأمير دمشق دقاق. وفى سنة ٤٩٢ هجرية (١٠٩٩م)، استولى على القدس.[٥٩]

وفى شمال بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة ترقب انهيار السلاجقة فى سرور، ولم يتدخل أحد لإنقاذ أنطاكية، ويذكر ابن الأثير ما نصه : .... «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم لانطلب سواها، مكرا منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية...».[٦٠] وإذا

---

(٥٨) Runciman, A Hist. of the Crusades,I, pp. 229-230.

(٥٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٩؛ ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥، والجدير بالذكر أن ابن القلانسى يذكر ذلك ضمن حوادث سنة ٤٩١ هجرية.

(٦٠) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص١٨٦.

كان رضوان ودقاق - وهما من السلاجقة - قد اتخذا هذا الموقف فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحا.

على أى حال، كانت هذه هى الحال قبل أن يواصل الصليبيون زحفهم إلى بيت المقدس. ويبدو أنهم استطابوا العيش فى بلاد الشام وأنطاكية، فركنوا إلى الدعة فترة من الوقت. وثارت بين عامة الصليبيين مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب القدس، هدف الرحلة النهائى. وهدد العامة بعزل ريمون السانجيلى وإحراق أنطاكية. وهنا تذكر القادة هدف رحلتهم. وبعد مرور تسعة أشهر أو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة القدس. وكان ذلك فى شهر يناير من سنة ١٠٩٩م.[٦١]

وتحرك ريمون من معرة النعمان[٦٢] على رأس قواته وهو حافى القدمين وقد ارتدى ملابس الحجاج.[٦٣] وتحرك جيشه جنوبا بحذاء منحدرات جبل النصيرية. وتم زحفه دون مشاكل لأن الأمراء المحليين كانوا غاية فى الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشيا لهجوم الصليبيين عليهم. وبعد ما حدث فى أنطاكية قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبى. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلى، ثم انضم جودفرى وتنكرد وبوهيموند إلى الجيش الزاحف جنوبا، ثم تركهم مرة أخرى وعاد إلى أنطاكية

(٦١) Gesta Francorum, pp. 74-82; William of Tyre, I, pp. 298-315.

(٦٢) استولى الصليبيون على معرة النعمان سنة ٤٩٢هـ، ١٠٩٩م، وقد غدروا بأهلها بعد أن أعطوهم الأمان وارتكبوا واحدة من مذابحهم البشعة أنظر: ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦-١٣٧؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٧-١٨٨. وقد ذكر ابن الأثير أن هذه المعركة وقعت سنة ٤٩٢هـ. وقد ذكر رنسيمان أن المدينة سقطت فى ديسمبر ١٠٩٨م - أنظر:
Runciman, A Hist. of the Crusades, I, pp. 257-258.

(٦٣) Mayer, The Crusades, pp. 58-59.

حاكما بلا منازع. وقد استولى الصليبيون فى طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذى كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية وتوغل الصليبيون فى الأراضى الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبيى إلا بعد فوات الأوان.. وأخيرا صافحت القدس عيون الصليبيين.

كان الفصل الأخير فى الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذى فرضه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع : من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م.(٦٤) ولم يكن هناك ما يلائم هذا الموقف سوى تلفيق بعض أخبار الرؤى والأحلام المقدسة، كما أشيع عن اشتراك القديس جورج في القتال ضد المسلمين. وفى يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م (٢٢ شعبان ٤٩٢هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحامية الفاطمية «افتخار الدولة» وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة فى شوارع القدس عدة أيام.

وفى هذا الجو الموحش الكئيب، اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر. وهكذا تم زرع الكيان الصليبى فى الشرق العربى.

---

(٦٤) عن الرحلة من أنطاكية ومعرة النعمان حتى سقوط القدس، أنظر :

Fulcher de Chartres, pp. 115-128; Raymond d'Aguielers in Peters, (ed.), The First Crusade, pp. 195-218; Gesta Francorum, pp. 84-92; William of Tyre, I, pp. 298-378; Runciman, A Hist. of the Crusades, pp. 59-62; Runciman, "The First Crusade: Antioch to Ascalon", in Setton, I, pp. 308-337.

أنظر أيضاً : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٩. وقد وصف ذهاب جماعة من أهل الشام إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهدوى، ولكن الخليفة العباسى لم يفعل شيئاً، كما أورد قصيدة فى رثاء حال المسلمين لأبى المظفر الأبيوردى مطلعها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرصة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

أنظر أيضاً : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦-١٣٧؛ سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٩-١٩٧؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص ٢٦٣-٢٦٨؛ زابوروف الصليبيون فى الشرق، ص ١١٩-١٢٤.

وعندما خفت شهوة القتل لدى الصليبيين كانت أولى المهمات التى واجهتهم هى مواراة الجثث التى فاحت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة، أو التخلص منها بطريقة ما.(٦٥) ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة، واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكى يقرروا ما ينبغى عمله فى هذا الصدد. فقد كان واضحا أنهم حين تركوا أوروبا سنة ١٠٩٦م لم تكن لديهم فكرة واضحة عما سيفعلونه بالقدس بعد الاستيلاء عليها. كما أن البابا أربان الثانى (الذى مات قبل أن يعرف بخبر الاستيلاء على القدس) لم يحدد للصليبيين نظام الحكم فى المدينة المقدسة. على أى حال، فإن المناورات السياسية بين دايمبرت أسقف بيت المقدس الجديد والطموح ريمون السانجيلى. وجودفرى البويونى انتهت باختيار الأخير حاكما لبيت المقدس تحت لقب فضفاض هو «حامى الضريح المقدس Advocatus Sancti Sepulchri».(٦٦) وكان هذا الحل الوسط فى حقيقة الأمر هروبا من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم فى الدولة الوليدة.

وفى ١٤ رمضان سنة ٤٩٢هـ (١٢ أغسطس ١٠٩٩م) كان الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش المصرية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين، ولكنه فضل الانتظار قرب عسقلان حتى قدوم الأسطول، ولكن القادة الصليبيين فاجأوه قرب عسقلان بعد أن اتحدت جهودهم مرة أخرى، وأخيرة. وأخذ المصريون على غرة وهزموا، ثم عاد الأفضل إلى مصر.(٦٧) وبهذه المعركة تم تأمين الوجود الصليبى فى بيت المقدس إلى حين.

---

(٦٥) ذكر فوشيه أن الصليبيين أخذوا يحرقون جثث القتلى من المسلمين على أمل أن يجدوا فى رمادها الذهب الذين ظنوا أنهم خبأوه فى أجسادهم :
Fulcher de Chartres, pp. 122-123; Mayer, The Crusades, p. 61.

(٦٦) Fulcher de Chartres, pp. 124-125; William of Tyre, I, pp. 379-383.

(٦٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص١٩٠؛ سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٠٦-٢١٠.
Fulcher de Chartres, pp. 125-128; William of Tyre, I, pp. 393-397; Runciman, "Antioch" in Setton, I, pp. 340-341.

وهكذا أسفرت الحملة الأولى عن قيام مملكة وإمارتين صليبيتين فى الرها وأنطاكية، ثم لم يلبث ريمون كونت سانجيل أن أسس إمارة أخرى فى طرابلس سنة ١١٠٩م.

وهكذا، كانت نتيجة النصر الذى أحرزته الحملة الصليبية أن تأسست إمارتان ودولة صغيرة لم تلبث أن تحولت إلى مملكة. ففى الثامن عشر من يوليو عام ١١٠٠م مات جودفرى البويونى أثناء محاولته مد نفوذه فى السهل الساحلى بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا فى الإفادة من النصر الصليبى فى شرق البحر الأبيض المتوسط.[٦٨] وتم استدعاء بلدوين من إمارته فى الرها ليتولى حكم بيت المقدس. وفى الخامس والعشرين من ديسمبر تم تتويجه.[٦٩] وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية.

كانت المملكة فى ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا، واللد، والرملة، وبيت لحم، والخليل، كما كان لها ظهير ريفى تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا مثل : روبرت دوق الفلاندرز، وروبرت النورمانى إلا أن العدد الأكبر من القادة ظلوا فى المنطقة العربية حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم كانوا أقل كثيرا فى عددهم من المسلمين والعرب،[٧٠] أصحاب البلاد، فقد حاولوا قدر الطاقة أن

---

(٦٨) Fulcher de Chartres, p. 136; William of Tyre, I, pp. 413-414.

(٦٩) يصف فوشيه دى شارتر مصاعب الرحلة التى قام بها بلدوين من الرها إلى بيت المقدس، وكيف تعرض فى الطريق لهجوم المسلمين، وكيف أنهم كادوا يهلكون فى معركة قرب بيروت فى ٢٦ أكتوبر ١١٠٠م، كما يوضح أن حكام بيروت، وصور، وصيدا، وعكا، قد أظهروا الصداقة، «ولم يكن فى قلوبهم شئ منها».

Fulcher de Chartres, pp. 137-145; 148-150.

(٧٠) لم تكن القوات العسكرية فى مملكة بيت المقدس اللاتينية، عند وفاة جودفرى تزيد عن ألفين من المشاة وثلاثمائة فارس.

أنظر : زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ١٢٦؛ Mayer, The Crusades, pp. 63-64.

يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذى أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربى رغبة فى الحصول على نصيب من المغانم التى شاعت أخبارها فى الغرب الأوروبى مع العائدين من فلسطين.

عندما صار بلدوين ملكا على بيت المقدس سنة ١١٠٠م لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفى لتثبيت أركان المملكة، إذ كانت معظم الموانئ البحرية الهامة لاتزال بأيدى المسلمين، كما أن الأراضي التى استولى الصليبيون عليها كانت لاتزال بحاجة إلى دعم. وقد أدرك فوشيه دى شارتر، المصدر الأساسى لعمليات الاستيطان الصليبية الأولى، هذه الحقيقة إذ قال : «وفى بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة ويحكم شعبا صغيرا.. ».[٧١] كما كرر القول نفسه فى مكان آخر في كتابه : « .. ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة فى السكان، ولم يكن هناك من الناس ما يكفى للدفاع عنها ضد المسلمين إذا فكروا فى الهجوم علينا.. ».[٧٢] بيد أن الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة «لمساعدة المؤمنين فى جيش الرب» كانت فى ذلك الحين تحقق نجاحا ملحوظا.

وكان أربان الثانى يواصل نشاطه منذ رحيل الجيوش الصليبية من غرب أوروبا عام ١٠٩٦م حتى وافته المنية فى ٢٩ يوليو ١٠٩٩م، قبل أن يعرف خبر استيلاء الحملة الصليبية على بيت المقدس. وكان خليفته راهبا شابا اعتلى العرش البابوى فى ١٤ أغسطس سنة ١٠٩٩م تحت اسم البابا باسكال الثانى. وقد أدار هذا البابا عملية دعائية نشطة لمساعدة الصليبيين الذين نجحوا فى إقامة مملكة وإمارتين فى بلاد المسلمين.

---

(٧١) Fulcher de Chartres, p. 148.

(٧٢) Ibid, p. 149.

وفى سنة ١١٠١م كانت حملة جديدة قد تجمعت فى الغرب الأوروبي لمساعدة صليبيى الشرق.(٧٣) ومن لمبارديا قاد آنسلم أسقف ميلانو جموعا من اللمبارديين تشبه جيش بطرس الناسك وكانوا يتحرقون شوقا للرحيل، فغادروا ميلانو فى ١٣ سبتمبر من هذا العام، وسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا فى إثارة المتاعب الصليبية المعتادة، ولم يجد الامبراطور أليكسيوس كومنينوس بدا من نقلهم إلى آسيا الصغرى، وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية، ثم الجيوش الفرنسية تحت إمرة ستيفن كونت بلوا الذى هرب أثناء أحداث الحملة الأولى من أنطاكية.(٧٤)

وفى تلك الأثناء كان بوهيموند أسيرا لدى أمير سيواس الملك الغازى بن الدانشمند، وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره. ولكن السلاجقة، الذى علمتهم أحداث الحملة الأولى درسا قياسيا، كانوا يعون الدرس جيدا هذه المرة فاتحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة. وأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازى أمير سيواس على الصليبيين الذين تبدد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا إشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الامبراطور البيزنطى، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس.(٧٥)

---

(٧٣) الدراسة الوحدية التى نعرفها حتى الآن هى دراسة جيمس كيت - أنظر :
James Lea Cate, "The Crusade of 1101", in Setton, vol. I, pp. 343-367.
وللباحث نفسه دراسة أخرى حول هذا الموضوع تتناول سيرة أحد قادة الحملة وهو وليم التاسع دوق أقطانيا (Aquitaine) الذى كان رجلا مرحاً يغنى أغانى التروبادور كما كان شاعراً - أنظر :
J.L. Cate, "A Gay Crusader", Byzantion, XVI (1942-1943) pp. 503-526.

(٧٤) زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ١٢٧-١٢٩؛
Anna Comnena, pp. 355-6.

(٧٥) عن أحداث حملة ١١٠١م الصليبية، أنظر :
Fulcher de Chartres, pp. 164-166; Anna Comnena, pp. 355-357; William of Tyre, I, pp. 430-433; Mayer, The Crusades, pp. 69-70; Runciman, A Hist. of the Crusade, vol. II, pp. 18-31; =

ومن ناحية أخرى بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم فى الأراضى والموانئ التى كانت تفصل، أو تصل، بين النقاط المتناثرة التى استولوا عليها، وفى بطء عنيد بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدى لهم تماما. ففى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية، وكان الجنويون بأساطيلهم خير عون لهم فى هذا الهجوم.[(٧٦)]

وحاول الفاطميون فى السنة التالية أن يشنوا هجوما مضادا على الصليبيين، ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة خسائر الصليبيين.[(٧٧)] ثم استولى تنكرد من البيزنطيين على اللاذقية سنة ١١٠٣م.[(٧٨)]

وعبثا حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئا، وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون فى سهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى هذا الوضع السلبى بقوله :«... لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء...»[(٧٩)]. وفى

= ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٢١١. والإشارة التى يوردها غامضة. والجدير بالذكر أن هذه الحملة الصليبية عرفت فى أدبيات الغرب الأوروبى باسم «صليبية ذوى القلوب الضعيفة» لأن معظم قادتها كانوا ضمن الحملة الأولى، ثم هربوا.

(٧٦) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٨-١٣٩؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٠٤.

(٧٧) نجا بلدوين الأول فى هذه المعركة التى جرت سنة ٤٩٥هـ بصعوبة بالغة وفر إلى الرملة، ابن القلانسى، ص ١٤١؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ٢١٢؛
Fulcher de Chartres, pp. 167-170

(٧٨) Anna Comnena, Alexiade, pp. 357-358.

(٧٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٢١.

سنة ١١٠٤م ملك الصليبيون عكا، ثم ملكوا طرابلس بعد حصار دام سبع سنوات مات أثنا ءها ريمون السانجيلى، وقد أظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار جلدا وصبرا شديدين طوال سنوات الحصار. وأخيرا سقطت المدينة سنة ١١٠٩م(٨٠)، وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وأنطاكية، فضلا عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها لم تتوقف المقاومة الإسلامية فى الشمال من جانب السلاجقة الذين نجحوا فى أسر بوهيموند فترة من الوقت، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين، كما نزلت بالصليبيين هزائم عديدة أهمها الكارثة التى حلت بهم في حران. كما أن الفاطميين فى الجنوب استغلوا قاعدتهم فى عسقلان لشن هجمات عديدة ضد الصليبيين في سنوات ١٠٠١م، ١١٠٢م، ١١٠٥م. وقد كلفت تلك الهجمات الصليبيين الكثير من الرجال والأموال. بيد أن بذور الشك والمرارة فى القرن السابق على قدوم الحملة الصليبية منعت أى تنسيق جدى على محور القاهرة/ دمشق. وبعد سنة ١١٠٥م لم يشن المصريون أى هجوم خطير على الصليبيين. بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد على الصليبيين.

فى تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على الساحل كله(٨١) باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكرى لصالح الصليبيين

(٨٠) كان سقوط عكا سنة ٤٩٧ هجرية بعد أن حاصرها الجنويون من البحر والصليبيون من البر :
ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٣-١٤٤؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٣٥.

Fulcher de Chartres, p. 174-176; William of Tyre, I, pp. 454-55.

أما طرابلس فقد كان سقوطها سنة ٥٠٢ هجرية. أنظر :
ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٣؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٥٨-٢٥٩.

William of Tyre, I, pp. 468-497; Fulcher de Chartres, pp. 193-cf.

(٨١) فى سنة ٥٠٤هـ/ ١١١١م استولى الصليبيون على صيدا : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ٨، ص ٢٦٠.

بالشكل الذى أقلق إمارة دمشق.[٨٢] وإزاء الفشل على محور دمشق/القاهرة بدأ أمير دمشق طغتكين (١٠٩٥-١١٢٨م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (٥٠٢-٥٠٧هـ/١١٠٨-١١١٣م) الذى كان يحاول تنظيم تحالف إسلامى كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية.[٨٣] ولكن هذه المحاولات لم تؤت ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية فى بلاد الشام حالت دون ذلك، كما أن السلاطين السلاجقة كانوا أكثر اهتماما بفارس منهم بالبلاد الشامية.

بيد أن العالم الإسلامى بدأ يشهد ظاهرة إيجابية جاءت هذه المرة من بين جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأى عام قوى وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام، وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذى ضيع البلاد وأذل العباد.[٨٤] فقد أخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منغبر المساجد فى فضل القدس الشريف، وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التى تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. ومن ناحية أخرى أثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج الشهيرة مشاعر الاستياء والغضب فى

---

(٨٢) Mayer, The Crusades, pp. 74-75.

(٨٣) فى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م اجتمع جيش كبير بأمر السلطان محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة فى فارس، وكان مكونا من جيش مودود أتابك الموصل. وسكمان صاحب تبريز، والأمير أيلبكى، والأمير زنكى، وعدة أمراء آخرين. وقد تمكنوا من فتح عدة حصون للفرنج، ثم حاصروا مدينة الرها دون طائل. وفى تلك الأثناء هاجم رضوان أمير حلب ممتلكات الصليبيين - أنظر ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٨٤) أشار ابن الأثير إلى بوادر هذه الحركة الشعبية الإسلامية فى حوادث سنة ٤٩٢هـ عندما ذكر ما نصه : «... وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى أبى سعد الهروى، فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا فى الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد...».
أنظر : الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٩.

كل مكان ذهب إليه اللاجئون. لقد أدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاءوا إلى بلادهم بقصد البقاء، وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة.

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس في العالم العربى الإسلامى بسرعة كبيرة، بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأى عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأى والمفكرون. وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين.

فى تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت في معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيموند فى أبوليا سنة ١١١١م، ثم تلاه خليفته تنكرد الذى جعل من أنطاكية إمارة قوية سنة ١١١٢م. وبذلك قوى مركز بلدوين الأول كثيرا بالشكل الذى أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق.[٨٥]

وعلى الجانب الإسلامى كانت تجرى محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين، وقد انتهز مودود، أتابك الموصل، فرصة استنجاد صغتكين به، فجمع جيشا كبيرا لمهاجمة الصليبيين فى فلسطين هذه المرة. ففى سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق، والأمير اياز بن ايلغازى صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبى تماما.[٨٦] بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة من شهر ربيع الثانى من هذه السنة/ أكتوبر ١١١٣م، ثم موت رضوان أمير حلب في جمادى الآخرة من السنة نفسها خفف من وطأة الهجوم الإسلامى على جبهة الشمال.[٨٧]

---

(٨٥) عن تفاصيل هذه الأحداث راجع : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٤.
Runciman, A History of the Crusades, vol. II, p. 124-125; Mayer, The Crusades, pp. 75-77.
والجدير بالذكر أن هذه الهدنة قد عقدت سنة ١١٠٨م.

(٨٦) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٦٦؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧-١٨٨؛ أنظر أيضاً :
Fulcher de Chartres, pp. 205-209; William of Tyre, vol. II, pp. 493-495.

(٨٧) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧-١٩١.

ولم يكن ثمة حادث مهم فى الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس سوى محاولة غزو مصر سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، ولكن مرضا عضالا هاجمه فعاد مسرعا إلى فلسطين ليلقى حتفه.(٨٨) وتنتهى بذلك مرحلة التوسع الصليبى التى قادها هذاالملك. وتبدأ مرحلة التوازن بين الجبهة الإسلامية في الشمال والصليبيين، بحيث يتجه الجانبان إلى الجوانب حيث الخلافة الفاطمية الضعيفة التى يتوسع الصليبيون على حسابها.

وليس بمقدورنا أن نقدم، فى هذه الدراسة، تقريرا تفصيليا لسير الأحداث العسكرية والسياسية، ولكننا نود أن نشير إلى أن البعث الذى شهدته المنطقة العربية الإسلامية لمبدأ الجهاد قد جعل الأحداث تتصاعد فى جبهة الموصل/ حلب كما زادت محاولات توحيد الجهود جدية. وفى ظل هذا البعث الأيديولوجى ظهر عماد الدين زنكى بن آقسنقر، الذى دانت له الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م،(٨٩) ليقود حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية التى بدأها مودود قبله على محور الموصل/حلب. وما لبث عماد الدين زنكى أن صار أقوى حاكم مسلم فى زمانه لأنه طوع قوته وموارده العسكرية فى خدمة المطلب العربى الإسلامى العام؛ أى الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس، والعلماء، والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأى العام القوى المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبى. وفى تصورنا أن عماد الدين زنكى قد جاء استجابة تاريخية للمطلب العربى الإسلامى العام،(٩٠) ومن ثم برزت أتابكية الموصل باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التى يقودها ملك/ مقاتل لكى

---

(٨٨) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٨٤؛
Fulcher de Chartres, pp. 221-222.

(٨٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٩٠) عن عماد الدين زنكى وسيرته وأعماله، أنظر :
ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٣٢٣-٣٦٨؛ جـ٩، ص ٨-١٣.
Hamilton A.R. Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa", in Setton (ed.) A History of the Crusades, vol. I, pp. 449-462.

تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت فى طردهم نهائيا من المنطقة العربية بعد فشل الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية فى التصدى لهم. هذه الدول هى (الزنكيون، الأيوبيون، ثم دولة سلاطين المماليك).

شيئا فشيئا تمكن عماد الدين زنكى من التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفى سنة ٥٢٢ هجرية ملك مدينة حلب وقلعتها، وكان هذا أمر غاية فى الخطورة على الصليبيين فى شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية، وفى العام التالى استولى على حماة. ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص سنة ٥٣٢هـ/١١٤٣م.[٩١] وبذلك صار الطريق ممهدا أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكى أن تستولى على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما فقط.[٩٢] كانت تلك هى أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربى الإسلامى، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت أصداؤها فى كل مكان،[٩٣] إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاما من استيلاء بلدوين البويونى عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربى الإسلامى كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكى تعزيزا لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة، وتدعيما له فى مواجهة النعرات

---

(٩١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٨، ص ٣٥٩.

(٩٢) عن سقوط الرها، أنظر :

ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٨-٩. ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩-٢٨٠؛ علية الجنزورى، إمارة الرها الصليبية (القاهرة ١٩٧٥م)، ص ٣٠١-٣٠٨.

William of Tyre, vol. II, pp. 140-144; Runciman, op. cit., vol. II, pp 234-236; Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa", pp. 460-462; Mayer, The Crusades, pp. 94-95.

(٩٣) علية الجنزورى، المرجع السابق، ص ٣٠٨-٣١٢.

الانعزالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكرى كان سقوط الرها فى يد المسلمين كسبا كبيرا لأنه جعل وادى الفرات كله منطقة إسلامية، كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التى تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما فى الغرب الأوروبى، فعلى الرغم من الحزن الذى عم الناس هناك، إلا أن أحدا لم يحاول أن يجند حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق إلى بلاد البابا ايجينيوس الثالث (١١٤٥-١١٥٣م) بعد أن اعتلى العرش البابوى بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنة ١١٤٥م وسنة ١١٤٩م جرت أحداث هذه الحملة التى عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية.[٩٤] وقد وصلت قوات كل من كونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا (اللذين أخذا شارة الصليب نتيجة سقوط الرها فى أيدى قوات عماد الدين زنكى) إلى المنطقة فى أواخر سنة ١١٤٧م، وبداية سنة ١١٤٨م. وكان مصيرهما هزيمة فادحة على أيدى المسلمين، ونجا الملك الفرنسى من الأسر أو القتل بأعجوبة بعد تمزق جيشه.

أما موقف الصليبيين فى بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لقى مصرعه على يد بعض خدمه غيلة فى السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٩٥] إلا أن جوسلين الثانى أمير الرها فشل فى هجومه على المدينة لاستردادها لأن نور الدين محمود أفشل محاولته. وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عن قدوم جنود الحملة الثانية، ولكن لويس السابع، الذى شغلته إشاعات العلاقة الغرامية بين زوجته اليانور الاكويتانية وريمون أمير أنطاكية، تجاهل الرها وسار

---

(٩٤) William of Tyre, vol. II, pp. 163-183; Mayer, The Crusades, pp. 96-109.
ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٧-٣٠٠.

(٩٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤. ويذكر أن خادمه اسمه بيرنقش وأصله إفرنجى؛ قارن : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٣.

حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث فى فلسطين. وبدلا من محاولته استرداد الرها قام الصليبيون بهجوم آخر ضد دمشق انتهى بالفشل. وعاد كونراد إلى ألمانيا، كماعاد لويس بعد أن مكث فى الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة ١١٤٩م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية الثانية بالفشل، لكنها ألقت بمدينة دمشق بين يدى نور الدين محمود، إذ كان معين الدين أنر حاكم دمشق لايزال يمثل عقبة كؤودا فى وجه محاولات نور الدين لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففى كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يهبون لنجدتها. وعلى الرغم من وفاة معين الدين أنر إلا أن كل ما نجح فيه نور الدين هو نوع من التحالف الهزيل مع دمشق. وفى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م نجح نور الدين محمود فى دخول دمشق برغبة أهلها الذين سئموا ظلم حاكمهم.(٩٦)

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود. وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار نحو مصر التى كانت تعانى الضعف السياسى آنذاك، إذ كانت الخلافة الفاطمية فى الطورالأخير من عمرها عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ أنهكتها الكوارث الطبيعية،(٩٧) والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالى صار الوزراء

---

(٩٦) يذكر ابن القلانسى فى حوادث هذه السنة ما نصه : «... وتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلا فصعد عليه وحصل على السور، ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه واطلعوا علي ما نصبوه على السور، وصاحوا أصحاب نور الدين يا منصور، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره...».
- أنظر : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٧.
أما مجير الدين حاكم المدينة فقد حصل على الأمان.

(٩٧) كانت الشدة المستنصرية التى عرفتها مصر فى حكم الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) من أهم أسباب التدهور الاقتصادى الذى بدأ منذ ذلك الحين - أنظر : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٧٣.

أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم، كما توالى جلوسهم على كرسى الحكم فى إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور.[٩٨] وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحنى التدهور فى قوة الدولة الفاطمية بالشكل الذى أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية فى ذلك الحين أشبه بالرجل المريض الذى ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولى عليها، أو يضمها إلى جانبه فى الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فإن كلا منهما آثر ألا ينتظر نهاية الدولة الفاطمية، وإنما يبادر لوضع هذه النهاية بنفسه.

كانت الأحداث السياسية فى مصر تجرى بسرعة نحو التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[٩٩] لم يكن هناك حاكم قوى فى مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد فى دوامة لا نهاية لها من المؤامرات والدماء،

(٩٨) فى حديث عن أمير الجيوش بدر الجمالى قال ابن الأثير : «... وكان هو الحاكم فى دولة المستنصر، والمرجوع إليه...». أنظر : التأمل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٧٢. وفى عدة مواضع أخرى أشار ابن الأثير إلى عدم قدرة الخلفاء الفاطميين، ففي حديثه عن الخليفة الحافظ الفاطمى يقول : «... ولما ولى استوزر أباعلى أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى فاستبد بالأمر، وتغلب على الحافظ وحجر عليه، وأودعه فى خزانة لا يدخل إليه إلا من يريده أبو على، وبقى الحافظ له اسم لا معنى تحته...».

الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٣٣٢. قارن ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٩٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٣٠٢. وقد ذكر المؤرخ المجهول صاحب «البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان» أن المأمون البطائحى تولى الوزارة بمصر سنة ٥٣٧هـ، وكان فى مطلع أمره فراشا، «وشوهد فى صغره وهو يرش بين القصرين». أنظر المؤرخ المجهول، «البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان»، نشره كلود كاهن.

Claude Cahen, "Une Chronique Syrienne du VI/XII Siecle: Le "Bustoan Al-Jami,", en Bulletin D'Etudes Orientales, Tomes VI-VIII (Annees 1937-1938), pp. 112-158.

بحيث أنعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود. وفى سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (Baldwin III) (١١٤٣-١١٦٣م) فى إصلاح تحصينات غزة، مما كشف بوضوح عن نيته فى الهجوم على مصر. وكانت عسقلان لاتزال بأيدى المصريين وتمثل تهديدا محتملا ضد الوجود الصليبى فى فلسطين. وفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان[١٠٠]. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطينى كله للصليبيين إلا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التى لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحين مات بلدوين الثالث فى ١٠ فبراير ١١٦٣م، كان واضحا أن سياسته الخارجية التى قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف. إذ إن سياسة خليفته أماريك الأول (عمورى) (Amaloric I) (١١٦٣-١١٧٤م) كانت فى حقيقة أمرها عبارة عن سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة. إذ إن اتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاح الصليبيين. إذ أدرك أماريك الأول أن سقوط مصر فى يد المسلمين السنة فى بلاد الشام سيجعل الدويلات الليبية بين شقى الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبى أن نور الدين أدرك أهمية التطورات السياسية الداخلية فى مصر على ماجريات الصراع الإسلامى الصليبى.[١٠١] وهكذا كان نور الدين محمود وأماريك

(١٠٠) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٤٢. ومن المهم أن نشير إلى أن ابن الأثير أشار إلى الضعف السياسى الداخلى للفاطميين بقوله : «... وكان الوزراء بمصر لهم الحكم فى البلاد، والخلفاء معهم أسم لا معنى تحته...». المؤرخ المجهول، البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، ص ١٣٠؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢١-٣٢٢ - أنظر أيضاً :
William of Tyre, vol. II, pp. 220-234; Marshal W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174;, in Setton, vol. I, pp. 536-538; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. II, pp. 337342; Mayer, The Crusades, p. 115-116.

(١٠١) Baldwin, The Latin States", pp. 550-551.

على أهبة الاستعداد لبدء السباق للفوز بجائزته الكبرى؛ وهى مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيرا سنحت الفرصة لتدخل الجانبين: فبعد موت الوزير الفاطمى الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨هـ/١١٦١م اندلع الصراع على كرسى الوزارة بين ابنه العادل الذى مكث فى الوزارة خمسة عشر شهرا، شاركه أثناءها شاور حاكم الصعيد الذى قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذى بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه.(١٠٢) ولم يجد شاور بدا من الهرب صوب بلاط نور الدين محمود، على حين وجد الملك الصليبى أماريك (عمورى) فى الفوضى الضاربة فى مصر آنذاك فرصة جيدة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التى تقررت على مصر للصليبيين فى عهد سلفه بلدوين الثالث. وفى سنة ١١٦٣م كانت قوات الملك الصليبى تعبر برزخ السويس، ثم حاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغاما الذي انفرد بكرسى الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقا رهيبا جعل الصليبيين يرجعون القهقرى إلى فلسطين،(١٠٣) ولكن إلى حين.

وفى تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاط نور الدين محمود فى دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسى الوزارة الضائع فى القاهرة. وفى مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنويا. واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه، ويرفقته شاب فى السابعة والعشرين من عمره هو ابن أخيه

---

(١٠٢) فى حوادث سنة ٥٥٨هـ ذكر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج٩، ص٨١) أن ما فعله ضرغام من قتل الأمراء المصريين أضعف الدولة كثيراً – أنظر أيضاً: البستان الجامع، ص ١٣٤.

(١٠٣) William of Tyre, vol. II, p. 302.

صلاح الدين يوسف الأيوبى. الذى خلف نور الدين فى قيادة الجهاد ضد الصليبيين فيما بعد.

ولكن ضرغاما الذى بلغته أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين. ولم يتردد عمورى، وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال السنوات الست التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات.(١٠٤) لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل بطول المسافة من الفرما (قرب بورسعيد الحالية) حتى القاهرة. وكانت هذه النقلة فى مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد فى المفاهيم السياسية. لقد فرض منطق التاريخ، وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميدانا رئيسا فى الحروب الصليبية، لا هامشا عرضيا من هوامش ذلك الصراع الطويل المضنى.

على أى حال أدت محاولات أماريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين غاية فى الأهمية، أولاهما : تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة، وثانيتهما : تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية. فقد قتل ضرغام وشاور فى خضم هذه الأحداث، وصار أسد الدين شيركوه وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى. وبعد موت أسد الدين، سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى فى الوزارة.

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل تلك الحقبة الحرجة فى تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة صلاح الدين فى خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة

---

(١٠٤) عن تفاصيل هذا الصراع، أنظر :

William of Tyre, vol. II. p. '302-305, 308-321, 325-343; Baldwin, "The Latin States", pp. 550-558.

ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٨٤-٨٦، ص ٩٤-٩٦، ص ٩٩-١٠٢.

الفترة الانتقالية لتألق نجمه. وكان فشل مشروع أماريك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٥٦٦هـ/١١٦٩م، وحصارهم الفاشل لميناء دمياط على مدى خمسين يوما،[١٠٥] بمثابة الإعلان عن أن هذا القائد الشاب قد دعم حكمه، واطمأن إلى سلامة مركزه السياسى.

وفى هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هى : دمشق، والرها، وحلب، والموصل، ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة فى أول يوم جمعة من سنة ٥٦٧هـ/١٠ سبتمبر ١١٧١م حل اسم الخليفة العباسى محل اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة التى ألقيت فى مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمى العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع واحد دون أن يدرى أن دولة آبائه قد دالت، وأنه آخر الفاطميين.[١٠٦]

كان انفراد صلاح الدين الأيوبى بالسلطة فى مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ إن مصر بمواردها الهائلة جعلت قامته السياسية أكثر طولا. ثم جاءت وفاة نور الدين محمود فى ١١ شوال ٥٦٩هـ/١١٧٤م، ثم موت عدوه اللدود أماريك، ملك بيت المقدس، فى السنة نفسها، فرصة طيبة لكى يوحد الجبهة العربية الإسلامية، وتأكيد زعامته على العالم الإسلامى.

---

(١٠٥) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٠٥-١٠٦؛ البستان الجامع ص ١٣٨-١٣٩.
William of Tyre, vol. II, pp. 363-368; Baldwin, "The Latin States", pp. 565-66; Runciman, A History of the Crusades, vol. Ii, pp. 385-88.

(١٠٦) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١١١-١١٢؛ البستان الجامع ص ١٣٩، المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٧٣)، جـ٣، ص ٣٢٤-٣٣٤.

كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج فى حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات.[١٠٧] وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين الأيوبى نفسه ملكا على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م. وقضى صلاح الدين فى مصر حوالى ست سنوات من ٥٧٢-٥٧٧ هجرية/ ١١٧٦-١١٨١م لترتيب الأوضاع الداخلية فى مصر والشام استعدادا للمواجهة مع الصليبيين. وفى تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة على مستوى كبير مع الفرنج. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة فى حال نشوب المعركة ضد الصليبيين.

وفى تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل إن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حاليا)، كما شنوا غارات أخرى على تيماء شبه الجزيرة العربية.[١٠٨] وحاول رينالد دى شاتيون أمير الكرك (أرناط) أن يقتحم البحر الأحمر، ويغزو مكة والمدينة، وأن يتحكم فى حركة التجارة الدولية المارة بهذا البحر، وهاجم بعض موانئ مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصرى سحق أسطوله تماما.[١٠٩]

---

(١٠٧) كانت وفاة نور الدين محمود ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/١٥ مايو ١١٧٤م، وتولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان عمره إحدى عشرة سنة. ثم بدأت أحداث الصراع تتوالى حتى تمكن صلاح الدين من لم الشمل قبل معركة حطين. راجع حوادث السنوات ما بين سنتى ٥٦٩هـ/٥٨١م. ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٢٤-١٧٢.

(١٠٨) كان رينالد دى شاتيون أول من انتهك هدنة سنة ١١٨٠م، أنظر : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٥٢-١٥٣؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين. (طبعة دار الجيل)، جـ٢، ص ٢٨-٣٧.

Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. II, pp. 431-38.

(١٠٩) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٥٩-١٦٠.

وأنظر أيضاً :

Mayer, The Crusades, pp. 130-131; Hamilton Gibb "The Rise of Saladin" in Setton (ed.) A Hist., vol. I, pp. 380-81.

وهكذا وجد صلاح الدين مبررا قويا لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاره على زهرة جيوش الفرنج عند قرون حطين فى فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثانى ٥٨٢هـ/٤ يوليو ١١٨٧م.[١١٠] لقد فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسة فى هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج فى المنطقة العربية، إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم فى الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة، ولكن ما حدث فى حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبى أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى، كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبى صاحب السيادة على العالم الإسلامى بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصيا وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا، ويافا، وبيروت، وجبيل، ثم عسقلان، وغزة.[١١١] وفى أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/سبتمبر ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة فى ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/٢ أكتوبر ١١٨٧م بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حين غزوها قبل بضع وثمانين سنة، وأقيمت خطبة الجمعة فى المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلا.[١١٢]

---

(١١٠) عن معارك صلاح الدين فى حطين وقبلها، أنظر :
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ١٧٦-١٧٩؛ ابن شداد، النوادر، ص ٦٠-٧٣ وما بعدها؛ العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص ١٧-٤٥ وما بعدها؛ البستان الجامع، ص ١٤٦. راجع كذلك :
زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ١٩١-١٩٢؛ و
Runciman, op. cit., pp. 436-460.

(١١١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٧٩-١٨٢.

(١١٢) ابن شداد، النوادر، ص ٢٣٥-٢٣٧؛ الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص ٣١٤-٣١٧؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص١٨٢-١٨٦؛ البستان الجامع، ص ٨٤٦-٨٤٧.

ولم يتبق بأيدى ا لصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية فى بلاد الشام.

وجاء رد الفعل الأوروبى عنيفا: فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء السيئة تنتشر بسرعة فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبى بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور فى جولة زار فيها بلاط عدد من ملوك وأمراء الغرب لكى يستنهض هممهم.(١١٣) وقام البابا جريجورى الثامن، الذى لم يستمر فى كرسى البابوية سوى شهرين، بارسال خطاب بابوى «لكل المؤمنين فى الغرب»، وذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيرا لهم، كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا فى حملة صليبية جديدة، وفرض صياما فى كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، والامتناع عن أكل اللحم فى أيام السبت والأربعاء.(١١٤)

ومات البابا جريجورى الثامن فى ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧م تاركا لخليفته البابا كلمنيت الثالث (١١٨٧-١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة فى المائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين».(١١٥) وأخذ شارة الصليب الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا (Frederick I Barbarossa) (١١٥٢-١١٩٠م)، وريتشارد الأول ملك إنجلترا (١١٨٩-١١٩٩م) وفيليب أغسطس (Philip II Augustus) ملك فرنسا (١١٨٠-١١٢٣م).

---

(١١٣) Sidney Painter, "The Crusade: Richard The Lionhearted and Philip Augustus", in Setton, vol. II, pp. 45-8; Edgar N. Johnson, "The Crusade of Frederick Barbarossa and Henry VI", pp. 8.

(١١٤) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, pp. 4-5.
Mayer, The Crusades, pp. 136-137.
زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص١٩٣-١٩٤.

(١١٥) Runciman, op. cit., vol. III, pp. 6-7.

في ١١ مايو ١١٨٩م تحركت قوات الامبراطور الألماني فردريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية، والقوات الإنجليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البرى الذى سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى، ولكن الامبراطور لقى حتفه فى أحد أنهار آسيا الصغرى غريقا فى ١٠ يونيو ١١٩٠م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبى قبل أن يصل إلى هدفه، وانتهى أمر الألمان بالمشاركة الرمزية فى الحملة الصليبية الثالثة.(١١٦)

أما ريتشارد الأول ملك انجلترا (قلب الأسد)، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠/١١٩١م فى نزاع حول الأمور الداخلية فى صقلية. ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسى أولا بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطى. وفى تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا فى مدينة صور التى رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك جى لوزنيان الذى أطلق صلاح الدين الأيوبى سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة فى سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى بلاد الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة.(١١٧)

لا تهمنا التفاصيل كثيرا، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا فى أيدى صليبيى الحملة الثالثة.(١١٨) وعاد فيليب أوغسطس إلى

---

(١١٦) عن الحملة الصليبية الثالثة، أنظر :
Mayer, The Crusades, pp. 134-148; Helene Wieruszowaki "The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades" in Setton, vol. II, pp. 38-41; Sidney Painter, op. cit., pp. 45-86; Edgar Johnson, op. cit., pp. 87-122; Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, pp. 34-cf.

(١١٧) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٠٠-٢٠٤، ص ٢٠٥-٢١٠، ص ٢١٣-٢١٩، ص ٢١٩-٢٢١.

(١١٨) كان سقوط عكا فى أيدى الصليبيين يوم ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ يوليو ١١٩١م. أنظر : البستان الجامع، ص ٥٨٧؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٨٨-١٩٠؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢١٤-٢١٥.

فرنسا، على حين بقى ريتشارد فى بلاد الشام سنة كاملة، ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م الذى أبقى الوضع كما هو عليه.[(١١٩)]

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلا بالقدر الذى خيب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربى. وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التى عقدت على هذه الحملة إلى إحباط، واتهامات حادة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقى شهورا قليلة فى بيت المقدس، ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربه فى ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٤ مارس ١١٩٣م. وبوفاة صلاح الدين الأيوبى توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء العين والقلب موضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه؛ أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التى أنجبته لقيادة الأمة كانت لاتزال قائمة. فالصليبيون مازالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لايزال قائما. والإحياء الأيديولوجى والأخلاقى، الذى كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لايزال فى طور النمو، ولاتزال قطوفه بعيدة المنال.

وفى ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين الأيوبى على غير شاكلته، إذ أدت وفاته إلى تفسخ دولته فى الحال إلى قطع يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبى. وكان التوتر الذى ساد العلاقات بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبى الذى كان يشغل حيزاء ضيقا من أرض فلسطين ولبنان الحالية، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التى أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهى فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التى مرت بهم. وكان واضحا أن قوات

---

(١١٩) أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٩٩-٢٠٤؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢١-٢٢٢.

Runciman, op. cit., vol. III, pp. 72-73.

الصليبيين فى بلاد الشام لم تكن ندا للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا لنجدتهم.

وفى السنة التى تولى السلطان العادل الأيوبى منصب السلطنة الأيوبية فى القاهرة، أى سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م،[١٢٠] كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لاتزال تشغل بال الأوروبيين. وحين رأى الصليبيون أن السلطان العادل الأيوبى يفرض نوعا من الوحدة على أبناء البيت الأيوبى خشوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذى عانوه أيام صلاح الدين الأيوبى، وأدرك البابا والغرب والصليبيون فى الشرق - أدركوا جميعا أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورة لتأمين وجودهم فى بلاد الشام. لقد بات غزو مصر، بكل مواردها، قضية منطقية وضرورة حربية لضمان الاستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراضى مملكة بيت المقدس اللاتينية.

وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث (Innocent III) (١١٩٨-١٢١٦م) على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر. كان ذلك البابا قد درس القانون قبل اعتلائه عرش القديس بطرس فى روما، كما كان رجلا سياسيا على أتم الاستعداد لأن يستخدم أى وسيلة متاحة تمكنه من الوصول إلى هدفه.[١٢١] وقد أعلن إنوسنت الثالث أنه يريد خروج حملة صليبية جديدة لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين. وفى سنة ١١٩٩م كتب رسالة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريراً وافياً عن حال المملكة الصليبية التى كانت عكا قد صارت عاصمة لها.[١٢٢]

(١٢٠) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٤٩-٢٥٠. وقد دخل العادل القاهرة ١٨ ربيع الثانى من هذه السنة بعد أن هزم ابن أخيه الأفضل، وعوضه من حكم مصر بحكم ميافارقين، وجانى وجبل جور.

(١٢١) عن شخصية البابا إنوسنت الثالث وسياسته فى غرب أوروبا أنظر : نورمان كانتور، التاريخ الوسيط (ترجمة قاسم عبده قاسم) - دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، جـ٢، ص ٥٥٣-٥٦٢.

(١٢٢) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, pp. 109-110.

ثم بدأت الاستعدادات لتجميع حملة صليبية جديدة ضد مصر، بيد أن مشكلة نقل قوات الحملة وعتادها إلى الشواطئ المصرية فرضت على الصليبيين أن يدخلوا فى مفاوضات شاقة مع جمهورية البندقية التجارية، التى كانت تملك أسطولا من أقوى الأساطيل العاملة فى البحر المتوسط آنذاك، لنقل الصليبيين. ولسنا ننوى معالجة أحداث هذه الحملة بالتفصيل لأن ذلك خارج عن خطة البحث.

على أى حال، كانت أحداث هذه الحملة التى عرفت بالحملة الرابعة مزيجا من المأساة والملهاة.[١٢٣] فقد كان هدفها الأساسى مصر. وفى سنة ١٢٠١م توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية لكى تنقلهم السفن إلى الشواطئ المصرية، ولكن الصليبيين بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية بدلا من القاهرة العاصمة الإسلامية. ففى ٢٤ يونيو ١٢٠٣م كان الأسطول قد رسا فى مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية.

وبمجرد وصول الصليبيين إلى هناك شنوا هجومهم ضد القسطنطينية. وفى مارس ١٢٠٤م كانوا يرسون دعائم دولة جديدة تحل محل الامبراطورية البيزنطية بمعاهدة فصلوها على أهوائهم. وفى ١٣ أبريل تم اقتحام المدينة، وتركت عرضة للنهب والمذابح الصليبية على مدى ثلاثة أيام مرعبة.[١٢٤] وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة.

---

(١٢٣) عن الحملة الصليبية الرابعة، أنظر الترجمة الإنجليزية لكتاب فيلها ردوان :
Villehardouin, The Conquest of Constantinople in : Joinville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades, (translated with an introduction by : M.R.B. Shaw; Penguin books, 1975), pp. 29-160); Mayer, The Crusades, pp. 183-193; Edgar H. McNeal and Robert Lee Wolff, "The Fourth Crusades in Setton, vol. II, pp. 155-186; Runciman, op. cit. vol. III, pp. 107-131.
زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٢١٤-٢٧٨.

(١٢٤) زابوروف، المرجع السابق، ص ٢٧٣-٢٧٨. وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٦٠٠هـ ما نصه : «... إنما الفرنج هم الحكام فى البلد، فثقلوا الوطأة على أهله، وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك...» ثم يذكر أن الفرنج وضعوا السيف فى القسطنطينية ثلاثة أيام (الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٦٣-٢٦٤).

لقد توارت أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها، وحتى نهايتها، خلف ضبابية الشك وقلة المعلومات. وتوالت الاتهامات والاتهامات المضادة بين زعماء أوروبا والصليبيين حول حقيقة ماجرى. ومع أن إنوسنت الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها إلا أنه سرعان ما بلع احتجاجاته حين رأى أن سقوط عاصمة قسطنطين تحت سنابك الخيول الصليبية يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم فى السيطرة على الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية.

ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على العاصمة البيزنطية، وتغيير هدف الحملة واصلوا حتى شواطئ بلاد الشام. وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها. وقد ظلوا فى غاراتهم سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م خمسة أيام.(١٢٥)

وسرعان ما أدرك الصليبيون فى عكا استحالة قدوم حملة صليبية لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا أماليك الثانى (Amalric II) لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبى الذى رحب بعقد الهدنة نظرا لازدهار التجارة ومكاسبها فى حال السلم من ناحية، وبسبب متاعبه الداخلية مع بقية الأيوبيين من ناحية أخرى. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات فى أواخر سنة ١٢٠٤م.(١٢٦)

بعد ذلك خرجت من أوروبا الغربية حملة عجيبة هى تلك التى عرفت باسم«صليبية الأطفال». وهى حركة جاءت تعبيرا عن التدين العاطفى الذى ملك على الأوروبيين عقولهم فى تلك الأثناء، كما كانت بمثابة رد الفعل الشعبى لفشل البابوية وحكام أوروبا فى أخذ مدينة القدس. وقد خرج من طيات هذه الموجة الدينية الجارفة

---

(١٢٥) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٦٥-٢٦٦، المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١، ص ١٦٣.

(١٢٦) فى سنة ٦٠١ هجرية تم عقد هذه الهدنة، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٦٥؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ١٦٤.

صبى فرنسى فى الثانية عشرة من عمره اسمه ستيفين (Stephen) من مدينة كلوى (Cloyes) الصغيرة فى إقليم أورليانز. وفى أحد أيام شهر مايو سنة ١٢١٢م ظهر هذا الصبى الراعى أمام بلاط الملك الفرنسى فيليب أوغسطس فى سان دونى (Saint-Denis) ومعه خطاب قال : إن المسيح شخصيا أعطاه إياه لكى يوصله للملك.(١٢٧) وقد زعم ستيفين أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال الأبرياء الذين سوف يستردون مدينة القدس بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وغيرهم من الكبار فى استعادتها بسبب ذنوبهم. واجتذب ستيفين بضع مئات من الأطفال من باريس ومن غيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول الموكب عدد من صغار القساوسة. وسار موكب حملة الأطفال الصليبية حتى مرسيليا فى انتظار أن ينشق البحر أمامهم فى معجزة مثل تلك التى حدثت للنبى موسى عليه السلام. ثم جاءت سفن لكى تنقل منهم عددا كبيرا إلى جهة مجهولة.

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة ستيفين إلى حوض الراين، فخرجت من ألمانيا، بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفين، حملة أطفال أخرى بقيادة صبى اسمه نيقولا (Nicholas) من إحدى قرى إقليم الراين.(١٢٨) وانطلق الموكب العجيب من مدينة كولون وسار عبر جبال الألب فى إيطاليا؛ وهناك انقسم قسمين : أحدهما ركب السفن من ميناء بيزا، والقسم الآخر وصل إلى ميناء برنديزى. وعلى أرض ايطاليا تخلفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد، أو

---

(١٢٧) Runciman, A Hist. of the Crusades, vol. III, p. 139; Mayer, The Crusades, p. 204.

(١٢٨) Norman P. Zacour, "The Children's Crusade" in Setton vol. II, pp. 332-333; عبدالغنى محمود عبدالعاطى، «صليبية الأطفال ١٢١٢م» فى ندوة التاريخ الإسلام والوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم، ورأفت عبدالحميد (المجلد الثانى - القاهرة ١٩٨٥)، ص ١٧٣-١٧٤.

الخوف من ركوب البحر.[١٢٩] أما الذين سافروا بالفعل فإن أحد لم يعرف أبدا ماذا جرى لهم على وجه اليقين.

على أى حال، فإن حملة الأطفال لم تحل دون إعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر بطلب من يوحنا برين (John de Brienne) الذى تزوج ماريا وريثة مملكة عكا،[١٣٠] وصار ملكا على الصليبيين فى فلسطين سنة ١٢١٠م. واستجاب الباب إنوسنت الثالث وأخذ يدعو لحملة صليبية جديدة فى شتى أرجاء الغرب الأوروبى. وفى مجمع اللاتيران الكنسى، الذى عقد سنة ١٢١٥م، شرح البابا مدى سوء حال المستوطنين الصليبيين فى فلسطين، وبعض الإجراءات الضرورية لتوفير النفقات الضرورية لتجهيز الحملة المقترحة. ولكن البابا إنوسنت الثالث مات سنة ١٢١٦م قبل أن تبدأ عجلة الحملة الصليبية الخامسة فى الدوران. وخلفه الكاردينال المسن سافيللى (Savelli) تحت اسم البابا هونريوس الثالث (Honorius III) .

كان هدف تلك الحملة مصر. وكانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين على النزول بقواتهم فى دلتا النيل بدلا من ضفاف الأردن؛ أولها رغبة المدن التجارية الإيطالية (الممول الرئيسى للحملة) فى السيطرة على تجارة المتوسط، وضرب المنافسة المصرية فى عقر دارها بالسيطرة على ميناء دمياط أهم موانئ شرق المتوسط آنذاك،

---

(١٢٩) عن حملة الأطفال، أنظر :

Zacour, "The Childern's Crusades" in Setto, II, pp. 325-342; Paul Alphandery, "Les Croisades d'enfants", Revue de L'histoire des religions, LXXIII (1916), pp. 259-282; Dana C. Munro, "The Childrens' Crusades", American Historical Review, XIX (1913-14), pp. 516-524; Runciman, op. cit., vol. III, pp. 139-144; Mayer, op. cit., pp. 202205;

أنظر أيضاً :

عبدالغنى محمود عبدالعاطى، «صليبية الأطفال ١٢١٢م»، ص ١٤٧-١٨٥؛ زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٢٨٢-٢٨٩.

(١٣٠) Jacques de Vitry, "History of Jerusalem" in Palestine Pilgrims' Text Society, transl. by A. Stewart, vol. XI, p. 119.

وثانى هذه الأسباب يكمن فى المذهب السياسى/العسكرى للصليبيين. ومؤداه أن هزيمة مصر، أو تحييدها على الأقل، خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية. أما السبب الثالث فكان استرداد الشرف العسكرى الذى تمرغ بهزيمة حطين، وفقدان القدس.

بالفعل بدأت بعض قوات الحملة الصليبية الخامسة فى الوصول إلى عكا. وقد استمرت أحداثها أربع سنوات تنقص شهرا على حد رواية ابن الأثير.[١٣١] وفى أوائل نوفمبر سنة ١٢١٧م خرج الصليبيون من عكا لكى يشنوا هجوما مباغتا ضد مصر فى جيش ضخم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، بيد أن فوضى القيادة فى الجيش الصليبى الضخم جعلته عاجزا عن القيام بأى عمليات عسكرية حقيقية. وسرعان ما عاد الجيش إلى داخل أسوار عكا لكى يظل هادئا حتى أبريل سنة ١٢١٨م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا.[١٣٢]

وقرر مجلس الحرب الصليبى الذى اجتمع فى عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل. وقد أخذ أسقف عكا جيمس الفيترى (James de Vitry) على عاتقه مهمة إخبار البابا بقرار رجال الحرب. وعند نهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م وصلت القوات الصليبية قبالة دمياط التى كانت بها قلعة حصينة كما كانت أهم ثانى ميناء في مصر بعد الإسكندرية. وخرج الكامل، أكبر أبناء السلطان العادل وخليفته، للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين أقاموا معسكرهم على الشاطئ الغربى للنيل وأحاطوه بخندق «... يمنعم ممن يريدهم...».

وظل الوضع متجمدا قرابة أربعة أشهر حتى امتلكوا برج السلسلة، ولكن القوات المصرية ظلت تقاتلهم فى البر وفى فرع النيل الدمياطى. ثم توفى الملك العادل فى جمادى الآخرة ٦١٥هـ. وعاد الكامل من دمياط ليواجهة مؤامرة انقلاب دبرها أحد

---

(١٣١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٣١٤-٣١٨، (حوادث سنة ٦١٤هـ).

(١٣٢) Thomas C. Van Cleve, "The Fifth Crusade", in Setton, II, pp. 389-393; Meyer The Crusades, p. 210.

الأمراء ضده.[١٣٣] وتفرقت جموع المدافعين عن دمياط التى سقطت بأيدى القوات الصليبية فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦هـ/ ٥ نوفمبر ١٢١٩م.[١٣٤]

وفى أثناء الحصار، قبل سقوط المدينة، كان السلطان الكامل قد يئس من إمكانية صمود دمياط، وأرسل فى نهاية شهر أكتوبر يقترح على الصليبيين الجلاء عن مصر مقابل أن يأخذوا الصليب المقدس، وأن يمتلكوا مدينة بيت المقدس ووسط فلسطين والجليل، على أن يدفع المسلمون جزية عن الحصون التى تبقي بأيديهم.[١٣٥]

كان العرض الذي تقدم به الكامل الأيوبى غاية فى الكرم، والسخاء، والتخاذل. ونصح الملك يوحنا برين الصليبيين بقبوله. ولكن المندوب البابوى بلاجيوس (Pelagius)، وبطريرك بيت المقدس رفضا العرض وآزرهما زعماء المنظمات الرهبانية العسكرية من الداوية[*] الاسبتارية[**]. كما أن الايطاليين التجار الذين كانوا مصدر

---

(١٣٣) عندما توفى السلطان العادل الأيوبى قام أحد الأمراء وهو عماد الدين أحمد بن على المعروف «بابن المشطوب» بتدبير مؤامرة لعزل الكامل، وسانده عدد من الأمراء الأكراد من بنى جنسه، لتولية «الفائز بن العادل» بدلا من أخيه الكامل»، وانتهت المؤامرة بالفشل (ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٣١٦)

(١٣٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٣١٥-٣١٨؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٢٠١. وكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما.

(١٣٥) قال ابن الأثير : «... وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس، وعسقلان، وطبرية،وصيدا، وجبله، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا....». «الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٣١٨».

(*) الداوية (فرسان الهيكل أو الهيكليون) : جمعية عسكرية رهبانية تأسست سنة ١١١٨م اشتهر أعضاؤها أيام الحروب الصليبية فى فلسطين. حلها الملك فيليب الرابع ملك فرنسا سنة ١٣١٢م. (المحرر)

(**) الاسبتارية : منظمة دينية عسكرية، انشئت فى بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى. (المحرر)

التمويل الأساسي للحملة رفضوا العرض، إذ كانوا يريدون دمياط مركزا تجاريا لهم.(١٣٦)

جمد الصليبيون نشاطهم فى دمياط على مدى ثمانية عشر شهرا كاملة. وعندما وصلت قوات إضافية من أوروبا وعكا بدأوا يزحفون جنوبا حتى مدينة فارسكور فى منتصف شهر يوليو سنة ١٢٢١م. وهذا هو وقت فيضان النيل السنوى الذى يشتد فى شهر أغسطس. وعبرت قوات الجيش المصرى لكى تحاصر الصليبيين قرب المنزلة. ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل الطرق أمام الجيش الصليبى المحاصر. وعلى صفحة النهر كانت سفن البحرية المصرية تستولى على عدد من سفن العدو ومعداته، وتقتل وتأسر بحارته. وهكذا غرقت أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر فى أوحال الدلتا، وتحدد مصير الحملة الخامسة بشكل نهائي. وفى التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/سبتمبر ١٢٢١م دخلت القوات المصرية دمياط التى كان الصليبيون قد حصنوها جيدا.(١٣٧)

كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة. ومن ناحية أخرى، فإن الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى اتخذت طابعا مخالفا لحملات القرن الثانى عشر الميلادى. فالحملة الثانية جاءت رد فعل على سقوط الرها سنة ١١٤٤م فى يد عماد الدين زنكى، كما أن الحملة الثالثة كانت استجابة للكارثة التى حاقت بالصليبيين في فلسطين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧م. أما حملات القرن الثالث عشر الميلادى فكانت نتيجة الضعف الدائم الذى ألم بالمستوطنات الصليبية، ولم تبرأ منه منذ عمليات صلاح

---

(١٣٦) Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. III, pp. 161-162; Mayer, The Crusades, pp. 213-214; Van Cleve, "The Crusade", pp. 414-417.

زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٢٩٦.

(١٣٧) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٣١٧-٣١٨؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ٢٠٧-٢١٠.

الدين الأيوبى على الرغم من أن فرنج الشرق لم يواجهوا أى خطر حقيقي طوال الفترة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين. وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت فى هذا القرن موجات متصلة من الفرسان، والمغامرين، وشذاذ الآفاق، والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين، وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئا للكيان الصليبي الذى كان يمضى إلي نهايته المحتومة.

ولأن فشل حملة دمياط كان فى التحليل الأخير ضربة موجعة لهيبة البابوية، فقد أخذ البلاط البابوى يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة.(١٣٨) ولن ندخل فى تفاصيل التقلبات السياسية فى أوروبا آنذاك.(١٣٩) ولكن ما يهمنا أن الصليبيين فى فلسطين لم يحاولوا الإفادة من سياسة المهادنة التى اتبعها السلطان الكامل الأيوبى، أو أن يستجيبوا لها. وكذلك كان حال البابوية. ولكن موقف الامبراطور الألمانى فردريك الثانى (Frederick II) (١٢١٥-١٢٥٠م) كان مختلفا؛ فقد أبدى استعدادا واضحا للإفادة من هذه الروح السلمية البادية فى موقف السلطان الكامل. ويرجع السبب فى ذلك إلى فردريك الثانى نفسه، إذ لم يكن «صليبيا» مثل غيره من ملوك أوروبا الذين قادواالحملات الصليبية. لقد كان هذا الإمبراطور، الذى عرف باسم أعجوبة الدنيا، صقليا تربى فى ظل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التى فرضت نفسها على كل مكان من الجزيرة التى نشأ فى أحضانها. ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت. فقد كان ذلك الامبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديرا

---

(١٣٨) Mayer, The Crusades, pp. 223.

(١٣٩) أنظر :

نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٩٣-٥٩٧؛ و
Runciman, A Hist. of The Crusades, vol. III, pp. 171-175; Thomas C. Van Cleve, "The Crusades of Frederick II", in Setton, pp. 429447.

كبيرا. وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات هى العربية، واليونانية، واللاتينية، والايطالية، والألمانية، والفرنسية.(١٤٠)

كان فردريك الثانى قد تولى العرش سنة ١٢١٥م، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكى يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له فى عرش الإمبراطورية، بيد أنه كان عازفا عن القيام بحملة صليبية لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل ايطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية. ولذلك أخذ يماطل فى الوفاء بنذره الصليبى، ولكن زواجه من يولاندا (Yolanda) ابنة الملك الصليبي الراحل يوحنا برين ملك عكا، جعل منه ملكا على بيت المقدس ومسؤولا عن الصليبيين فى الشرق. وعلى الرغم من ذلك بدأت المراسلات بينه وبين السلطان الكامل الأيوبى مما أثار غضب البابا فى روما. ثم أسفرت المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. وكان تحت إمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل.(١٤١) وكان مشهدا غريبا ذلك الذى جرى على مسرح التاريخ آنذاك، إذ دعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد فردريك الثانى بعد أن وقعت ضده عقوبة الحرمان، على حين كان الإمبراطور فى فلسطين «يؤدى واجبه الصليبى».

---

(١٤٠) Van Cleve, op. cit., pp. 461-462; Runciman, op. cit., III, pp. 175-176.
نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٩٣-٥٩٤؛ وزابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص ٣٠٠.

(١٤١) عن حملة فردريك الثانى أنظر :
Van Cleve, op. cit., p. 429-462; Mayer, The Crusades, pp. 219230; Runciman op. cit., III, pp. 171-204.
وزابوروف، المرجع السابق، ص ٣٠٠-٣٠٣.
وقد شن البابا جريجورى التاسع، وحلفاؤه حملة صليبية ضد أملاك فردريك الثانى فى جنوب ايطاليا. ولهذا أسرع الإمبراطور وهزم قوات البابا. ثم عقد سنة ١٢٣٠م معاهدة صلح فى سان جرمان وافق البابا بمقتضاها على الهدنة التى عقدها فردريك الثانى مع الكامل الأيوبى.

كانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة، التى تجنبت إراقة الدماء، أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبى وفردريك الثانى، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية.[١٤٢] وفى المقابل يتعهد فردريك بمنع أى حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوروبا.

وبعد أن توج فردريك الثانى ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية عاد فى يونيو ١٢٢٩م إلى أوروبا بمكاسب لم تستطع أى حملة أخرى قبله أن تحققها منذ الحملة الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

أما العالم العربى الإسلامى فقد رأى - بحق - أن الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبى كارثة حقيقة. وكان رد الفعل الشعبى عنيفا ضد السلطان الذى بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته. وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله : «واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه. يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه.... ».[١٤٣]

وقد أتاحت فترة هدنة السنوات العشر فرصة جيدة للصليبيين وزعماء الغرب الأوروبى لكى يستعدوا لجولة عسكرية جديدة ضد المسلمين. وفى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٩م مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات فى الأحوال اعتلى عرش السلطنة فى القاهرة ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب[١٤٤] سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م.

---

(١٤٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٣٧٨؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة - طبعة ثانية، القاهرة ١٩٥٦م)، ص ٢٢٨-٢٢٩، ص ٢٣٠-٢٣٢. وقد ذكر المقريزى أن مدة الهدنة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً.

(١٤٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٣٧٨.

(١٤٤) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ (تحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة)، ص ٢٦٨-٣٠٠. ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب.

وفى غمرة الحرب الأهلية والمنازعات التى اندلعت بين الأيوبيين فى بلاد الشام ومصر والجزيرة، والتى انتهت باعتلاء الصالح أيوب عرش مصر، انتهت الهدنة ذات السنوات العشر. وكان البابا جريجورى التاسع (Gregory IX) يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة ١٢٣٩م. ولم تلق جهوده استجابة كبيرة سوى فى فرنسا حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامبانى ملك نافار (Theobald de Champagne) وبعد رحلة عاصفة فى المتوسط وصلت هذه الحملة إلى عكا فى أول سبتمبر. وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالى ألف من الفرسان. وفى نوفمبر من السنة نفسها (١٢٣٩م) التقى هذا الجيش مع الجيش المصرى قرب مدينة غزة فى معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين أسير وقتيل.(١٤٥) ومن ناحية أخرى هجم الملك الناصر داود الأيوبى، حاكم الكرك، على بيت المقدس واستعادها من الصليبيين فى ديسمبر من السنة نفسها. وقد تمكن الصالح نجم الدين أيوب من أخذ بيت المقدس بواسطة الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م.(١٤٦) وكانت تلك الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس التى ظلت بيد المسلمين والعرب حوالى سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوروبى آخر، وقبل أن يحتلها الصهاينة.

وفى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا بهدف احتلال مصر. وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى مصر لكى ينظم وسائل الدفاع. وتروى المصادر التاريخية العربية أن الإمبراطور فردريك الثانى، صديق الأيوبيين وعدو البابا اللدود، قد أرسل أحد رجاله متخفيا فى زى تاجر إلى السلطان

---

(١٤٥) عن الحملة والمعركة، أنظر :

Sidney Painter, "The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239-1241" in : Setton, II, pp. 463-485; Runciman, op. cit., III. p. 211-218.

المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣١٨.

(١٤٦) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٣١٨.

الذى كان مريضا بدمشق يخبره بالاستعدادات الأوروبية للهجوم على مصر.(١٤٧)

وكانت الاستعدادات تجرى لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسى منذ سنة ١٢٤٥م نتيجة سقوط بيت المقدس فى أيدى الخوارزمية وخضوعها للصالح أيوب. ولم يكن هدف هذه الحملة استرداد بيت المقدس فقط، وإنما سعت إلى تكوين حلف مغولى/مسيحى بهدف تطويق العالم الإسلامى والقضاء عليه. والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع جاءت مواكبة لفكرة إقامة حلف مغولى/صليبى ضد المسلمين.(١٤٨) ولكن المشروع فشل لأن المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة على العالم على الرغم من كثرة السفارات المتبادلة بين الجانبين.(١٤٩)

وفى خريف سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبى من ميناء مرسيليا الفرنسى إلى قبرص حيث أمضى لويس التاسع فترة من الوقت فى انتظار تكامل القوات التى كان لويس التاسع ينتظرها. وفى مايو سنة ١٢٤٩م أقلعت السفن تجاه الشواطئ المصرية. وفى العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ/٤ يونيو ١٢٤٩م نزل الصليبيون قبالة دمياط، وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وانسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن سلطانهم

---

(١٤٧) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٤٥؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ٣٣١، حاشية رقم ٣.

(١٤٨) يشير جوانفيل، الذى كتب سيرة الملك لويس التاسع، وأرخ لحملته ضد مصر إلى أنه بينما كان الملك فى قبرص ليكمل استعداداته لغزو مصر أرسل له «ملك التتار العظيم» رسلا يحملون له رسائل ودية «توضح أنه على استعداد لمساعدته فى غزو بيت وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين...» - أنظر :

Joinville, The Life of Saint Louis, translated with an introduction by M.R.B. Shaw, (Penguin Books, 1975), pp. 197-198.

(١٤٩) عن تفاصيل هذه السفارات والاتصالات بين البابا أنوسنت الرابع والمغول، أنظر : عادل هلال، العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوروبى، ٦٥٦-٧٣٦هـ/ ١٢٥٨-١٣٣٥م (رسالة دكتوراه غير منشورة تحت إشراف الدكتور قاسم عبده قاسم، جامعة الزقازيق ١٩٨٧)، ص ٥١-٧٣.

المريض قد مات. وفى أعقاب الجنود والفرسان فر السكان المذعورون. وهكذا سقطت دمياط دون قتال... دمياط التى دوخت قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة استسلمت فى وداعة مذهلة لقوات لويس التاسع. وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل، الذى سقط بين أيديهم دون جهد، حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة.(١٥٠)

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة، التى بذل جهدا مضنيا فى تحصينها، بمزيج من الألم والمرارة، وأعدم عددا من الفرسان الهاربين، بيد أنه نقل معسكره إلى مدينة المنصورة التى كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط. ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون جميعا، وكثرت أعداد الأسرى الصليبيين الذين تخطفتهم أيادى المجاهدين، وتعددت مواكب الأسرى فى شوارع القاهرة، كما أن البحرية المصرية قامت بدورها. ثم جاءت قوات عربية أخرى من بلاد الشام لمساندة المصريين. وفى خضم هذه الأحداث توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م،(١٥١) وأخفت زوجته «شجرة الدر» نبأ وفاته لكى لا تتأثر معنويات الجيش، وأرسلت فى استدعاء ابنه توران شاه من إمارته على حدود العراق.

واشتدت المقاومة المصرية ضد القوات الصليبية.(١٥٢) وبعد عدة تطورات لا

(١٥٠) ذكر المقريزى ما نصه : «وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع يقين من صفر، سائرين إلي مدينة دمياط، فعندما رأواأبوابها مفتحة، ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار..». «السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣٣٥-٣٣٦. وأنظر أيضاً :

Joinville, The Life of Saint Louis, pp. 206-207.

ويتحدث جوانفيل عن تقسيم الغنائم بين الملوك وأمرائه.

(١٥١) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣٣٦-٣٤٢.

(١٥٢) Joinville, op. cit., pp. 209-210.

وقد ذكر ما نصه : «كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالنا عندما يجدونهم نائمين، وقد تصرفوا على هذا النحو لأن السلطان كان يعطى قطعة ذهبية فى مقابل كل رأس لرجل مسيحى...».

يتسع المجال لذكرها كانت القوات الصليبية تتقدم نحو مدينة المنصورة فى سرعة، ولكن الأمير بيبرس البندقدارى (الذى صار السلطان الظاهر بيبرس فيما بعد) كان قد نظم الدفاع عن المدينة بشكل جيد. وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى الصليبيين بينهم عدد كبير من النبلاء. ولم ينجح فى الهرب سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقا فى مياهه. أما الجيش الصليبى الرئيس بقيادة لويس التاسع فكان لايزال فى الطريق دون أن يعلم بما جرى على الطليعة الصليبية التى اقتحمت المنصورة فى ٤ ذى القعدة ٦٤٧هـ/فبراير ١٢٥٠م. وفى المحرم من سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م دارت معركة رهيبة قرب فارسكور قضت على الجيش الصليبى تماما، وتم أسر لويس التاسع نفسه فى قرية منية عبدالله شمالى المنصورة، ثم نقل إلى دار ابن لقمان القاضى بالمنصورة، حيث بقى سجينا فترة من الزمان حتى أفرج عنه لقاء فدية كبيرة، ومقابل الجلاء عن دمياط.(١٥٣)

لقد كانت الحملة الصليبية السابعة آخر جهد أوروبى كبير ضد مصر، لكنه لم يكن آخر الجهود الصليبية على أى حال. وقد اختلفت هذه الحملة عن غيرها من الحملات السابقة. وفى الواقع أن قيادة لويس لهذه الحملة كانت استثناء بين الاتجاهات السياسية الأوروبية، إذ لم يكن زعماء أوروبا القرن الثالث عشر الميلادى متحمسين لشن حروب صليبية جديدة ضد المسلمين، لأنهم كانوا منغمسين فى مشكلاتهم الداخلية من ناحية، ولأنهم أدركوا عدم إمكانية فرض الوجود الصليبى بالقوة إلى الأبد. ومهما كانت تصريحاتهم العلنية التى أظهروا بها حماستهم للحركة الصليبية فالواقع أن الحملات الصليبية لم تكن تحتل سوى نطاق هامشى من اهتماماتهم. لقد

---

(١٥٣) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٣٤٥-٣٥٨، ص ٣٦٣-٣٦٤. وكانت فدية الملك الفرنسى أربعمائة ألف دينار.

Joinville, The Life of Saint Louis, pp. 220-264.

أنظر أيضاً :

Joseph R. Strayer, "The Crusades of Louis IX", in Setton, II, pp. 487-518.

أخذ كثيرون من زعماء أوروبا شارة الصليب حقا فى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، بيد أن من رحل منهم بالفعل إلى الشرق العربى الإسلامى كانوا قلة. ومن المثير للسخرية أن الملوك الذين أخذوا شارة الصليب مأخذ الجد، وأوفوا بقسمهم الصليبى، كانوا هم أسوأ القادة العسكريين فى أوروبا، وكان لويس التاسع واحدا منهم.

أخذ لويس التاسع يجول فيما بين بلاد الشام إلى سواحل شمال أفريقيا محاولا أن يحقق حلمه الصليبى، ولقى حتفه فى مغامرة صليبية فى تونس. وعلى الجانب الإسلامى جرت عدة تطورات سياسية أفرزت فى النهاية دولة سلاطين المماليك والشام لتقوم بدورها التاريخى فى القضاء على الوجود الصليبى تحت سماء المنطقة العربية. وقد أحاط سلاطين المماليك ببقايا الوجود الصليبي حتى أجهزوا عليها دون أن تتمكن أوروبا من أن تقدم شيئا لنجدتهم.

وأخذ الوجود الصليبى يتلاشى رويدا رويدا. ففى عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠/١٢٧٧م) تم توحيد مصر والشام.(١٥٤) واتسمت سياسة هذا السلطان القوى بالعنف والصرامة إزاء الصليبيين. ومنذ سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بدأت جهود بيبرس العسكرية ضد الصليبيين. وفى مطلع سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م دخل فى عمليات حربية واسعة ضد إمارات الساحل الصليبية فاستولى على مدينة قيسارية، ثم مدينة أرسوف إلى الجنوب منها. وفى العام التالى مباشرة أخذ قلعة صفد التى كانت

---

(١٥٤) ارتقى بيبرس عرش السلطنة فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ بعد أن قتل السلطان قطز أثناء عودة الجيش المصرى بعد أن هزم المغول فى عين جالوت. وقد واجهته عدة متاعب داخلية في مصر والشام قبل أن يتفرغ لقتال الصليبيين - أنظر :
المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٣٦-٦٤١. عرض فيها المقريزى لحكم الظاهر بيبرس وأحداثه وسيرته؛ «وأنظر أيضاً : سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام (الطبعة الأولى القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٨-٥١، ص ٥٨-٦٤.

معقل الفرسان الداوية. وكان يقود جيوشه بنفسه في هذه المعارك. وفي أثناء القتال ضد قيسارية أخذ يهدم أسوارها بمطرقة في يده حتى جرحت يده. وفي صفد كان يشارك البقر في جر الأخشاب اللازمة لعمل الأبراج لمهاجمة القلعة.(١٥٥)

وفي ٦٦٦هـ/١٢٦٨م استولى على يافا، ثم حصن شقيف أرنون المنيع. وكانت سياسة بيبرس تقوم على الإفادة من منازعات الصليبيين الداخلية. وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية فوجئ الصليبيون بالقوات المصرية والشامية تحاصر أنطاكية، ثم تستولي عليها سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م.(١٥٦) واستولى بيبرس على المدينة التي ظلت رهينة الأسر الصليبي على مدى أكثر من مائة وخمسين عاما. وكان ذلك أكبر انتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس. وكان فرح المسلمين عظيما بهذا الفتح.

أما الصليبيون فقد جاءت أنباء سقوط أنطاكية عليهم بمثابة الكارثة، وانتابهم خوف شديد فسارعوا إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان. وعندما طلب ملك عكا الصليبي معاهدة هدنة مع بيبرس، لقاء التنازل عن نصف أملاك التاج الصليبي في عكا، وافق السلطان على أساس أن هذه الهدنة تطلق يده في مواجهة القوى الصليبية الأخرى في الشام. وفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م عقد بيبرس هدنة مع بوهيموند السادس (Bohemond VI) أمير طرابلس بسبب قدوم حملة صليبية جديدة إلى عكا تحت قيادة الأمير إدوارد الإنجليزي.(١٥٧) وكانت تلك آخر جهود بيبرس الكبرى ضد الصليبيين.

---

(١٥٥) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٥٢٦-٥٣٤، ص ٥٤٥-٥٤٨.

(١٥٦) المصدر نفسه، جـ١، ص ٥٦٧-٥٦٨.

(١٥٧) المصدر نفسه، جـ١، ص٦٠١. وكانت مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات من التاريخ المذكور (١١ رمضان سنة ٦٧٠هـ).

وتولى الحكم سلطان مملوكى قوى آخر هو السلطان المنصور قلاون الذي اعتلى عرش السلطنة في مصر سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[١٥٨] وبعد أن وطد دعائم حكمه بدأ فى مواصلة جهود بيبرس ضد الصليبيين. وكانت بقايا الوجود الصليبى تتمثل فى إمارة طرابلس، وبقايا مملكة بيت المقدس اللاتينية التى اتخذت من عكا عاصمة لها، كما كان حصن المرقب بأيدى الفرسان الاسبتارية، وطرسوس بأيدى فرسان الداوية.

وفى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م شن الجيش المصرى هجوما ناجحا على حصن المرقب، وانتزعه من فرسان الاسبتارية. وكانت كل الشواهد تدل على أن نهاية الوجود الصليبى فى المنطقة العربية قد اقتربت. وفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م أرسل السلطان المنصور قلاون جيشا استولى على اللاذقية، آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية التى حررها بيبرس.

وبعد ذلك بسنتين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم فرض حصارا على طرابلس لمدة شهرين واستولى عليها فى أبريل سنة ١٢٨٩م، ثم تلتها بيروت وجبلة.[١٥٩] وانحصر الصليبيون فى عكا وصيدا وعثليت.

---

(١٥٨) محيى الدين بن عبدالظاهر، تشريف الإمام والعصور فى سيرة الملك المنصور، (تحقيق الدكتورمراد كامل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦١)، ص ٥٤. وقد ركب السلطان المنصور سيف الدين قلاوه بشعار السلطنة فى ثالث شعبان سنة ٦٧٨هـ. واستمر حكمه إلى ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م.

قارن : المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٦٦٣ وما بعدها. حيث يذكر أن جلوسه على تخت الملك كان فى ٢٠ رجب ٦٧٨هـ. راجع أيضاً : تاريخ ابن الفرات، جـ٧ (تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، والدكتورة نجلاء عز الدين، بيروت ١٩٤٢)، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٥٩) تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٨٠-٨١؛ ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، ص ٧٧-٨١، ص ١٥١-١٥٣؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٧٤٧-٧٤٨.

وفى السنة التالية ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م جاء بعض الصليبيين الايطاليين إلى عكا وعبروا عن حماستهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة. فهاجموا المسلمين وقتلوا عددا من التجار المسلمين الذين اعتادوا دخول عكا لأغراض تجارية منذ زمن بعيد. وهكذا انتهت فترة السلام القلق، وكان على الصليبيين أن يدفعوا الثمن فادحا هذه المرة.

رفض المنصور قلاون الأعذار التى ساقها الصليبيون القدامى في عكا، وبدأ يعد جيشه للخروج إلى فلسطين، ولكن المنية وافته فى ذى القعدة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م، فتأجل المشهد الأخير فى قصة الوجود الصليبى إلى حين.

بدأ الفصل الأخير فى هذه المواجهة الطويلة المضنية بتولى الأشرف خليل بن المنصور قلاون حكم البلاد. وفى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م(١٦٠) كان الجيش الذى أعده أبوه قبل وفاته يفرض الحصار على عكا. واشتد الحصار على المدينة التى لم يصمد الصليبيون داخلها أكثر من ثلاثة وأربعين يوما، ثم حررها المسلمون بعد أسر دام مائة سنة وثلاث سنين.

وبعد عكا سقطت بقية المدن والمعاقل الصليبية تباعا، ودالت دولة الصليبيين فى فلسطين إلى غير رجعة. وعلى الرغم من أن بقايا الصليبيين فى قبرص ورودس ظلوا مصدر إزعاج فى القرنين التاليين (الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) إلا أن دماء الصليبيين فى عكا كتبت نهاية قصتهم فى المنطقة العربية.

* * *

هذه هى الخطوط العريضة للمواجهة العسكرية المرهقة بين شعوب المنطقة العربية والعدوان الصليبى. والحقيقة أن الأحداث المتشابكة المتداخلة والأفكار التى أدت إلى

---

(١٦٠) تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١١٠-١١٨؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١، ص ٧٦٣-٧٦٨.

ميلاد الحركة الصليبية، وتطوراتها، ونتائجها وآثارها على أوروبا الغربية والعالم العربى، تضع أمام المهتمين بدراسة تاريخ العلاقات الدولية نموذجا فذا لدراسة الثوابت والمتغيرات فى العلاقات الدولية من جهة، وتقدم لنا نموذجا واضحا لدراسة الاحتلال الاستيطانى وما يمكن أن يفرزه من آثار ونتائج سلبية من جهة أخرى.

وهذا هو موضوع الفصل الرابع.

الفصل الرابع

الحصاد

أثر الحروب الصليبية فى العالم العربى

مدخل - الاستجابة السياسية : قيام الدول العسكرية والتنظيم الاقطاعى. تحول الخلافة إلى واجهة شرعية للدول العسكرية. الدور التاريخى للدول العسكرية فى مواجهة الصليبيين. الفشل فى إدارة المجتمع على أساس مدنى والتسلط الداخلى - الاستجابة الاجتماعية : السيولة السكانية فى بلاد الشام وأسبابها. الآثار الاجتماعية للحرب. البناء السكانى فى مصر وتطوره فى عصر الحروب الصليبية - الاستجابة الاقتصادية : تدمير الموارد لزراعية فى بعض المناطق - الصناعة - التجارة. تعبئة الموارد فى خدمة الحرب وتكاليفها - تأثير النظام الإقطاعى. زيادة الدور الأوروبى فى التجارة العالمية. التدهور الاقتصادى وانهيار العملة - الاستجابة الثقافية : الاتجاه السلفى والنزوع إلى المحافظة - بروز الصوفية وازدهارها - توقف الإبداع الفكرى وسيادة الاتجاه الاجترارى فى التأليف. ظاهرة الموسوعات والمعاجم. الأدب الشعبى.

لم يكن سقوط عكا تحت سنابك خيول فرسان المماليك سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وما أعقب ذلك من نهاية الوجود الصليبى على أرض فلسطين سوى آخر فصول المواجهة العسكرية الطويلة التى استمرت حوالى قرنين من الزمان، بيد أن هذا الفصل الأخير فى قصة المواجهة العسكرية لم ينته على تراب عكا ورمال الساحل الفلسطينى. إذ انسحبت فلول الصليبيين، من القادة والفرسان، إلى قبرص ورودس لتتخذهما مقرا للقرصنة والإغارات السريعة على شواطئ الشام ومصر فى القرن الرابع عشر الميلادى، وبداية القرن الخامس عشر الميلادى. وقد تكفلت دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) بمواجهة هذا العبث الصليبى. وكان مشهد ملك

قبرص الصليبى من آل لوزنيان، وهو يمشى ذليلا والأصفاد تكبله فى شوارع القاهرة فى القرن الخامس عشر الميلادى، إعلانا بنهاية المواجهة العسكرية.

بيد أن هذه ليست كل القصة..

إذ إن خروج الصليبيين من المنطقة العربية، وانتهاء آخر فصول المواجهة العسكرية لم يكونا ليحولا دون تفاعل الآثار التى خلفتها الحروب الصليبية على العالم العربى، إذ استمرت تداعياتها تفرز استجاباتها للتحدى الحضارى الذى فرضه العدوان الصليبى على المنطقة العربية والعالم الإسلامى. وقد برز بعض هذه الاستجابات فى زمن مبكر عندما كانت المعارك لاتزال محتدمة فوق رمال الشام، والعراق، ومصر، وشبه الجزيرة، وأخذ بعض الاستجابات الأخرى وقتها اللازم، بحكم طبيعتها، لتفرز فى النهاية ظاهرة واضحة فى تاريخ المنطقة.

ولأن المواجهة الصليبية/ العربية الإسلامية لم تكن مجرد صدام عسكرى، وإنما كانت صداما بين حضارتين، فإن الاستجابات التى خلفتها هذه المواجهة تجلت فى عدة مستويات سياسية وعسكرية، واقتصادية واجتماعية، وثقافية. ومن نافلة القول أن ننبه إلى أن التفاعل بين هذه الجوانب جميعا أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع. وفى هذا الفصل سنحاول رصد تأثير الحروب الصليبية فى العالم العربى؛ سياسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا.

وتبرز الاستجابة السياسية للتحدى الذى فرضه العدوان الصليبى على العالم العربى فى الحقيقة القائلة إن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عمليا فى خضم الصراع ضد الفرنج على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الدينى والواجهة الشرعية. ومع أننا نسلم بأن عوامل التدهور والأضمحلال كانت تهدم نموذج دولة الخلافة، وتنخر فى بنيانه منذ فترة قبل الحروب الصليبية، فإن حقائق المواجهة العسكرية السياسية كرست نموذج

الدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب بدلا من الدولة التي يقودها خليفة لا يتمتع بأى سلطة حقيقية مثلما كان حال كل من الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة عندما بدأت قوات الصليبيين تطأ أرض المنطقة العربية.

ومن ناحية أخرى، فإن أول ما يلفت النظر فى تاريخ الحروب الصليبية هو ذلك التشرذم السياسى والتفرق والتنازع التى سادت المنطقة قبيل قدوم الحملة الأولى وبعدها بحوالى نصف قرن من الزمان. لقد أدرك العالم العربى - وقد حدث هذا بعد خمسين سنة من قدوم الصليبيين - أن مؤسساته السياسية القائمة (سواء كانت ممثلة فى نظام الخلافة، أو فى الإمارات والدويلات التى مزقت بلاد الشام والجزيرة عشية الحروب الصليبية) غير قادرة على قيادته سياسية وعسكريا فى مواجهة الهجوم الصليبى الاستيطانى. وأدان الرأى العام تخاذل الخليفة العباسى عندما توجه إليه عدد من أهل الشام بصحبة القاضى «أبى سعد الهروى» بعد سقوط بيت المقدس بأيدى الصليبيين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. كما راعهم موقف الخلافة الفاطمية التى انتهزت فرصة التوغل الصليبى فى شمال الشام، وأرسلت سفارة إليهم، وهم أمام أنطاكية، تفاوضهم من أجل اقتسام النفوذ والسيطرة على حساب السلاجقة السنة. أما موقف الأمراء الصغار، من حكام المدن والإمارات الصغيرة فى بلاد الشام، فكان أكثر سوءًا بطبيعة الحال. ولم يكن هذا كله سوى تعبير واقعى عن ميراث قرن من الحروب المتبادلة، والشك والحقد والمرارة التى نجمت عن التشرذم السياسى فى المنطقة العربية.

وهكذا، شاءت تطورات الأحداث التاريخية، وتزايد إحساس الرأى العام بمدى خطورة الهجوم الصليبى، إلى فرض صياغة سياسية جديدة تضع الدولة الموحدة بدلا من الكيانات السياسية الهزيلة المبعثرة، وتقوم على أسس عسكرية تضع كل الموارد فى خدمة المجهود الحربى تحت قيادة ملك محارب يقود جيوشه فى الميدان بنفسه بدلا من نموذج الخلافة الذى صار الخليفة فيه إسما لا معنى تحته على حد تعبير ابن الأثير

- ، ولم يعد قادرا على قيادة الأمة سياسيا أو عسكريا. ولم يكن غريبا أن تذوب هذه الإمارات الصغيرة فى خضم الصراع الإسلامى/الصليبى، وتحت وطأة الاتجاه الوحدوى الذى بدأ واضحا منذ أتابكية عماد الدين زنكى ودولة ابنه نور الدين محمود، ثم تكرس فى عهد صلاح الدين الأيوبى، وأصبح راسخا منذ بداية عصر سلاطين المماليك.

حقيقة أن الخلافة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) هى التى سقطت فى خضم الحروب والصراع ضد الصليبيين، ولكن الخلافة العباسية كانت هى الأخرى قد تضاءلت فى قيمتها السياسية ودورها التاريخى حتى صارت مجرد رمز عاطفى يدل على ماضى التاريخ المجيد، ورمزا دينيا عاطفيا يشير إلى عظمة الأيام الخوالى، بيد أنها لم تعد أكثر من واجهة شرعية تستمد منها الدول العسكرية، التى قامت لتقود الصراع ضد الصليبيين، التأييد لكسب ولاء رعاياها. وحين سقطت الخلافة العباسية فعلا فى منتطف القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى حرص السلطان الظاهر بيبرس على إعادتها فى القاهرة واجهة شرعية لحكم سلاطين المماليك. وتكرس هذا الوجود الرمزى للخلافة العباسية فى القاهرة حتى دخول العثمانيين القاهرة سنة ٩٢٢هـ/١٥١٧م.

وربما يكون مفيدا أن نعرض لتفاصيل الأحداث التاريخية التى نعتقد أنها تؤكد هذا الفرض الذى ذهبنا إليه.

كانت الخلافة العباسية قد بدأت منحنى التدهور والأفول قبل قدوم جيوش الحملة الصليبية الأولى بزمن طويل، بيد أن النتائج السياسية لضعف الخلافة العباسية لم تصبح واضحة إلا فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. ففى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م نجح الفاطميون فى انتزاع مصر من الخلافة العباسية، ولم يلبثوا أن أخذوا يتوسعون على حسابها فى المنطقة العربية، ولاسيما فى فلسطين وبلاد الشام. وهكذا، قامت خلافة شيعية فى القاهرة لتنافس الخلافة السنية فى بغداد، وتنازعها

السلطان والنفوذ. وعلى مدى حوالى قرنين من الزمان ظلت المنطقة العربية نهبا للنزاع بين القاهرة الفاطمية وبغداد السنية. وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى بلغ النزاع ذروته؛ عندما قام أبو الحارث البساسيرى بانقلاب داخل بغداد السنية لصالح الخلافة الفاطمية الشيعية، وأقام الخطبة للمستنصر الفاطمى على حين اعتقل الخليفة القائم العباسى. واستنجد الخليفة العباسى بالقائد السلجوقى طغرل بك الذى دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، ثم تمكن من القضاء على البساسيرى بعد فترة من الوقت.[١] وبذلك صار السلاجقة القوة الحقيقية المسيطرة فى بغداد. وبينما تحول الخليفة إلى مجرد رمز وواجهة شرعية كان السلطان السلجوقى هو الحاكم الفعلى فى تلك الأنحاء التى امتدت فيما بين خراسان وبلاد الشام.

وقد اكتسبت الدولة السلجوقية حيوية عسكرية دافقة جعلتها تتوسع منذ وقت مبكر شمالا وغربا على حساب كل من الأرمن والبيزنطيين، ثم الفاطميين الذين فقدوا أملاكهم كلها فى بلاد الشام تحت وطأة الهجوم السلجوقى، بيد أن الانقسام ما لبث أن نشب بين الدول والإمارات السلجوقية التى قامت نتيجة توسعاتهم الباكرة. وحين قدم الصليبيون إلى المنطقة فشل السلاجقة فى توحيد جهودهم إزاء الهجوم الصليبى. وكانت هزيمتهم فى ضورروليوم، ثم ضياع نيقية، وأنطاكية... وغيرها[٢] فى خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى مؤشرا على فشلهم فى عمل موحد، ودليلا على أن

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ٢، (تحقيق الدكتور محمد حلمى، القاهرة، ١٩٧١)، ص ٢٣٢-٢٣٤، ص ٢٣٦-٢٣٧، ص ٢٥٧. ويعلق المقريزى على هذا بقوله «... وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية، فإن الشام خرجت من أيديهم بعد قليل لاستيلاء الترك عليها، ولم يبق بيدهم غير مصر خاصة». انظر أيضاً: ابن ميسر، أخبار مصر (نشرة هنرى ماسيه، القاهرة، ١٩١٩)، جـ٢، ص٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية)، جـ٥، ص ١١-١٢؛ راجع الفصل الثانى من هذه الدراسة.

(٢) راجع الفصل الثالث من هذه الدراسة.

تراث الفرقة والتشرذم الذى ساد فترة طويلة قبل قدوم الصليبيين كان لايزال يعوق أى عمل وحدوى على الرغم من أن الطابع العسكرى للدول والإمارات السلجوقية كان هو الأساس الذى قامت عليه الدول العسكرية الكبرى فيما بعد؛ مثل دولة نور الدين محمود، ثم دولة الأيوبيين، فدولة سلاطين المماليك.

وفى خضم هذه الأحداث جميعا لا يجد الباحث أى إشارة تدل على وجود دور إيجابى للخلافة العباسية. بل إن ما رواه ابن الأثير من تخاذل الخليفة العباسى وعجزه عن فعل شئ إزاء سقوط القدس سنة ٤٩٢هـ[٣] يؤكد أن الدور التاريخى لدولة الخلافة، ونموذجها السياسى، كانا قد تجمدا منذ فترة، وعجزا عن مواجهة التحدى الذى فرضه العدوان الصليبى. وتحملت إمارات السلاجقة العبء الأكبر فى مواجهة الموجات الصليبية الأولى، ولكن عجزها عن الاتحاد جعل كل جهودها العسكرية تفشل فى القضاء على الكيانات الصليبية على الرغم من بعض الانتصارات الباهرة التى حققها السلاجقة ضد الفرنج.

أما الخلافة الفاطمية فى القاهرة فقد كانت أحوالها الداخلية تنبئ عن أن الخلفاء لم يعد لهم من الأمر شئ، وأن الخلافة صارت تحت حكم الوزراء الذين اغتصبوا السلطة لأنفسهم على حساب الخلفاء الضعفاء. وقد ذكر المقريزى أن بداية ضعف الخلافة الفاطمية يرجع إلى الاشتباكات المسلحة بين الأتراك والجنود السود سنة ٤٥٤هـ.[٤] وعلى أى حال كان الأفضل بن بدر الجمالى هو صاحب السلطة الفعلية عندما جاءت

---

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٩.

(٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ٢، ص ٢٦٥-٢٦٧. ويضع المقريزى عنوانا له دلالته على هذه الحادثة هو : «ذكر ابتداء الفتنة التى آلت إلى خراب ديار مصر». وقد استمرت هذه الأحداث عدة سنوات، وأدت إلى ضياع هيبة الخليفة المستنصر، إذ يذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤٦٠هـ ما نصه : «اشتد البلاء على المستنصر بقوة الأتراك عليه، وطمعهم فيه، فانخرق ناموسه، وتناقصت حرمته، وقلت مهابته...». انظر : المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٧٥.

جيوش الفرنج إلى المنطقة، ولم يعد للخلفاء من شئ سوى لقب الخليفة الفارغ من أى معنى.(٥) وكان هذا يعنى، فى التحليل الأخير، أن دولة الخلافة الفاطمية فقدت دورها التاريخى، وقد جاءت أحداث الحملة الصليبية الأولى وما بعدها لكى تؤكد أن نموذج الدولة، التى يحكمها خليفة ليس له من الأمر شئ، قد دخل متحف التاريخ.

وقد تجسد الفشل السياسى الأكبر للفاطميين فى موقفهم من الصليبيين، إذ إن استئثار الوزراء بالسلطة من دون الخلفاء، ثم تعاظم الصراع على كرسى الوزارة أدى إلى نتيجتين غاية فى السوء؛ سياسيا وعسكريا. فقد فشل الأفضل فى إدراك حقيقة الخطر الصليبى، كما أن اغتياله سنة ٥١٥هـ/١١٢١م جعل مصر تدخل فى دوامة شريرة من المؤامرات والاغتيالات فى سبيل كرسى الوزارة. وفى خضم الصراع بين شاور وضرغام على هذا الكرسى استنجد أحدهما بنور الدين محمود وقوات المسلمين، واستنجد الآخرين بالصليبيين. وكانت النتيجة النهائية أن سقطت الخلافة الفاطمية فى خضم الصراع. وحلت محلها دولة عسكرية هى دولة الأيوبيين التى شادها صلاح الدين الأيوبى على أسس عسكرية محضة على الرغم من تمسكه بتبعية شكلية للخلافة العباسية الواهنة فى بغداد.

هكذا أثبتت الأحداث التاريخية التى جرت فى المرحلة الأولى من المواجهة العربية/الصليبية أن دولتى الخلافة (العباسية والفاطمية) ليستا النموذج الأمثل

---

(٥) هناك روايات عديدة فى المصادر التاريخية تحكى عن تعاظم قوة الوزراء على حساب الخلفاء الفاطميين، ففى حديثه عن الخليفة الحافظ الفاطمى ذكر ابن الأثير أن وزيره الأفضل كان صاحب السلطة، «...وبقى الحافظ اسم لا معنى تحته...». «انظر : الكامل فى التاريخ جـ٨، ص٣٣٢؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٨-٢٢٩؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ٣، ص١١، حيث يذكر كيفية جلوس المستعلى على عرش الخلافة الفاطمية» «وذلك أن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلى، وبعث فاحضر إليه نزارا، وعبدالله، وإسماعيل، أولاد المستنصر، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض...».

لقيادة الأمة العربية الإسلامية فى مواجهة هجوم الصليبيين. وفرضت الأحداث التاريخية نمط الدولة العسكرية بديلا مناسبا، بشرط أن يقوم بتوحيد الجهود، فى مواجهة الصليبيين. وكانت دولة عماد الدين زنكى[٦] التى ارتكزت على محور الموصل/حلب هى السابقة التاريخية، أو التجربة الأولى فى صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية قائد واحد يقود جيشه بنفسه فى ميدان الحرب.

لقد تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) ليقود دولته الصغيرة فى الموصل نحو هدف مزدوج : توحيد الجهود العربية الإسلامية، وطرد الصليبيين. ومن ثم برزت أتابكية الموصل باعتبارها الدولة العسكرية التى تسعى لتحقيق هذا الهدف المزدوج من ناحية، وباعتبارها سابقة لدولة الأيوبيين ودولة سلاطين المماليك اللتين تولتا إدارة الصراع فى أدواره التالية من ناحية أخرى. وعندما استولى على حلب فى العام التالى بدأ العمل العسكرى ضد الصليبيين على محور الموصل/حلب يحقق تقدما فى الضغط على الصليبيين فى الرها وأنطاكية وشمال الشام. وعندما توجت جهود عماد الدين زنكى ودولته العسكرية باستعادة الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م كان ذلك تكريسا للنموذج السياسى الذى تجسد فى دولته.[٧]

وقد واصل نور الدين محمود سياسة أبيه ودعم اتجاهات دولته العسكرية الساعية

---

(٦) قبل قيام دولة عماد الدين زنكى كانت ثمة محاولات سلجوقية لتوحيد الجهود ضد الفرنج أخطرها ما قام به مودود أمير الموصل فى مطلع القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى، بيد أن اغتياله سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م أوقف هذه الجهود - أنظر :

ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٢٦٦؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٨٧-١٨٨؛

Fulcher de Charters, pp. 205-9; William of Tyre, II, pp. 493-9.

راجع الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(٧) عن دولة عماد الدين زنكى ودوره فى قتال الصليبيين، أنظر :

Gibb, "Zengi and the Fall of Edessa" in Setton, I, pp. 449-6.

وعليه الجنزورى، إمارة الرها الصليبية، ص ٣٠١-٣٠٨.

إلى توحيد الجهود الإسلامية فى مواجهة الصليبيين. وعندما نجح نور الدين محمود فى دخول دمشق سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) كانت تلك خطوة هامة فى سبيل تكريس نموذج الدولة العسكرية التى بدأها أبوه. وقد ثبت نجاح هذا النموذج فى الضغط على الصليبيين فى الشمال، فاتجهوا صوب الخلافة الفاطمية المتداعية فى الجنوب. وتسابق الصليبيون بقيادة أماريك الأول ملك بيت المقدس الصليبى، والمسلمون بقيادة نور الدين محمود (الذى أرسل جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبى) للفوز بمصر.[٨] وكانت أهم نتائج هذا الصراع اختفاء الخلافة الفاطمية، وتكريس نموذج الدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب. لقد باتت الدولة الموحدة تضم خمس عواصم عربية كبرى هى القاهرة، ودمشق، وحلب، والموصل. والرها.

وبذلك بدأت مرحلة جديدة من الصراع ضد الصليبيين؛ إذ رسخ نموذج الدولة الجديدة تماما، وتضاءل دور الخلافة العباسية إلى مجرد منح الموافقة والبركة وإضفاء الشرعية على الكيان السياسى الموحد الجديد الذى قاده السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وحتى سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) كان قائد هذه المرحلة يبسط سلطان دولته على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات. وهكذا توفرت إمكانية النجاح فى القضاء على الوجود الصليبى للمرة الأولى على هذا النحو.

لقد بنى صلاح الدين الأيوبى دولته على أساس من الوحدة الأيديولوجية والأخلاقية للعالم الإسلامى. وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة التى امتدت من شمال العراق وديار بكر حتى اليمن جنوبا، ومن الفرات فى الشرق حتى النيل فى الغرب،[٩] مع سلطة روحية ومعنوية شملت كل أنحاء المنطقة

---

(٨) راجع تفضيلات هذه الأحداث فى الفصل الثالث.

(٩) عن صلاح الدين الأيوبى وحياته راجع :

ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، (تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤)؛ الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، =

العربية والعالم الإسلامى. وفى كل خطواته لبناء دولته كان صلاح الدين حريصا على أن يحصل على موافقة الخلافة العباسية ومباركتها على الرغم من معرفته التامة بمدى ضعف هذه الخلافة.(١٠) وكان هذا الموقف من جانبه تعبيرا عن مهارته السياسية وإدراكه لأهمية هذه الواجهة الشرعية فى تعبئة المنطقة تحت قيادته.

لقد قامت دولة صلاح الدين فى الأصل على أساس أن الحرب ضرورة دائمة، ومن ثم فإنه وزع مسؤوليات الحكم بمستوياتها المختلفة على أساس من شرط الالتزامات العسكرية؛ إذ تولى أفراد عائلته حكومات الأقاليم داخل دولته الكبيرة بشرط المساهمة فى نفقات الحرب ضد الصليبيين، والابقاء على جيوشهم فى حال الاستعداد الدائم للنزول إلى ميدان القتال.(١١) وقامت شهرة صلاح الدين على إنجازاته العسكرية التى تجسدت فى معركة حطين سنة (٥٨٢هـ/١١٨٧م)، واسترداد القدس فى السنة نفسها. وكانت هذه الإنجازات العسكرية هى الأساس الذى قامت عليه الدولة الأيوبية عسكرية

= (تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، ١٩٦٥)؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (طبعة دار الجبل - بيروت)، جـ١، ص ١٦٤-٢٧٩؛ جـ٢، ص١-٢٤٥؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤١-١١٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص ٣٨١-٣٨٩.

وهناك دراسات عديدة بالعربية واللغات الأجنبية عن صلاح الدين.

(١٠) فى سنة ٥٧٠هـ كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسى فى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر. و «طلب من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه، فوافته بحماة رسل الخليفة المستضئ بأمر الله، بالتشريف، والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة مصر والشام وغيرهما» المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٥٩-٦٠؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص ٢٤١. وقد تكرر هذا الأمر كثيراً طوال محاولات صلاح الدين توحيد المنطقة تحت حكمه.

(١١) يتضح من الأحداث التى سبقت معركة حطين وحتى نهاية حياة صلاح الدين أنه كان يكتب «إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد» قبل كل معركة كبيرة. راجع : ابن شداد، النوادر السلطانية، فى صفحات كثيرة متفرقة من الكتاب؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٩٢-٩٣، ص ٩٥-٩٦، ص٩٩، ص ١٠٢-١٠٣.

الطابع والهدف والتنظيم.[١٢] لقد كانت دولته دولة ذات طابع حربى صرف، بحيث كرست كل مواردها لخدمة الهدف العسكرى وهو محاربة الصليبيين لاخراجهم من المنطقة.

لقد كان مبرر قيام الدولة الأيوبية هو دورها التاريخى فى مواجهة الهجوم الصليبى، وكان هذا الدور التاريخى هو الذى أضفى عليها الشرعية فى نظر رعاياها، كما كان هو مبرر وجودها واستمرارها. بيد أن وفاة صلاح الدين الأيوبى أحدثت فراغا سياسيا كبيراً فى المنطقة العربية، إذ تفسخت دولته فى الحال بين أفراد أسرته الذين اقتسموا الحكم بمنطق الورثة الذين يهم كلا منهم الفوز بأكبر قدر من التركة دون أن يحفل بالمصير المشترك للجميع. وكانت النتيجة المباشرة لهذا التفكك السياسى أن تفككت دولة صلاح الدين إلى عدة إمارات منفصلة ومتنازعة. وبدا كأن الأمور قد عادت إلى الوراء، وأن جهود عماد زنكى، ونور الدين، وصلاح الدين قد ذهبت أدراج الرياح. بيد أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعا من الوحدة على الأيوبيين فى مصر والشام.

ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين كان يميل إلى مهادنة الصليبيين. ويعنى هذا فى التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخى الذى هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظرأن الدولة الأيوبية التى ظهرت على مسرح التاريخ، لأن مؤسسها صلاح الدين الأيوبى قد التزم بهذا الدور التاريخى، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بنى أيوب وسلاطينهم يتخلون عن هذا الدور بشكل أو بآخر. وعلى الرغم من جهود العادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين فالواضح أنها كانت جهودا دفاعية تأتى رد فعل للهجمات

---

(١٢) ذكر أبو شامة عبارة هامة فى هذا الصدد (جـ٢، ص١٧٧) نصها : «... فقد أنفق المولى (يقصد صلاح الدين) مال مصر فى فتح الشام، وأنفق مال الشام فى فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع فى فتح الساحل...».

والحملات الصليبية.[١٣] ومثلما برزت الدولة الأيوبية فى خضم الصراع ضد الصلبيين، فإن سقوطها فى مصر- ثم فى بلاد الشام بعد ذلك- جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخى للدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب.... وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة لنجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية فى مواجهة الصليبيين.

وينبغى أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية، وقيام دولة سلاطين المماليك لم يغيرا من اتجاه حركة التاريخ فى المنطقة.فالواقع أن دولة سلاطين المماليك كانت امتدادا للدولة الأيوبية فى بنائها، وطبيعتها العسكرية، والأسس السياسية/ الاقتصادية التى قامت عليها. كما أنها ورثت دورها فى قتال الصليبيين.

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م بأسر الملك لويس التاسع، وتبدد جيشه بين الأسر والقتل عقب الهزيمة الفادحة التى ألحقها به الجيش المصرى فى المنصورة وفارسكور، بمثابة ارهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك. وقد برز زعماء المماليك البحرية[١٤] من أمثال: فارس الدين أقطاى، وعز الدين أيبك، وبيبرس البندقدارى خلال المعارك ضد الصليبين، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة.

وعلى الرغم من أنهم حافظوا على العرش للسلطان توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب حتى يصل إلى مصر إلا أن السلطان الأيوبى الجديد جاء إخفاقا أيوبيا جديدا. وبدلامن الانصراف لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبى تماما بدأ سلسلة جديدة من المؤامرات والدسائس. وانتهى الأمر فى صباح يوم الاثنين ٢٧ محرم ٦٤٨هـ/ ٢١مايو ١٢٥٠م بمصرع توران شاه على أيدى أربعة من كبار أمراء المماليك

---

(١٣) راجعالفصل الثالث. وأيضاً :

Hamilton A.R. Gibb, "The Ayyubids", in Setton, II, pp. 6-714.

(١٤) عن المماليك البحرية ودورهم فى تلك الفترة، انظر :

أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، (بيروت، ١٩٨٦) ص٩٦-١٠٠.

على نحو مأساوى مروع؛ فقد مات آخر الأيوبيين« ...جريحا غريقا محترقا... »على حد تعبير المقريزى.(١٥)

تبددت دماء توران شاه مع موجات مياه النيل، ومعها تبددت آخر مظاهر حكم دولة الأيوبيين فى مصر؛ ولكن أبناء الأسرة الأيوبية كانوا لا يزالون فوق عروشهم الصغيرة فى إماراتهم ببلاد الشام وأعالى العراق، إلا أن زوالهم عن مسرح التاريخ بات مسألة وقت لا غير، إذإن دورهم التاريخى قد انتهى عندما تخلوا عن الأساس الذى قامت عليه دولتهم زمن صلاح الدين، أى قيادة الحرب ضد الصليبيين.

لقد كان القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى أخطر فترة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق، إذ تعين على العالم آنذاك أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء. ففى الأندلس كانت المساحة الأسلامية على خريطة أسبانيا تتراجع أمام الهجوم الكاثوليكى. وفى الوقت الذى كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولاكو تطوى بلدان المشرق الإسلامى، وتقترب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة فى بغداد.

وإذا كانت انتصارات المماليك فى المنصورة وفارسكور سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) هى صرخة الميلاد للدولة المملوكية فإن معركة عين جالوت(١٦) التى حسرت المد المغولى سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٦٠م كانت تأكيدا للدور التاريخى الذى ينتظر دولة سلاطين المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى.لقد كانت ظروف العالم الإسلامى

---

(١٥) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(١٦) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٤٢٢-٤٣٤؛ أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٤٥-١٧٢؛

Claude Cahen, "The Mongols and the Near East", in Setton, II, pp. 715-732.

حيث يناقش غزوهم وهزيمتهم، ثم الدول التى قامت نتيجة وجودهم فى المشرق الإسلامى.

في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى تستوجب قيام دولة عسكرية موحدة على غرار دولة صلاح الدين الأيوبى تتولى قيادة العالم العربى الإسلامي تحت راية قائد عسكرى وزعيم سياسى يقود جيشه ويخوض المعارك، ويدير الأحوال الداخلية. ولم يكن الأمراء الأيوبيون قادرين على القيام بهذا الدور التاريخى.

وكان سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ومصرع الخليفة المستعصم بالله العباسى(١٧) حدثا زلزل أركان العالم الإسلامى، كما كانا تعبيرا عن تغيرات كبيرة فى موازين القوة العالمية. وكان على دولة سلاطين المماليك الناشئة أن تؤكد جدارتها بالدور التاريخى الذى انتزعته من الأيوبيين. وتحت قيادة «السلطان المظفر سيف الدين قطز» تمكن الجيش المصرى من كسر الموجة التترية الطاغية،(١٨) وبذلك تأكد دور دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الحامية للعالم الإسلامى.

ومرة أخرى تأكد الدور الرمزى والعاطفى للخلافة العباسية. فمنذ البداية حاول السلطان المعز أيبك أن يعلن تبعيته للخليفة العباسى ليكون سندا له فى صراعه ضد الأمراء الأيبين، ثم كان إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م)(١٩)

---

(١٧) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٠٩-٤١٠.

(١٨) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (دار المعارف - القاهرة، ١٩٦٧) ص ١٧١-١٧٢.

(١٩) ابن أيبك الدوادار، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، (تحقيق رويمر) ص ٧٢-٨٠؛ النويرى - نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ٥٤٩، معارف عامة) جـ٢٨، ورقة ١٨؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ٣٢٨-٣٢٩.

وقد أورد المقريزى فى كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٥٣-٤٥٧) نص الوثيقة التى حصل الظاهر بيبرس بمقتضاها على تفويض من الخليفة العباسى.

قارن :

ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦)، ص ٩٩-١٠٠. وقد ضمن ابن عبدالظاهر كتابه نص التقليد الذى فوض به الخليفة العباسى المستنصر بالله السلطان الظاهر بيبرس، وأهم ما يلفت النظر فيه التكليف بالجهاد وحفظ الثغور.

بمثابة الحل السعيد الذى وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التى قامت بدور هائل فى تصفية الوجود الصليبى.[٢٠] وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين فى القاهرة لم يكن لهم من الخلافة شئ سوى اسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى العتقال.

وتمكنت الدولة الجديدة بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أن تغير مصير المنطقة فى أكثر من اتجاه، إذ طاردت فلول المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل اتجاه. وعلى الرغم من الضجة التى أحدثها المغول فى تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامى لم يكن كبيرا مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدهم صراع وجود. ويتأكد هذا الفرض من خلال الحقيقة القائلة إن المغول الذين غزوا المشرق الإسلامى لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

ولم يلبث بيبرس أن هاجم الممتلكات الصليبية،ثم خلفه السلطان المنصور قلاوون، وأبنه الأشرف خليل، وانتهى الوجود الصليبيى فوق الأرض العربية فى سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م).

وهكذا نجحت الدولة المملوكية فى القيام بدوها التاريخى الذى كان امتدادا وتطورا لدور كل من الزنكيين والأيوبيين، بيد أن هذا الدور التاريخى الذى نجح فى القضاء على الوجود الصليبيى فى المنطقة العربية كان يستلزم إعادة صياغة البنية السياسية والاقتصادية على أساس أن الحرب حقيقة دائمة من حقائق الحياة فى ذلك العصر. وهو ما يعنى ضرورة ايجاد نظام قادر على تعبئة الجيوش واعالتها على النحو الذى يجعلها دائما من الاستعداد الدائم لخوض القتال، ولم يكن هناك نظام أفضل من النظام الإقطاعى العسكرى....»

(٢٠) راجع الفصل الثالث.

كان نظام الجيش الإسلامى الباكر يقوم على أساس من عقيدة الجهاد، وكان هذا يعنى على مستوى الواقع تعبئة كل القادرين للعمل فى الجيش. بيد أن التطورات السياسية والاجتماعية والإدارية الناجمة عن حركة الفتوح الإسلامية من ناحية، وما حدث فى بنية الدولة من تقدم نأى بها عن البساطة الأولى من ناحية ثانية، أدت إلى تطورات أخرى على الصعيد العسكرى. فقد بدأت العناصر الفارسية والتركية والزنجية تدخل فى تركيب الجيوش الإسلامية. وبدأ فى العصر العباسى نوع من الإقطاع الإدارى الذى كان الخلفية التى خرج منها الإقطاع العسكرى فيمابعد.

وكان السلاجقة هم أول من استبدل العطاء النقدى للجنود بالإقطاع وتروى المصادر التاريخية أن الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك كان أول من أقطع الإقطاعات للمماليك لأتراك.[٢١] وقد أدخل السلاجقة عدة تعديلات جوهرية على أشكال الإقطاع التى كانت سائدة قبلهم. وأدخلوا الخدمة العسكرية مقابل الإقطاع الذى يجعل المستفيد يملك الموارد العامة فى الإقطاع الممنوح له، أى أنه ملتزما بأن يصطحب معه عددا من الجنود يتناسب تناسبا طرديا مع حجم الإقطاع. ولكن هذا الشكل الفضفاض للإقطاع العسكرى كان مختلطا بأنماط أخرى من الإقطاع أهمها: الإقطاع الإدارى.[٢٢] وقد أدى هذا الوضع إلى ضعف الجيوش السلجوقية،إذ كانت العمليات العسكرية الكبرى تتطلب تجميع جيوش مركبة من جيوش الأمراء أصحاب الإقطاعات الإدراية، ولم تكن هذه الجيوش مركبة تخضع لقيادة السلطان نفسه، مما جعلها فى كثير من الأحوال مجرد تحالف بين كبار الأمراء، مما كان يصيب جهود السلاجقة بالشلل العسكرى فى مواجهة الصليبيين. ولعل أوضح مثال على ذلك فشل الجيش المركب

(٢١) صدر الدين أبو الحسن، الدولة السلجوقية (نشر محمد إقبال، لاهور، ١٩٢٣)، ص ٦٨؛ الأصفهانى، دولة آل سلجوق (القاهرة، ١٩٠٠) ص ٥٥؛ أحمد مختارالعبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٧٥-٧٧.

(٢٢) R.C. Smail, Crusading Warfare, 1097-1193, (Cambridge University Press, 1978), pp. 65-66.

الذى قاده كربوقا فى القضاء على الفرنج فى أنطاكية سنة ١٠٩٨ ميلادية، على الرغم من الحال البائسة التى تدهوروا إليها.[٢٣]

بيد أن عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود سارا شوطا جديدا فى بناء جيوشهما على أساس النظام الإقطاعى العسكرى. فقد اعتمد عماد الدين زنكى على قوته العسكرية الخاصة، وربط الإقطاع بالخدمة العسكرية والولاء الشخصى، وبذلك نجح فى تحقيق انتصاره الهام على الصليبيين فى الرها سنة ١١٤٤م. وفى عصر نور الدين محمود كانت هذه الإقطاعات وراثية، كما كانت هناك سجلات تبين عدد الرجال والعتاد الذين كان على كل أمير صاحب إقطاع أن يقدمهم لجيش نور الدين.[٢٤] ويبدو أن صلاح الدين الأيوبى قد سارعلى نهج نور الدين محمود، وأبقى الإقطاعات الوراثية. ومن الواضح أن الإقطاع العسكرى زمن صلاح الدين ارتكز على الأرض الزراعية فضلا عن«الجامكيات»، أى الرواتب النقدية والعينية التى كانت تمنح للأجناد والفرسان الصغار، وكانت تلك الجامكيات تمنح فى العصر الأيوبى لمن لا يأخذون إقطاعات.[٢٥]

---

(٢٣) انظر الفصل الثالث.

(٢٤) ذكر المقريزى، فى حوادث سنة ٥٦٩هـ أن نور الدين أرسل يطلب من صلاح الدين الحساب «... عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصل له من الارتفاع...» «فعرض على رسول نور الدين الأجناد وعرفه مبلغ اقطاعياتهم وجامكياتهم، ورواتب نفقاتهم، انظر : المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٥٢.
راجع أيضاً : أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص٥٧-٥٨، ص ٦٩، ص ٨٩، حيث يورد بعض الأمثلة على كيفية استدعاء جيوش أصحاب الاقطاعات؛ أنظر كذلك : ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣) ص ٣٠٨.

(٢٥) ابن مماتى، قوانين الدواوين (تحقيق الدكتورعزيز سوريال عطية)، ص ٣٥٤-٣٥٥؛ وقد ذكر القلقشندى (صبح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ٢، ص٤٥٧) الجامكية بأنها رواتب نقدية عندما ذكر أن نفقة مماليك السلطان هى : «... جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك...». وهو ما يعنى أن الجامكية كانت راتباً نقدياً.

لقد كانت فترة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود بمثابة الفترة الانتقالية فى تطور التنظيم الإقطاعى العسكرى باعتباره الوسيلة الفعالة لتعبئة الجيوش واعالتها تحت قيادة مركزية، إذ أن التحالفات العسكرية التى قامت بين جيوش أمراء السلاجقة التى قامت على أساس من الإقطاع الإدارى الفضفاض عجزت عن إنجاز أى نصر حاسم فى مواجهة الصليبيين. وعندما تطور التنظيم الإقطاعى خطوة تحت قيادة عماد الدين زنكى ونور الدين كان عنصر«الإقطاع» والولاء الشخصى لمانح الإقطاع من أهم عناصر التنظيم الإقطاعى،وأصبحت الالتزامات الإقطاعية بتقديم الخدمة العسكرية أكثر دقة وتنظيما فى عهد نور الدين محمود. وعلى الرغم من أن الدولة الأيوبية كانت استمرارا فى نظامها الإدارى وبنائها الإقطاعى العسكرى لدولة أتابكة الموصل على نحو ما أوضح القلقشندى وغيره من المؤرخين الإ أن صلاح الدين الأيوبى وخلفاءه ساروا بالتنظيم الإقطاعى العسكرى خطوة أبعد فى سبيل جعله أكثر قدرة على مؤاءمة التطورات العسكرية، ومواجهة ضرورات الحرب ضد الصليبيين

كان لصلاح الدين جيشه الخاص، بيد أنه كان يعتمد أيضا على جيوش أتباعه من حكام الولايات فى دولته الكبرى، ومنهم إخوانه وأقاربه وأبناؤه، وكانت هذة الجيوش قائمة على أسس إقطاعية جمعت بين الإقطاع الشخصى والإقطاع الوراثى.[٢٦] بيد أن أهم التطورات فى التنظيم الإقطاعى زمن صلاح الدين الأيوبى تمثلت فى أن خيوط العلاقة الإقطاعية تجمعت فى شخص السلطان الذى كان هو السيد

---

(٢٦) انظر ما ذكره ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ١٢١-١٢٣) فى حديثه عن توافد الجيوش الإسلامية أثناء أحداث الحملة الصليبية الثالثة. فقد ذكر وصول عماد الدين زنكى صاحب سنجار: «يجر عسكره»، ثم وصول معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة «... وصل فى عسكر حسن...»، ثم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل مسعود بن مودود، ثم وصول زين الدين صاحب اربل - انظر أيضاً ص ١٢٦-١٢٧، حيث يورد تفصيلا للأمراء وجيوشهم الاقطاعية التى سارت للقتال عند وصول خبر الامبراطور فردريك بربروسا إلى أراضى الدولة البيزنطية، قارن، أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٥٠-١٥١.

الإقطاعي لجميع الأمراء الإقطاعيين، وصار السلطان يعبئ الجيش لكي يقود بنفسه في ميدان القتال. فقد كان من حقه عزل أي أمير عن إقطاعه إذا تخلف عن أداء واجباته العسكرية في الجهاد ضد الصليبيين. ولم يكن ذلك التنظيم الإقطاعي من النمط الذي يقوي نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة المركزية، وانما كان، على العكس، وسيلة فعالة لإحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له تحت وطأة العزل والحرمان من الإقطاع.(٢٧)

وخلال العصر الأيوبي، الذي استمر أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان، جرت على النظام الإقطاعي العسكري عدة تطورات هامة أوصلته إلى شكله الناضج والنهائي في عصر سلاطين المماليك. ولما كان الصليبيون لا يزالون يشكلون خطرا على المنطقة العربية فإنه تعين على سلاطين هذه الدولة مواصلة الحرب ضد الصليبيين اعتمادا على المؤسسات نفسها التي ورثوها عن الأيوبيين، ومن بينها التنظيم الإقطاعي العسكري للدولة بطبيعة الحال.

لقد قام نظام الجيش المملوكي على أساس من العلاقات الاقطاعية التي اتخذت طابع الولاء الشخصي، إذ كان مماليك السلطان، الذين تتكون منهم القوة الرئيسية في الجيش المملوكي، يعسكرون في القاهرة. وكان هذا القسم يتألف أساسا من المماليك

---

(٢٧) الأمثلة كثيرة ومتواترة في المصادر على صدق هذا الفرض، انظر مثلا :

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٨٢ حيث يقول : «وارتجع العادل عن اقطاعه بمصر، وهو سبعمائة ألف دينار في كل سنة، فجهز إليها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، وأنعم على تقي الدين بالفيوم وأعمالها مع القايات وبوش، وأبقى عليه مدينة حماة وجميع أعمالها.

انظر أيضاً : هاملتون جب - دراسات في التاريخ الإسلامي، (حررها يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣)، ص ١٥٧-١٥٩.

الذين اشتراهم السلطان،[٢٨] ثم يضم إليهم مماليك السلاطين السابقين، ومماليك القتلى والمغضوب عليهم من كبار الأمراء، ويمنحهم أكبر الاقطاعات وأعلى الوظائف. وكانت جيوش الأمراء تشكل القسم الثانى من الجيش المملوكى العام. وكان كل أمير يملك جيشا يتناسب مع حجم إقطاعه. وقد تراوحت أعداد هذه الجيوش ما بين ثلاثمائة وثمانمائة فارس فى بداية عصر سلاطين المماليك. وكانت تتمركز خارج القاهرة، إذ كانت موزعة على الولايات فى مصر وبلاد الشام. أما القسم الثالث من الجيش المملوكى فكان يتألف من أجناد الحلقة من «أولاد الناس»، أى الأحرار من أبناء المماليك والتركمان، بالإضافة إلى المصريين. وكان ذلك القسم يقوم بدور أشبه بدور «الحرس الوطنى» حاليا، وقد تضاءلت مكانة أجناد الحلقة فى أواخر ذلك العصر بحيث أخذت منهم إقطاعياتهم.[٢٩]

بيد أن أهم تطور حدث فى النظام الإقطاعى العسكرى هو تحوله إلى إقطاع شخصى غير وراثى. ومنذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (النصف الأول من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى) خضع النظام الإقطاعى المملوكى لعدة تغيرات جوهرية، إذ صار الإقطاع يتوزع بين عدة مناطق، بعد أن كان يتركز فى ناحية

---

(٢٨) فى العصر المملوكى الأول كانت أعداد المماليك الذين يشتريهم السلطان تصل إلى ثمانمائة فى بعض الأحيان، ولكن التدهور الذى شهده عصر المماليك الثانى (الجراكسة) جعل الرقم ينخفض إلى حوالى ثلاثمائة مملوك فى المتوسط. انظر :

قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك (الطبعة الثانية - القاهرة، ١٩٨٣)، ص ١٨.

(٢٩) العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٦ وما بعدها؛ ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر (تحقيق الدكتور حسن حبشى، القاهرة، ١٩٧٠)، ص ٢٣-٢٤، ص ٣٣-٣٤، ص ٤٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٣ (تحقيق محمد مصطفى)، جـ٣، ص ٢٠-٢٣، ص ٣٧؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٨-٢٠.

واحدة، كما كان الإقطاع يتغير بتغير وظيفة صاحبه.[٣٠] وكان الهدف هو مزيد من سيطرة السلطان على الأمراء.

بيد أن هذا التغيير الذى حدث فى النظام الاقطاعى المملوكى حدث بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام والمنطقة العربية بعد هزيمتهم فى عكا. وهو ما يعنى أن النظام الاقطاعى الذى قامت عليه الدول العسكرية التى أفرزتها الضرورة التاريخية فى مواجهة الصليبيين قد بدأ مرحلة التدهور. وعلى الرغم من نجاح الدول العسكرية فى دورها التاريخى والقضاء على الكيان الصليبى إلا أن هذه الدول فشلت فى مواجهة متطلبات الإدارة المدنية، إذ إن الدولة المملوكية، التى تمت صياغة مؤسساتها ونظمها على أساس أن الحرب حقيقة يومية، وعلى أساس أن الخطر الصليبى يستوجب توجيه كافة الموارد نحو الجهد العسكرى، وجدت نفسها فى مواجهة مهمات الإدارة المدنية بعد زوال الوجود الصليبى. وكانت خطوة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى تعديل النظام الاقطاعى تعبيرا عن هذا الموقف.

حقيقة أن ما أحدثه الناصر محمد بن قلاوون قد نجح فى تشديد قبضة السلاطين على الأمراء فى المدى القصير، بيد أنه أثبت أنه كارثة على وجود الدولة نفسها. فقد عزف الأمراء عن الاهتمام بإقطاعاتهم، وقلت انتاجية الأرض الزراعية. وهو الأمر الذى ترك آثاره السلبية على النظام السياسى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك. فبينما قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية، زاد معدل اعتمادهم على الرواتب النقدية والرواتب العينية. ومع تزايد تدهور الإنتاج الزراعى يتزايد عجز الدولة عن سد حاجات فرسان المماليك الذين يوجهون طاقاتهم العسكرية نحو الناس فى الداخل، وتشهد الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك صورا عنيفة من الاستبداد والتسلط، تقابلها مقاومة متصاعدة من الناس، وتدهور اقتصادى، ثم مزيد من الخلل السياسى.

---

(٣٠) المقريزى، الخطط المقريزية، جـ١، ص ٨٠-٩٤.

وتصير السلطنة عبثا يتهرب الجميع من تبعاته...[٣١] وهكذا تنهار دولة سلاطين المماليك من الداخل قبل أن تدهمها جيوش العثمانيين سنة (٩٢٢هـ-١٥١٧م).

هذه هى أهم ملامح التطورات السياسية التى نجمت عن المواجهة ضد الصليبيين، ونخرج منها باستنتاج مؤداه أن الظروف التاريخية التى أفرزت الدولة العسكرية القائمة على أساس من التنظيم الاقطاعى العسكرى قد تغيرت بخروج الصليبيين فى أواخر القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى. ولم تنجح الدولة المملوكية العسكرية فى التوافق مع الظروف التاريخية الجديدة ولكنها مرت بفترة انتقالية، ثم بدأت رحلتها نحو التدهور والأفول فى القرن الأخير من حياتها. وهكذا كان الحصاد السياسى سلبيا فى النهاية.

* * *

لقد كان تأثير الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية واضحا فى بلاد الشام أكثر منه فى أى منطقة أخرى من العالم العربى، إذ إن البنية السكانية، وعلاقات القوى الاجتماعية، والنظام القيمى والأخلاقى قد اهتزت كثيرا نتيجة الاستيطان الصليبى الذى عاش فوق تراب هذه المنطقة حوالى قرنين من الزمان. كما أن الحروب المستمرة تركت تأثيراتها السلبية أيضا.

وفيما يتعلق بطبيعة التركيبة السكانية فى بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية ينبغى أن نلاحظ أمرين غاية فى الأهمية : أولهما الطبيعة الفسيفسائية لبنية السكان، وثانيهما عدم إمكانية بحث هذه الفسيفساء السكانية داخل أطر البحث

---

(٣١) انظر عن عبث المماليك فى عصر الجراكسة :

ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٣، ص ٨٢، ص ٩٣-٩٤، ص ٩٦-١٤٧؛ جـ٤، ص ١٢-١٣، ص ٣٦٣، جـ٥، ص ٤-٧؛ ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص ٣٣-٣٧؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ٣٩-٦١؛ ص ١٤٠-١٤٢، ص ١٥٠-١٧٧.

التقليدية، أو محاولة تفسيرها وفق النظريات و«القوالب» الجاهزة. ويعنى هذا أن الدراسة الوصفية/التحليلية هى التى يمكن أن تعيننا على رؤية الظاهرة فى إطارها التاريخى الموضوعى.

وربما يكون من المناسب أن نوضح أن هذه الفسيفساء السكانية التى ميزت بلاد الشام تفصح عن حقيقة تاريخية غاية فى الأهمية، على الرغم من بساطتها وقربها من البديهيات. فقد كان لموقع بلاد الشام أثره فى جعل هذه المنطقة مسرحا لكل الهجرات والحركات التاريخية الكبرى التى عرفها العالم القديم، كما كان لهذه التفاعلات بدورها أكبر الأثر فى قيام الحضارات الراقية التى عبرت عن نفسها فى المنطقة التى تمتد من جبال طوروس فى الشمال حتى بادية الشام جنوبا، ومن الفرات شرقا حتى مياه البحر المتوسط غربا. وداخل هذه المنطقة الشاسعة سكنت أقوام وجماعات عديدة عبر عصور التاريخ، وساعدتها طبيعة التضاريس المتنوعة على أن تكون بمثابة متحف حى يدل على الأقوام، والحضارات، والأديان، والمذاهب التى عرفتها بلاد الشام طوال تاريخها. وعندما جاءت جيوش الحملة الصليبية الأولى كانت التركيبة السكانية فى بلاد الشام تضم عناصر عربية، وتركية، وكردية، وسوريانية، فضلا عن الأرمن والبيزنطيين. وبينما كانت العناصر العربية تشكل أغلبية السكان[٣٢] كانت عناصر الأتراك السلاجقة

---

(٣٢) كانت للعرب عدة إمارات في مدن بلاد الشام منها إمارة بنى عمار فى طرابلس التى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م بعد حصار دام سبع سنوات، وإمارة بنى شيزر التى دمرها زلزال، ثم ضمها نور الدين محمود لأملاكه سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م. أما القبائل البدوية فقد عاشت على أطراف المناطق الزراعية، وفى الصحراء، ومنهم «بنوطى»، و«بنو كلاب» و«بنو عقيل»، و«بنو عابد»، و«بنو فهيد»، و«بنو أبى»، وغيرهم.

أنظر : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٥٣-٥٥؛ أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى، طبعة بيروت، ١٩٨١) ص جـ ـ ذ من المقدمة، ص ١٢-١٤؛

Philip Hitti, "The Impact of the Crusades on the Moslem Lands", in Setton, V, p. 33; Joshua Prawer, "Social Classes in the Crusader States : the Minorities", in Setton, V, pp. 63-64, 65.

والتركمان تمثل العنصر السكانى الذى يلى العرب فى الأهمية، وقد زادت أهميتهم بفضل نشاطهم العسكرى والإمارات التى نجحوا فى حكمها ببلاد الشام قبيل وأثناء الحروب الصليبية.(٣٣) أما الأكراد فقد كانوا موجودين فى المنطقة قبل قدوم الصليبيين حقا، ولكن أهميتهم الاجتماعية زادت بعد أن صاروا يمثلون أغلبية جيوش صلاح الدين، مما أدى إلى اشتعال العلاقات بينهم وبين التركمان.(٣٤) كذلك يمثل الدروز أحد عناصر السكان الهامة فى بلاد الشام، وعلى الرغم من مشاركتهم فى الحرب ضد الصليبيين إلا أنهم عاشوا حياة أقرب إلي العزلة والانغلاق جعلتهم نهبا لكثير من الأقاويل والروايات المثيرة.(٣٥)

وقد تحدث المؤرخون الصليبيون، والرحالة الذين زاروا بلاد الشام زمن الحروب الصليبية عن مدى تعدد أجناس السكان فى هذه البلاد. وكان أول من تنبه إلى هذه الحقيقة هو فوشيه دى شارتر الذى رافق أحد جيوش الحملة الصليبية الأولى، كما كان شاهدا على تجربة الاستيطان الصليبى فى فلسطين خلال الجيل الأول بعد نجاح الصليبيين فى استيطان الشام. فقد ذكر فوشيه العرب والأتراك والأحباش، واليونان والسوريان، كما تحدث عن مستوطنين فرنسيين، وإنجليز، وايطاليين،(٣٦) كما ذكر ويلبراند (Wilbrand of Oldenbury) سنة ١٢١٢م أن مدينة أنطاكية «... بها سكان كثيرون أغنياء، الفرنج والسوريان واليونان واليهود، والأرمن والمسلمون...». وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب ثييتمار (Thietmar) عن السكان اليونان، واليعاقبة،

---

(٣٣) راجع الفصل الثانى والثالث عن السلاجقة.

(٣٤) أحمد رمضان، المجتمع الشامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٧٧)، ص ٥٥، وعن المشكلات بينهم وبين التركمان أنظر : ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ٩، ص ١٧٠-١٧١.

(٣٥) كتب عنهم الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى بعض هذه الأخبار المثيرة :
The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, (ed. and translated by Marcus N. Adler, (London, 1907), I, p. 61.

(٣٦) Fulcher de Charters, pp. 137-8, 143, 149.

والجورجيين، والأرمن والنساطرة، واليهود والسامرة، والصدوقيين، والحشاشين...».
وفى سنة (١٢٤١م) كتب الفيترى عن عناصر السكان فى بلاد الشام وزاد عليهم الموارنة. كما أن الرحالة بوركهارد (Burchard of Mount Sion) ذكر سنة (١٢٨٣م) المسلمين، والسوريان واليونان، والأرمن والجورجيين، والنساطرة، واليعاقبة، والميديين، والفرس، والأحباش، والمصريين.. وغيرهم كثيرين من الصليبيين.[٣٧] كذلك قال الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار بيت المقدس حوالى سنة (١١٦٧م) : إن سكان بيت المقدس يتحدثون لغات مختلفة، ويعتنقون ديانات مختلفة، ومذاهب شتى.[٣٨]

ويتضح من الفقرة السابقة أن تنوع عناصر السكان كان يوازيه تنوع آخر فى دياناتهم ومذاهبهم. وعندما جاء الصليبيون جاءت معهم عناصر جديدة زادت من تنوع الفسيفساء السكانية فى بلاد الشام من جهة، كما أدت إلى جعل هذه التركيبة السكانية الفسيفسائية فى حال من السيولة وعدم الاستقرار من جهة ثانية، إذ إن المذابح الصليبية، والتهجير الجماعى، والاستيطان، وإعادة التوطين، فضلا عن تبادل السيادة على بعض مناطق الحضر والريف بين المسلمين والصليبيين خلال الصراع الطويل - كل ذلك أدى إلى حال من السيولة السكانية ربما لم تعرف مثله أى منطقة أخرى. فقد تحولت أقليات إلى أغلبيات فى بعض المناطق، كما أن بعض مناطق أخرى شهدت العكس، أو شهدت تحول السكان عن دياناتهم. كذلك صحبت الهجمات حالات كثيرة تحول فيها السكان إلى عبيد يباعون ويشترون، على حين بقى عدد منهم للقيام بواجبات الخدمة فى مدن العدو.

---

(٣٧) يتحدث «جاك دى فيترى» عن جنسيات المستوطنين الوافدين من أنحاء أوروبا، ثم يردف قائلا : إن هناك أمما كثيرة أخرى تختلف فى العادات والتقاليد والديانات تعيش فى الأرض المقدسة، ويعدد عناصر سكان بلاد الشام. انظر :

Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, in P.P.T.S., (translated by : Aubrey Stewart, London, 1896), IX, pp. 56-58 Joshua Prawer, "Social Clases", p. 60.

(٣٨) The Itinerary, I, p. 35.

وقبل أن نقدم بعض الأمثلة الدالة على حال السيولة السكانية، ربما يكون مفيدا أن نشير إلى أن سكان بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية كان حوالى مليونين وسبعمائة نسمة حسب تقديرات بعض الباحثين.[٣٩] وهذا الرقم الذى توصل إليه الباحث، اعتمد على أدلة استقرائية وتحليلية، ولم يعتمد على إحصائيات دقيقة لعدم توفرها، يبدو لنا معقولا فى ضوء الحقيقة القائلة إن بلاد الشام فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى - أى بعد قرن كامل من قدوم الحملة الأولى - كانت قد فقدت الكثير من سكانها نتيجة المذابح الصليبية الشهيرة، ونتيجة الهجمات الاستردادية الإسلامية، ونتيجة الهجرات الإجبارية التى تصحب الاستيلاء على كل مدينة.[٤٠] ومن ناحية أخرى فإن أعداد الصليبيين الذين بقوا فى فلسطين بعد الحملة الأولى كان قليلا.[٤١] ولم يكن ممكنا أبدا تعويض نقص السكان فى المستوطنات الصليبية بأعداد القادمين من أوروبا التى كانت تتناقص باستمرار. كما أن مدنا كثيرة تعرضت للتخريب من جانب المسلمين أو الصليبيين مثل : حمص، وبعلبك، وحماة[٤٢] وعسقلان وقنسرين، والرملة، وطبرية التى دمرها صلاح الدين الأيوبى سنة (٥٨٢هـ/١١٨٧م) حتى لا يفيد الصليبيون من تحصيناتها إذا نجحوا فى استردادها.[٤٣] وفى وسعنا أن نسوق

---

(٣٩) Josiah C. Russell, "The Population of the Crusader States", in Setton, V. pp. 305-306.

(٤٠) عن نماذج المذابح الصليبية، أنظر :

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦-١٣٧، ص ١٤١، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٧-١٨٨.

(٤١) Fulcher de Chartre, p. 148-9; William of Tyre, I, pp. 507-508; Jacques de Vitry, pp. 2-3.

(٤٢) ذكر جاك دى فيترى أن الصليبيين اعتادوا نهب حمص، وبعلبك، وحماة لكى يرغموا أهلها على دفع إتاوة لهم. (Jacques de Vitry, pp. 21-22)

أنظر أيضاً رحلة ابن جبير، (طبعة بيروت) ص ٢٢٨ عن خراب قنسرين، ص ٢٣٢، حيث يتحدث عن تدهور حمص بسبب كثرة هجمات الفرنج عليها.

(٤٣) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٣٥-٢٣٦؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ١٠٦-١٠٧.

عشرات الأمثلة من المصادر العربية واللاتينية عن تأثير العمليات العسكرية فى البنية الديموجرافية لمدن بلاد الشام.

وربما يكون من الصعب تقدير المساحة المأهولة من بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، بيد أن القسم الأكبر من سكان هذه البلاد آنذاك كانوا خارج أسوار المدن موزعين على حوالى ستة عشر ألف قرية.(٤٤) وكان سكان هذه المناطق من الفلاحين ومن البدو الرحل. ويبدو أن أحوال البدو لم تتأثر كثيرا بالغزو الصليبى لوقوعهم على هامش مناطق الصراع والقتال، على الرغم من مشاركتهم في القتال أحيانا كثيرة. أما الفلاحون من سكان القرى فإنهم كانوا الفريسة السهلة على الدوام لأى هجوم صليبى يشنه المستوطنون المحليون، أو الصليبيون القادمون من أوروبا.(٤٥) وقد بقيت الأغلبية الكبرى من الفلاحين متمسكة بالحقول والقرى. وبعد فترة من العداء الصامت تجاه الصليبيين تمثلت فى رفض الفلاحين زراعة أرضهم، حتى لا يفيد الصليبيون منها، حدث نوع من التعايش الإجبارى بين الطرفين.(٤٦) ومن ناحية أخرى، فإن ما جرى من معارك بين الجانبين طوال مائتى سنة قد جاء فى معظم الأحوال ليزيد من تعاسة الفلاحين بحكم طبيعة الريف التى تجعله مفتوحا أمام أى هجوم عسكرى،بعكس المدن التى نعمت دائما بالأسوار والحصون والقلاع.

وكان من أسباب السيولة السكانية أيضا عمليات التفريغ السكانية، والإحلال السكانى، أى زرع مستوطنين جدد محل السكان الأصليين. فعندما تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس سنة ١٠٩٩م أخرجوا منها المسلمين واليهود الذين راحوا ضحية مذبحة مروعة. وعندما تملك الفرنج المدينة كانت خاوية تقريبا، ولم

---

(٤٤) Russell, op. cit., p. 308.

(٤٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦-١٤١؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٩، ص ٨٦، ص ٨٧؛ William of Tyre, I, pp. 429, 437, 442-3.

(٤٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣-٢٧٥.

تكن أعداد الفرنج تكفى لملء شارع واحد على حد قول وليم الصورى عندما تولى بلدوين حكم مملكة بيت المقدس.(٤٧) ومنذ البداية حرم الصليبيون على المسلمين واليهود دخول المدينة، كما أن الصليبيين سارعوا بعد أن خفت شهوة القتل فى نفوسهم إلى وضع أياديهم على منازل أهل القدس الذين حصدتهم المذبحة الرهيبة،(٤٨) كما تم نقل سكان القرى المسيحية للسكن فى المدينة التى كانت بحاجة إلى سكان يملأون فراغها الموحش.(٤٩) وكان ما حدث فى المدينة المقدسة مثالا لما حدث فى سائر المدن التى استولى عليها الصليبيون، بيد أن المسلمين الذين هجروا المدن الشامية والفلسطينية التى احتلها الصليبيون لم يلبثوا أن عادوا لسكن مدنهم والإقامة فيها نتيجة الاستقرار ونمو الإمكانات الاقتصادية فى مدن الساحل على نحو خاص. ولكن المصادر التاريخية لا تمدنا بأى معلومات عن أعداد أولئك العائدين، أو نسبتهم العامة قياسا إلى سكان المدن التى حكمها الصليبيون وأقاموا فيها.

لقد عاش سكان الشام الأصليون فى المدن والريف والصحراء؛ سواء فى القطاع الإسلامى أو القطاع الصليبى. ولكن ما يلفت النظر هو أن نسبة المسلمين منهم كانت قليلة فى المدن الصليبية الكبيرة، على حين تزايدت أعدادهم فى المراكز العمرانية الصغيرة. وكان المسلمون فى المناطق الصليبية يعانون من وطأة الضرائب الإضافية، ومن التعاسة التى تسببها تسميتهم «الكلاب»، أو «الكفار» فى بعض الأحيان. وفى الجانب الإسلامى كان يعيش عدد من الصليبيين فى حال متدنية فى المناطق التى حررها المسلمون طوال تلك المواجهة. وربما يكون مفيدا فى هذا المقام أن نشير إلى حقيقة أن القضاء على مملكة الصليبيين، وإماراتهم، فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، لم يكن يعنى على الإطلاق أن جميع الفرنج قد رحلوا عن بلاد الشام. فقد

---

(٤٧) William of Tyre,I, pp. 507-508.

(٤٨) Fulcher de Charters, pp. 123.

(٤٩) Joshua Prawer, "The Settlements of the Latins in Jerusalem", in Speculum, XXVII, (1952), pp. 491-503.

رحل القادة والفرسان والقادرون على الرحيل، على حين بقى عامة الصليبيين الذين اعتنق بعضهم الإسلام، وبقى البعض الآخر على دينه، ودخل في التركيبة الفسيفسائية للبنية السكانية فى بلاد الشام.

أما المسيحيون الذين عاشوا فى المناطق الصليبية فإنهم لم يلقوا معاملة حسنة من الصليبيين الذين اعتبروهم منشقين وخارجين على الدين المسيحى. كذلك فإن الصليبيين لم يقيموا أى علاقة ودية مع أى طائفة مسيحية باستثناء الموارنة فى لبنان.[٥٠]

ومع استمرار المعارك، وتبادل النصر والهزيمة، كانت هناك باستمرار أعداد من الأسرى من الجانبين. وكان بعضهم يتحول إلى رقيق يباع فى أسواق النخاسة، على حين يبقى البعض الآخر من الرجال والنساء لأداء الأعمال الحقيرة وهم فى حال الأسر.[٥١] والراجح لدينا أن هذه الأعداد الكبيرة من الأسرى، خصوصامن يباع منهم فى أسواق الرق، كانوا يدخلون فى نسيج التركيبة السكانية لبلاد الشام ويزيدونها تنوعا وثراء. وقد أثر هذا فى الملامح الجسدية لسكان بلاد الشام نتيجة التزاوج والاندماج الذى أذاب الفروق العرقية بمرور الأجيال.

هكذا، إذن، تمثلت النتيجة الأولي للوجود الصليبى، والصراع ضده، فى سيولة البنية السكانية فى بلاد الشام. فقد هرب غير المقاتلين من السكان الأصليين أثناء

---

(٥٠) William of Tyre, II, p. 459; Joshua Prawer, "Social Classes," pp. 52-53.

(٥١) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ٨١-٨٢، ص ٩٣. حيث يتحدث عن عدة حالات لافتداء أسرى المسلمين من الصليبيين.

كذلك ذكر ابن جبير أن الأسرى المسلمين فى عكا كانوا «يرسفون فى القيود، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد»، رحلة ابن جبير، ص ٢٨٠. وعن الأسرى الصليبيين فى المناطق الإسلامية، أنظر :

Urban Tignor Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries", in Setton, IV, pp. 4-5.

العمليات العسكرية. وحين عاد أبناء المدن التى احتلها الصليبيون، لم يعودوا جميعا، كما أن التركيب السكانى لم يعد إلى سابق عهده، إذ كان لابد من توفير الأماكن للفرنج المستوطنين على حساب السكان الأصليين. وقد توالت أعداد الصليبيين من أوروبا لتسبب خللا دائما، وسيولة مستمرة، فى التركيب السكانى.

ومن ناحية أخرى كانت الهجرة من بلاد الشام صوب مصر سببا فى زيادة عدد السكان. حقيقة أن مصر قد تعرضت لهجمات الصليبيين على أراضيها بين الحين والآخر وهى التى جعلتها تتعرض لعمليات عسكرية تسببت فى هجرات داخلية، مثلما حدث أثناء الصراع بين جيوش أسد الدين شيركوه وجيوش الصليبيين بقيادة أماريك الأول (عمورى)، ومثلما حدث لأهالى دمياط والمناطق المجاورة أثناء أحداث الحملة الصليبية السابعة، بيد أن عدم نجاح الصليبيين فى احتلال الأرض المصرية لفترة طويلة، مثلما حدث فى بلاد الشام، جعل التأثيرات السلبية فى البنية السكانية محدودة للغاية.

وعندما تولى سلاطين المماليك حكم مصر والشام صارت مصر هى المعقل الأخير الآمن للحضارة العربية والإسلامية. وبينما كان الصراع ضد الصليبيين فى بلاد الشام يمر بأطواره الأخيرة لصالح المسلمين دفعت الغزوات التترية بالكثيرين من أهل العراق والشام إلى مصر، كما أن هجوم الكاثوليك على مسلمى الأندلس دفع بالكثيرين إلى مصر. فإذا أضفنا إلى ذلك عدد من هاجروا طوال قرن ونصف قرن (قبل تولى المماليك الحكم) من فلسطين وشمال الشام تحت وطأة الحروب الصليبية أدركنا مدى تزايد معدل النمو السكانى فى مصر فى تلك الأثناء.[٥٢] ومن المهم أيضا أن نشير إلى أن أولئك المهاجرين قد عوضوا النقص الفاح فى أعداد السكان نتيجة المجاعة الكبرى التى عرفت باسم «الشدة المستنصرية» فى عهد الخليفة «المستنصر» الفاطمى.

---

(٥٢) ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٨، ص ٣٦١؛ المقريزى، الخطط المقريزية، جـ١، ص ٧٣؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ٢٩-٣٠.

وقد كانت لأحداث الحروب الصليبية تأثيراتها السلبية من الناحية الاجتماعية، أى من ناحية الحياة اليومية فى بلاد الشام. وقد تجلت هذه التأثيرات السلبية فى عدة مستويات. فمنذ نجاح الصليبيين فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، وقيام مملكتهم وإماراتهم الثلاث فى القدس، وأنطاكية والرها، وطرابلس، باتت بلاد الشام نهبا للمنازعات السياسية والصراعات العسكرية التى أفرزت نتائج سلبية خطيرة على الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام، إذ إن النزاع والحروب لم تتوقف بين المسلمين والصليبيين، وبين السنة والشيعة، وبين أمراء المناطق الحضرية ونظرائهم فى المناطق الريفية أو الصحراوية والجبلية، وبين أبناء الأسر الحاكمة ووزرائهم الطامعين وبين عامة السكان (وكانت أغلبيتهم من العرب) - والعساكر والوافدين (وأغلبيتهم من السلاجقة والتركمان) - وبين الأتراك والأكراد.

كانت هذه المنازعات والصراعات المسلحة مصدر اضطراب أمنى وخلل اجتماعى خطير،[٥٣] إذ كان أحدها يكفى لتعكير صفو الحياة اليومية والإضرار بالصالح العام للمجتمع، بيد أنها تجمعت لتنشر مظاهر انعدام الأمن، وحدة الخروج على القانون بشكل متصاعد، وبروز اللصوصية، وقطع الطريق، والسطو. ويشير أسامة بن منقذ إلى وجود عصابات لقطع الطريق فى تخوم بعلبك، وشيزر، ونابلس.[٥٤] ولم تكن تلك هى المناطق الوحيدة التى راحت نهبا لعبث مثل تلك العصابات بطبيعة الحال.

وعلى الرغم من ذلك فإن الحياة استمرت فى سيرها ولم تتوقف. وعادت الحياة تزدهر مرة أخرى فى بعض المناطق التى حررتها جيوش صلاح الدين، بيد أن بعض المناطق التى دمرها لاعتبارات أمنية عسكرية، مثل عسقلان، خربت بعد أن كانت من المراكز الحضرية المزدهرة، بحيث بكى الناس وأسفوا عليها.[٥٥] كذلك ازدهرت الحياة

---

(٥٣) Nabih Amin Faris, "Arab Culture in the Twelfth Century", in Setton, V, p. 5.

(٥٤) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١٥٣-١٥٤.

(٥٥) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص١٠٥-١٠٦.

فى المناطق التى كانت بعيدة عن خطوط الحرب التقليدية. فكلما كانت المنطقة منطقة حرب كان التدهور السكانى والاجتماعى واضحا، والعكس صحيح تماما. إذ إن المناطق التى شهدت نوعامن التعايش السلمى، بسبب الضرورات الاقتصادية، مثلما حدث فى بانياس عندما اقتسم أهل دمشق والصليبيون المناطق الزراعية، ومثلما كانت الضرورة الاقتصادية تسمح بالحفاظ على أمن طرق التجارة وقوافلها فى عكا.(٥٦) هذه المناطق عاشت قدرا من الازدهار النسبى، بيد أنه لم يلبث أن تدهور فى ظل الحركة الاستردادية التى قادها صلاح الدين الأيوبى وأحداث الحملة الصليبية الثالثة.

أما تأثير الحروب الصليبية فى النظام القيمى والأخلاقى فى العالم العربى، فيمكن أن نرصده من خلال الحقيقة القائلة إن تلك الحروب الطويلة المرهقة كان لها من الإفرازات السلبية ما يفوق إفرازات الحروب العادية. فقدوقعت أحداث الحملة الصليبية الأولى فى زمن كان العالم العربى الإسلامى يعانى من شرور التمزق والتشرذم السياسى، بحيث فشل فى القضاء على الموجة الصليبية الأولى؛ على الرغم من موارده الهائلة بشريا واقتصاديا، وقبل أن يستوعب المسلمون الصدمة كانت قد مرّت حوالى خمسين سنة.(٥٧)

هذه الحقيقة كانت لها انعكاساتها على جماهير الناس فى العالم العربى، فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة التى زادت من حدتها أعداد اللاجئين الهاربين من وحشية الصليبيين عند كل هجوم جديد.(٥٨) لقد شعر الناس فى المنطقة

(٥٦) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٧٦.

(٥٧) انظر الفصل الثالث.

(٥٨) Fulcher de Charters, pp. 125-6, 143-4, 163-4, 174-5, 198.

حيث يتحدث عن نهب المناطق الريفية. وانظر أيضاً المصدر نفسه :

pp. 153-5, 167, 195-200.

فى وصف المذابح وهروب السكان عقب استيلاء الصليبيين على كل من « قيصرية، وطرسوس، وعكا، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، أنظر :

CF. William of Tyre, I, pp. 429, 437, 442-3; Jacques de Vitry, pp. 21-22, 56-57.

ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص١٣.

العربية بمدى عجز الحكام، وامتلأت النفوس فى كل مكان بروح العجز، وشاعت روح من التقوى السلبية، والتدين العاطفى الهروبى. وقد تجسد هذا كله فى انتشار الطرق الصوفية الجاهلة من الدراويش وأتباعهم الذين رددوا الخرافات وأنباء معجزات الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ. ومع أن التصوف - بمعنى النسك والزهد والتفقه فى الدين - قد ظهر على استحياء فى القرن الثالث الهجرى،[٥٩] ثم انتشر رويدا رويدا، فإنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة فى الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبى.

لقد كان هناك فريق من المتصوفة، أقرب إلى الفلاسفة، يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات، ولكن مصرع شهاب الدين السهروردى - المعروف باسم «السهروردى المقتول» - بأمر من صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧هـ،[٦٠] بتحريض من علماء حلب وبفتوى منهم، كان مؤشرا على اتجاه يناصر الدراويش الذين كانت تؤيدهم جيوش المريدين من العامة. وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذا النمط من التصوف فى اعتماد صلاح الدين الأيوبى عليهم فى إذكاء حماسة الجنود من جهة، وإنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم ووقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى.[٦١] وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدراويش وأصحاب الطرق. ومع مرور الوقت بدأت تظهر أنماط غريبة من الدراويش لاسيما فى عصر سلاطين المماليك حتى وجد منها حوالى ست وثلاثين فرقة فى ذلك العصر. لقد اتخذ الاتجاه العام للتصوف اتجاها سلبيا ضم الكثير من الدراويش والمجاذيب. وكان التفاف عامة الناس حول هذا النمط من المتصوفة/الدراويش تعبيرا عن روح اليأس، والهروب إلى المجهول، التى سيطرت على قطاعات كبيرة من سكان المنطقة العربية زمن الحروب الصليبية.

---

(٥٩) عبداللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، (الطبعة الثامنة، القاهرة، ١٩٦٨)، ص ٩٥-١٠٤.

(٦٠) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص١٠.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٨٢؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٧٥.

وقد استغل سلاطين المماليك الصوفية في تدعيم سلطانهم، والترويج لأنفسهم عند عامة الناس.[٦٢] ومنذ البداية كان السلطان الظاهر بيبرس يقرب المشعوذين والدراويش والمجاذيب، وكذلك فعل المنصور قلاوون، وسائر سلاطين المماليك. وكانت أوقافهم على الصوفية، واهتمامهم ببناء الخانقاوات لهم، تعبيرا عن ذلك الموقف. لقد ورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين الاهتمام بالصوفية وتشجيعها مثلما ورثوا عنهم كثير من الأمور الأخرى. وبينما كانت البداية نابعة من رغبة صلاح الدين في استخدام الصوفية للتعبئة المعنوية لجنوده، ومحاربة التشيع انتهى الأمر في عصر سلاطين المماليك بالرغبة في تدعيم سلطة السلطان ومكانته عند جماهير العامة.

وقد أخذ الناس عن الصوفية عدة عادات وممارسات ذميمة أشاعت المزيد من التفسخ في الحياة الاجتماعية، منها : لبس الغريب من الثياب، والغناء، والرقص على أنغام الدفوف باسم الدين، وشرب الخمر، وتدخين الحشيش أو أكله. وقد عرف في ذلك العصر باسم حشيشة الفقراء (والفقراء هنا بمعنى الصوفية)[٦٣].

وعلى أي حال، فإن اتساع التصوف على نطاق الدراويش، والمجاذيب، وتقلص التصوف الفلسفي الذي يمثله «ابن عربي» و«السهروردي المقتول» وأمثالهما كان تعبيرا عن إفراز سلبي آخر من إفرازات الحروب الصليبية تعبيرا عن روح العجز والتدهور

---

(٦٢) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، جـ١، (دار المعارف، ١٩٧١)، ص ١٩٣-٢١٧.

(٦٣) المقريزي، الخطط المقريزية، جـ٢، ص ٤٣٢-٤٣٣؛ سعيد عاشور المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٦٢-١٧٥).

ويذكر المقريزي أيضاً في حوادث سنة ٦٥٥هـ نصاً معبراً عن مدى انتشار الأنماط المشعوذة من الصوفية؛ إذ يقول : «وفيها قدم إلى دمشق الفقراء الحيدرية، وعلى رؤوسهم طراطير، ولحاهم مقصوصة، وشواربهم بغير قص. وذلك أن شيخهم حيدر لما أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه ، فاقتدوا به في ذلك، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق، ومنها وصلوا إلى مصر».

السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٠٧.

الأخلاقى الناجمة عن الوجود الصليبى، والتوسع على حساب المسلمين طوال جيلين قبل أن يبدأ رد الفعل الإسلامى المنظم. وعندما بدأت حركة الاسترداد الإسلامية تشتد استخدم الأيوبيون الحركة الصوفية لتعبئة المشاعر الدينية ضد الأعداء، بيد أن نجاح هذا السلاح المعنوى زمن صلاح الدين كان يوازنه تحول فى الحركة الصوفية، بحيث باتت عنصرا سلبيا فى الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك.

وتقتضى منا الحقيقة التاريخية أن نقرر أن التيار السلبى الهروبى الذى مثلته الحركة الصوفية عارضة تيار إيجابى دينى كان هو البذرة التى نمت منها شجرة الجهاد. فقد شن عدد من الفقهاء هجوما قاسيا على الصوفية الذين أرادوا صرف الناس عن واجب الجهاد ضد الصليبيين بالحديث عن خمر الجنة، والعشق الصوفى، والحب الإلهى، وحب الجمال المطلق، وما إلى ذلك. وكان الشاعر المتصوف «ابن الفارض» - فى حياته وكتاباته - تجسيدا لهذه الروح الهروبية.[٦٤] وقد أدان الشيخ تقى الدين بن تيمية وأمثاله هذا التقاعس، ووصم ابن تيمية معاصريه بأنهم «... قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة...».[٦٥] ومن هذا التيار الذى سبق عصر ابن تيمية كانت روح المقاومة التى استمرت طوال قرنين من الزمان.

كذلك عانت المجتمعات العربية/ الإسلامية كثيرا من مظاهر التدهورالاجتماعى على صعيد النظام القيمى والأخلاقى. فانتشر الشذوذ الجنسى بشكل واسع، وهو من أخطر الأمراض الاجتماعية على الإطلاق. ذلك أنه إذا لم يكن من أسباب الانهيار الاجتماعى فهو على أقل تقدير من مظاهر هذا الانهيار. وربما يكون من عوامل تفشى

---

(٦٤) هو أبو حفص عمر بن على بن الفارض (٥٧٦هـ/ ٦٣٢م). انظر عن حياته وشعره: عبداللطيف حمزة، المرجع السابق، ص ١٢٣-١٣١؛ محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى (دار المعارف، ١٩٦٨) ص ٣٣٨-٣٥٠.

(٦٥) محمد سيد كيلانى، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام، (مطبعة دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٤٩)، ص ٣٦-٣٧.

هذا الشذوذ غياب القوات الرئيسة فى الجيوش المتحاربة فترات طويلة فى ميدان القتال بشكل كان يحول بينها وبين الاستقرار اللازم لحياة الأسرة، فضلا عن أن جزءا كبيرا من الجيوش، لاسيما فى عصر سلاطين المماليك، كان من جنود غرباء انتزعوا من بلادهم ليباعوا فى أسواق النخاسة، وينشأوا بعد ذلك فى ظل نظام تربية المماليك. وقد اشتهر عدد كبير من سلاطين ذلك العصر «بمحبة الذكران». كما أن الشذوذ الجنسى انتشر بين المتصوفة بدرجة جعلت بعض الحكام يأمرون بألا يدخل إلى أماكن الصوفية «شاب أمرد» أو صبى مليح،[٦٦] أما الدعارة فقد صارت من أكثر المهن رواجا وتنظيما فى ذلك العصر، إذ كانت الدولة المملوكية تفرض علي من يمارسنها ضريبة معينة كانت من ضمن إيرادات الخزانة، وكانت المرأة المسؤولة عن العاهرات تسمى «ضامنة المغانى». ويبدو أنه كانت هناك أحياء خاصة بالبغايا فى المدن.[٦٧]

على أن أهم النتائج السلبية للحروب الصليبية على المستوى الاجتماعى تمثلت فى توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، لاسيما فى بلاد الشام. وعلى الرغم من أن الفرنج الصليبيين قد عاملوا المسحيين الأرثوذكس معاملة قاسية، إذْ استولوا على كنائسهم وحولوها إلى كنائس لاتينية، كما منعوا الأقباط من زيارة بيت المقدس على اعتبار أنهم هراطقة - على الرغم من هذا وغيره... فإن مشاركة المسحيين الموارنة

(٦٦) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص ٦٦١-٦٦٢؛ الخطط المقريزية، جـ٢، ص ٣٤، ص ١٦٩؛ السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق، ١٣١٥هـ)، ص ١٠٣-١٠٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٨-٢٢٩؛ كيلانى، الحروب الصليبية وأثرها، ص ٣٤-٥١.

(٦٧) المقريزى، الخطط المقريزية، جـ٢، ص ٩٥؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص ٦٤٠-٦٤١؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر (تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٢)، جـ١، ص ١٢٧؛ ابن الصيرفى إنباء الهصر بأنباء العصر، ص ٢٠٥؛ نزهة النفوس والأبدان (تحقيق الدكتور حسن حبشى، ١٩٧٤)، جـ١، ص ١٦٨، جـ٣، ص ١٤٤؛ قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٣٩-١٤٠.

والسوريان والأرمن فى بلاد الشام فى مساعدة الصليبيين[٦٨] قد زرعت بذور الشك والمرارة التى تولدت منها أحداث عنيفة ضد المسيحيين تصاعدت حدتها طوال عصر الأيوبيين والمماليك من بعدهم.

ومن ناحية أخرى، أدت الحروب الصليبية إلى اختلال القوى الاجتماعية فى بعض المناطق، إذ تحول المسلمون إلى أقليات فى المدن التى احتلها الصليبيون من جراء المذابح الصليبية والهجرات الضخمة التى نجمت عنها. كما أن بعض المسلمين آثروا أن يرتدوا عن دينهم فاعتنقوا المسيحية خوفا على حياتهم.[٦٩] وكان من الطبيعى أن يتمسك أبناء الأقليات الإسلامية فى المناطق التى خضعت للصليبيين بهويتهم الحضارية، ويؤكدوا انتماءهم للحضارة العربية الإسلامية بشتى الصور. فقد كان المسلمون من سكان المناطق الريفية المجاورة لعكا يخفون الأسرى المسلمين عن عيون الصليبيين ويساعدونهم على الوصول إلى المناطق الإسلامية.[٧٠] كذلك تركزت الحياة فى قرى الريف الخاضعة للصليبيين حول المساجد الصغيرة، واستمر الفقهاء والقضاة فى مباشرة خدماتهم الدينية وغير الدينية لأبناء هذه القرى. لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى شئون الزواج والميراث وغيرها. أما علاقة الفلاحين المسلمين بالصليبيين فكانت علاقة تقوم على الاستغلال والابتزاز.

* * *

أما التأثير الاقتصادى للحروب الصليبية فى العالم العربى فقد اتخذ أبعادا غير متسقة. فبينما عانت الزراعة من التدهور والتخريب فى بعض المناطق ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية فى مناطق أخرى، وبينما ازدهرت بعض المدن الواقعة على طرق

---

(٦٨) William of Tyre, II, p. 459, and Passim; Joshua Prawer, "Social Classes", in Setton, V, pp. 52-53.

(٦٩) Fulcher de Charters, p. 144.

(٧٠) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ٨٢.

التجارة البرية والبحرية اضمحلت مدن أخرى كانت مزدهرة قبل عصر الحروب الصليبية. وإذا ما تذكرنا دوافع الجمهوريات التجارية الايطالية للاشتراك فى الحروب والحملات التى جردها الغرب الأوروبى، والاتفاقيات التى عقدوها مقابل مساعداتهم البحرية للصليبيين، أدركنا أن زيادة نصيبهم فى تجارة البحر المتوسط والتجارة العالمية كانت خصما من نصيب التجار المسلمين. وبينما لاحظ ابن جبير ازدهار التجارة الداخلية، ينبغى أن نلاحظ أن سيادة العملات الأوروبية، والايطالية، خصوصا فى أسواق المنطقة العربية، كانت مؤشرا ودليلا على تدهور السيادة الإسلامية على التجارة العالمية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله النتائج السلبية للنظام الاقطاعى المملوكى على إنتاجية الأرض الزراعية، وانسحاب ذلك الأثر السلبى على الحرف والصناعات والتجارة الداخلية التى باتت تئن من وطأة الضرائب الإضافية، والحمايات التى فرضت على أرباب الحرف والأسواق، أدركنا أن الناتج النهائى للإستجابة الاقتصادية للصراع الإسلامى/ الصليبى كان سلبيا.

لقد عانت المناطق الريفية فى بلاد الشام أكثر من غيرها من الآثار السلبية للحروب الصليبية. ففى ظل الفاطميين والسلاجقة عاش الفلاحون حياة تقترب من القنانة في كثير من الأحيان نتيجة العلاقات النهبية التى ربطت أولئك الفلاحين بسادتهم من أصحاب الاقطاعيات. ومع تزايد الاقطاع الشخصى صارت الأرض الزراعية مجرد مورد للحصول على النفقات اللازمة لتجنيد المقاتلين، ولم يعد أصحاب الاقطاعيات يهتمون بالأرض أو رفع كفاءتها، أو وسائل الرى والصرف، وسائر أوجه العناية الواجبة بالأرض الزراعية. وكانت النتيجة أن تدهورت إنتاجية الأرض الزراعية إلى حد مخيف.

ومن ناحية أخرى، فإن أحوال الفلاحين فى المناطق الخاضعة للأتراك السلاجقة لم تكن أفضل من أحوالهم فى المناطق الخاضعة للصليبيين. ففى الريف لم يكن ثمة فارق

ملحوظ بين معاملة صاحب الإقطاع المسلم، أو صاحب الإقطاع الصليبي للفلاحين.[٧١] وقد حدثنا الرحالة المسلم ابن جبير[٧٢] عن أن المسلمين والفرنج كانوا يتقاسمون الإنتاج الزراعي في منطقة بانياس، كما تحدث عن حسن معاملة الصليبيين لفلاحيهم في منطقة تبنين فقال : «... سكانها كلهم مسلمون، وهم مع الأفرنج على حال ترفيه نعوذ بالله من الفتنة، ذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عن أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدى الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكى الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الأفرنج، ويأنس بعدله... ».

وما لم يقله ابن جبير يمكن استنتاجه من بين السطور، وتؤكده المصادر التاريخية الأخرى. وهو أن النظام الاقطاعي العسكرى، الذي قام على أساس الأرض الزراعية، قد هبط بأحوال الفلاحين إلى مستوى أكثر تدنيا من ذى قبل. وفى المناطق الصليبية كان الفلاحون مربوطين بالأرض بشكل عام، ولكنهم كانوا ملزمين ببعض الضرائب. وإذا كان الفلاحون فى تبنين قد لقوا معاملة أفضل على نحو ما ذكر ابن جبير فالسبب فى تقديرنا راجع إلى حقيقة أنهم جميعا من المسلمين، وأن الصليبيين بحاجة إلى قوة عملهم فى هذه المنطقة بسبب قلة مواردهم البشرية. وينبغى أن نلاحظ أن أحوال الفلاحين المسلمين فى المناطق الصليبية لم تكن كلها على هذا المستوى، ففى مناطق صليبية أخرى كانوا أشبه بالسجناء.[٧٣] بيد أن هذا لا يعنى، من ناحية أخرى، أن

---

(٧١) Philip Hitti, "The Impact of the Crusades", p. 41.

(٧٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٧٣-٢٧٥.

(٧٣) Jean Richard, "Agricultural Condition in the Crusader States", in Setton, V. pp. 253-259.

أحوالهم كانت أفضل فى ظل النظام الاقطاعى العسكرى فى المناطق الإسلامية. ولدينا نص أورده أبو شامة(٧٤) لا يخلو من دلالة هامة. ففي حوادث سنة (٥٤٥هـ) عاث الفرنج فسادا فى نواحي حوران، فعزم نور الدين على الخروج لقتالهم، «... وهو مع ذلك كافٌ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد فى الضياع، وأمر بإحسان الرأى فى الفلاحين والتخفيف عنهم...». هذا النص يكشف عن أن الفلاحين كانوا تحت عبء ثقيل بدليل أن نور الدين محمود طلب من الأمراء أن يخففوا عنهم، ويحسنوا الرأى فيهم. وفى تقديرنا أن مثل هذا الأمر لا يصدر عن نور الدين إلا إذا كان هناك ما يستوجب إصداره. وعلى أى حال، فإن هناك أدلة عديدة على سوء أحوال الفلاحين آنذاك.

وعلى الرغم من الانتعاش المؤقت الذى شهدته الزراعة فى بعض المناطق الإسلامية والصليبية، لاسيما فى القرن الثانى عشر الميلادى،(٧٥) فإن الآثار السلبية للحروب الصليبية كانت على المدى الطويل كارثة على الزراعة والإنتاج الزراعى فى مصر وبلاد الشام على السواء. فقد كانت العمليات العسكرية من الجانبين سببا فى خراب مناطق كثيرة. فقد ذكر ابن جبير - الذى زار المنطقة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى - أن الطريق من حمص إلى دمشق كان خرابا مهجورا «... قليل العمارة إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة....».(٧٦) ومن الواضح أن مناطق كثيرة خربت زراعتها بحيث اضطر الفلاحون إلى النزوح للمدن حيث يجدون الخبز من خلال العمل فى أى حرفة متدنية، وحيث يجدون الأمان داخل أسوار تلك المدن.(٧٧) ولدينا عديد من الأمثلة على نهب الريف خلال زحف الجيوش وأثناء القتال.(٧٨) وقد أدى ذلك إلى

---

(٧٤) أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص ٦٩-٧٠.

(٧٥) Jean Richard, op. cit., pp. 263-264.

(٧٦) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٣.

(٧٧) ابن العديم، زبدة الطلب فى تاريخ حلب (تحقيق سامى الدهان، دمشق، ١٩٥١)، جـ٢، ص ١٧٣.

(٧٨) Fulcher de Chartres, pp. 125-126, 143-144, 163-164, 174-175, 195, 198-200; William of Tyre, I, pp. 429, 437, 442-443, Jacques de Vitry, pp. 21-22, 56, 57.
ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٣؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٣٥-٢٣٦؛ المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ١٠٦-١٠٧.

تدهور الإنتاج الزراعى. ومنذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى حتى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) عانت بلاد الشام أوقاتا عصيبة بسبب نقص الإنتاج الزراعى، وتعرضت مناطق عديدة لخطر المجاعة أكثر من مرة. وقد كان للإجراءات الأمنية الهائلة التى قام بها بيبرس أثرها الفعال فى عودة الاستقرار، وزيادة الإنتاج الزراعى فى مناطق الحدود فى بلاد الشام وأعالى الفرات.(٧٩)

ومن ناحية أخرى كانت للتنظيم الاقطاعى العسكرى آثاره السلبية على المدى الطويل، ولاسيما بعد التعديلات الجوهرية التى جرت على النظام الاقطاعى المملوكى فى عصر الناصرمحمد بن قلاوون الذى حكم ثلاث مرات، آخرها وأهمها فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، إذ أصبح الإقطاع الواحد موزعا فى أقاليم مختلفة من البلاد. والأهم من ذلك أن الإقطاع صار يتغير بتغير وظيفة صاحبه.(٨٠) والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء هذه السياسة عدم التمكين لنفوذ الأمراء إذا استقروا فترة طويلة فى اقطاعياتهم. وهو ما نجحوا فيه بالفعل. ولكن هذه السياسة أثبتت أنها كارثة على الاقتصاد الزراعى خاصة، وعلى الكيان الاقتصادى والسياسى للدولة عامة. ذلك أن صاحب الاقطاع، الذى كان يعلم مسبقا أنه لن يستمر فى حوزته زمنا طويلا، لم يكن يولى الأرض الزراعية أى اهتمام أو رعاية حقيقية. ومع إهمال وسائل الرى والصرف تضاءلت إنتاجية الأرض. وأصبحت العلاقة

---

(٧٩) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص٩٣، وقد ذكر ابن عبدالظاهر أن بيبرس بلغ من اهتمامه بالزراعة أن بلغه وهو فى غزة أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى الزروع «... قطع أنوفهم...» (ص٢٩٢)؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٥٥٧، ص ٥٦٠؛ العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٠٧-٢١٣.

(٨٠) المقريزى، الخطط المقريزية، جـ١، ص ٨٤-٨٩؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص ١٠٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٩، ص ٤٣.

بين صاحب الاقطاع والفلاحين علاقة نهبية بكل المقاييس.(٨١) وكان لتدهور الإنتاج الزراعي، وتدني أحوال الفلاحين أثرهما السلبي على النظام الاقطاعي العسكري الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك. وهكذا، فإن التنظيم الاقطاعي الذي قام على أساس أن الأرض الزراعية مصدر الثروة والقوة العسكرية اللازمة لتعبئة الجيوش اللازمة لمواجهة الصليبيين كان سببا في إنهاك موارد هذه الأرض الزراعية، وقد أدى ذلك بدوره إلى هز أركان النظام الاقطاعي. وقد أدت هذه التفاعلات الجدلية السلبية في نهاية الأمر إلى سقوط دولة سلاطين المماليك.

وقد عرفت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عددا من الصناعات والحرف التي اكتسبت لنفسها شهرة تاريخية في العالم المعروف آنذاك.(٨٢) إذ عرف العالم من منتجات الشام الورق، والسكر، والزجاج، والخزف، والقيشاني، وصناعة الأثاث، إلى جانب صناعة النسيج، والأقمشة الشهيرة، والعقاقير، والعطور، والخمور، والنبيذ. وقد انتعش بعض هذه الحرف في القرن الثاني عشر الميلادي واكتسب قوة إضافية حين فتحت أمامه أسواق جديدة. وتوسعت أسواقها القديمة بفضل نشاط الجاليات التجارية الايطالية في مدن القطاع الصليبي. كذلك فإن صياغة الذهب والفضة، وصناعات الحديد والأسلحة، والجلود، والصابون والسجاد انتعشت على نحو لم يسبق له مثيل إبان ازدهار الكيان الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، والهدوء النسبي الذي ساد في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي.

ولكن العمليات العسكرية العنيفة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، ثم

---

(٨١) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار المعارف، ١٩٧٨)، ص ١٨-٣٨.

(٨٢) William of Tyre, II, p. 6; Jacques de Vitry, pp. 92-93.

حيث يتحدث كل منهما عن صناعة الزجاج في عكا وصور. أنظر عن الصناعات :
Holmes, "Life among the Europeans in Palestine and Syria", p. 25; Philip HItti, "The Impact of the Crusades," p. 40.

تدهور الكيان الصليبي تحت ضربات بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف، جعلا الإيطاليين ينقلون عددا من هذه الصناعات إلى بلادهم، ولم يلبثوا أن تفرقوا في بعضها، وأصبحوا مصدرا هاما من مصادرها في التجارة العالمية. إلا أن صناعة النسيج الشامية ومنتجاتها ظلت طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تسيطر على الأسواق الخارجية، ولم تعان أي منافسة ايطالية قبل القرن السادس عشر. وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي نعمت به بلاد الشام خلال الشطر الأول من عصر سلاطين المماليك.

أما التجارة فكانت المجال الذي تجلت فيه الآثار السلبية للحروب الصليبية في أوضح صورها. فحتى بداية الحروب الصليبية كانت التجارة بين الشرق وأوروبا تسير في اتجاه واحدتقريبا لصالح الشرق. ولكن نجاح الحملة الصليبية الأولى ترتب عليه أمران غاية في الأهمية، أولهما : أن كل موانئ الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط صارت تحت سيطرة أوروبا حتى سنة ١١٨٧م عندما نجح المسلمون بقيادة صلاح الدين في استرداد معظم مدن الساحل. ثم بقي بعض الموانئ بيد الصليبيين، وأهمها عكا التي كان سقوطها سنة ١٢٩١م نهاية الوجود الصليبي في المنطقة العربية، وثانيهما : تأسيس الأحياء التجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون، وما نتج من ذلك بالضرورة من تعاظم النفوذ الايطالي، ثم الأوروبي عامة، في التجارة العالمية على حساب التجار المسلمين. وعلى الرغم من الازدهار التجاري الذي شهدته بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وعلى الرغم من ازدهار مدن كثيرة بفضل التجارة داخل بلاد الشام[٨٣] آنذاك إلا أن تعاظم الدور الأوروبي في التجارة العالمية في البحر الأبيض المتوسط، ثم في التجارة العالمية بعد ذلك، قد جاء على حساب التجارة والتجار المسلمين، وخصما من دورهم الذي كان هو الدور الأكبر في التجارة العالمية حتى ذلك الحين.

---

(٨٣) إبن جبير، ص ٣٢٣-٢٢٤، ص ٢٢٦-٢٢٧، ص ٢٣٤-٢٦٩ حيث تحدث عن أسواق عدد من مدن بلاد الشام وازدهارها.

لقد استولى الصليبيون على موانئ الساحل الشرقى للمتوسط خلال فترة النمو والتوسع التى أعقبت نجاح الحملة الأولى، واستخدموا هذه الموانئ من الناحيتين العسكرية والتجارية معا. وكانت عكا هى أهم موانئ التجارة العالمية والداخلية فى بلاد الشام طوال تلك الفترة.(٨٤) ولم تكن التجارة العالمية فى المناطق الصليبية قاصرةعلى عكا بطبيعة الحال، فقد كانت مدينة صور(٨٥) مدينة تجارية هامة جاءت بعد عكا فى مكانتها التجارية. كذلك لعبت كل من طرابلس، وبيروت، واللاذقية، وصيدا دورا هاما فى الانتعاش التجارى للكيان الصليبى، كما وجدت فى كل منها جالية ايطالية كبيرة. وقد لعب الايطاليون دورا هاما في تنشيط الصادرات والواردات بفضل الحريات والمزايا الكبيرة التى تمتعوا بها فى سائر المدن الصليبية.(٨٦)

وقد استثمر الايطاليون أموالا جمة فى التجارة عبر موانئ بلاد الشام، ثم خرجوا إلى الاسكندرية التى سمحت لهم السلطات المصرية بالإقامة فيها بقصد تشجيع التجارة.(٨٧) ولأن طبيعة هذه الدراسة لا تسمح بالتفاصيل فإننا نود أن نشير فى سرعة إلى أن مصر ظلت طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين تتحكم فى تجارة العبور ما بين أوروبا، والهند، والمنطقة العربية، على الرغم من أن بعض منتجات الهند قد بدأت بالفعل تتسرب عبر ميناء عكا إلى أوروبا. وفى نهاية الأمر كان لابد للمسلمين من أن يفسحوا مكانا فى التجارة البحر المتوسط للقوى التجارية الأوروبية النامية. وسرعان ما أخذت هذه القوى تكبر على حساب المسلمين. ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى أخذت العملات التى تصدرها الجمهوريات التجارية تسود الأسواق

---

(٨٤) ابن جبير، ص ٢٦٠، ص ٢٧٦؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٤ وقد وصف عكا بأنها «قسطنطينية الفرنج»؛

Burchard, Description of The Holy Land, in P.P.T.S., V, 11-12.

(٨٥) William of Tyre, I, pp. 555-556; Jacques de Vitry, pp. 16-17; Burchard, op. cit., pp. 11-12.

(٨٦) Jacques de Vitry, p. 57.

(٨٧) Mayer, "The Crusades", pp. 170-176.

المحلية فى مصر والشام.[٨٨]

لقد ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية فى عصر الحروب الصليبية بسبب حرص كل من المسلمين والصليبيين على الموارد التى توفرها لهم عائدات التجارة. وقد لفت انتباه الرحالة المسلم «ابن جبير» أن «اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، «... والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس فى عافية، والدنيا لمن غلب...».[٨٩]

بيد أن خروج الصليبيين من بلاد الشام لم يكن يعنى نهاية الدور الأوروبى فى التجارة العالمية، وإنما نقل نشاطهم إلى مناطق أخرى، كما أنه لم يؤد إلى قطيعة تجارية مع دولة سلاطين المماليك، بل إن حجم التجارة، وعدد الجاليات التجارية زادا فى المناطق الخاضعة لهذه الدولة. وعندما بدأت علامات الضعف والتدهور تضرب داخل جسد هذه الدولة منذ القرن الخامس عشر الميلادى - لأسباب عديدة متشابكة - زادت سيطرة الأوروبيين على التجارة العالمية. ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد بداية المحاولات الأوروبية للسيطرة على تجارة البحر الأحمر، وتجارة المحيط الهندى أيضا.

على أى حال، فإننا نرى أن الاستجابة الاقتصادية للحروب الصليبية كانت كارثة على العالم العربى. حقيقة أن آثارها السلبية لم تظهر عقب خروج الصليبيين فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، ولكن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد تجسد هذه الآثار فى انهيار الانتاج الزراعى، وما ترتب عليه من تفسخ النظام الاقطاعى العسكرى

---

(٨٨) قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ٥٥-٦٠، حيث ترد دراسة عن تدهور النظام النقدى والقاعدة الشعرية فى أواخر عصر سلاطين المماليك.

(٨٩) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠.

الذى تمت صياغة الدولة على أساسه، وتزايد معدل الاعتماد على الضرائب بالشكل الذى أدى إلى تدهور الحرف والصناعات، وخراب الأسواق، وضمور التجارة الداخلية. وعندما تحول المماليك إلى التجارة الخارجية، ثم احتكرها السلاطين منذ عهد برسباى، كان ذلك تعبيرا عن إفلاس الأساس السياسى/ الاقتصادى الذى بنيت عليه الدولة المملوكية. وجاء انهيار العملة تجسيدا للوضع المتردى الذى لم يلبث أن انكشف بوضوح عند الصدام بين دولة سلاطين المماليك المتهاوية والدولة العثمانية التى كانت فى طور صعودها وفتوتها.

* * *

كانت الحروب الصليبية صداما عسكريا ومواجهة حضارية طويلة مضنية بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوروبى الكاثوليكى.وقد بدأت هذه المواجهة فى وقت كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت أقصي مراحل نضجها وتطورها. وفى خضم الصراع تجلت عوامل الضعف فى العالم العربى الرسلامى، وتجلت فى الوقت نفسه عوامل القوة التى ساعدته على الصمود أمام الغزوة الصليبية والانتصار عليها. وإذا لم تكن الحروب الصليبية هى السبب فى توقف الحضارة العربية الإسلامية وجمودها فإن تلك الحروب، التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان، كانت من أهم عوامل استنزاف قوى الدفع الابداعية فى الحضارة العربية الإسلامية ثم جمودها الذى أدى إلى تخلف المنطقة العربية، إذ كان على العالم العربى أن يحشد كل طاقاته وإمكاناته البشرية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية جميعا فى مجال العمل العسكرى، أو العمل المعنوى والثقافى المصاحب للحرب. وهكذا، تعين على المنطقة العربية أن تعيد صياغة كل حياتها على أساس أن الحرب هى محور هذه الحياة. وعلى الرغم من هذا كله فإن العالم العربى لم يكن قد دخل، بعد، فى منحنى التدهور، إذ كان المستقبل لايزال يحتفظ للحضارة العربية الإسلامية ببعض من أهم إنجازاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية.

وإذا كنا قد عرضنا فى الصفحات السابقة لتأثير الحروب الصليبية فى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فإنه يبقى لنا أن نحاول عرض الخطوط العريضة لهذا التأثير فى مجال الحياة الفكرية والثقافية. ونحن هنا نهتم بالثقافة فى معناها الحقيقى الواسع؛ آداب المجتمع وفنونه، فكره وفلسفته، مثله وقيمه التى دارت من حولها أشكال التعبير الفكرى، وألوان الإبداع الأدبى والفنى التى تضمنتها الفنون الشعبية، بأنماطها التشكيلية والقولية.. وما إلى ذلك.

وربما يكون من المفيد أن نؤكد أن النتائج والآثار الفكرية والثقافية، التى تنتج من الحروب في مجتمع ما، لا تظهر بين عشية وضحاها من ناحية، كما أنها لا تختفى بمجرد انتهاء الحرب من ناحية أخرى. ولكن هذه التأثيرات تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعى/ ثقافى مستمر ومتصاعد، بحيث يتبلور من خلال إبداعات أبناء هذا المجتمع فى فنونه وآدابه؛ سواء منها الإنتاج الراقى المكتوب، أو ذلك التيار الشعبى مجهول المؤلف الذى يعبر عنه عادة بالآداب والفنون الشعبية.

لقد اقترنت جهود توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين بجهود أخرى لإعادة نشر المذهب السنى، وتأسيس المدارس لتدعيم هذا المذهب فى مواجهة الدعوة الشيعية. وكان فشل الخلافة الفاطمية الشيعية فى فهم حقيقة الحركة الصليبية من جهة، ثم اخفاق هذه الخلافة في جهودها العسكرية ضد الصليبيين من جهة أخرى من أهم عوامل بروز الجهود السنية على محور الموصل/حلب. ثم جاءت نهاية الخلافة الفاطمية فى خضم الصراع الإسلامى/الصليبى تجسيدا لانتصار المذهب السنى على منافسه الشيعى. وأسس صلاح الدين المدارس فى بيت المقدس، والشام، والقاهرة، والاسكندرية لتدعيم المذهب السنى ومحاربة التشيع، ثم قرن ذلك بتقريب علماء السنة[٩٠] الذين

---

(٩٠) كانت حاشية السلطان صلاح الدين الأيوبى تضم عدداً من العلماء منهم : القاضى الفاضل، والعماد الأصفهانى، والقاضى بهاء الدين بن شداد. أنظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧-١٣؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ٢، ص ٢١٧-٢١٨، عبداللطيف حمزة، الحركة الفكرية فى مصر، ص ١٤٩-١٥١.

كانت عليهم مهمات أخرى هى شحن روح الحماسة فى نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبيين.

ومن أولئك العلماء السنة خرج أرباب الأقلام الذين تولوا الوظائف العليا فى الدولة الأيوبية، وخرج القضاة، والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات دروسهم فى أروقة المدارس السنية التى انتشرت فى كل مكان. وغالبا ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على عامة الناس.(٩١) وكان صلاح الدين الأيوبى نفسه شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء.(٩٢) لقد كان صلاح الدين الأيوبى مهتما بإعادة المذهب السنى، ولذلك قاوم أى محاولة تصور أنها يمكن أن تعوق حركته فى هذا الاتجاه الذى كان يعتقد أنه طريق التعبئة المعنوية اللازمة لضرب الوجود الصليبى. وربما يمكن تفسير قتل «السهروردى المقتول» بأمره، وبيع كتب مكتبة القاهرة الفاطمية(٩٣) فى ضوء حماسة صلاح الدين الغامرة للمذهب السنى، بيد أن ذلك لا ينفى أن هذين الإجرائين كانت لهما آثار بعيدة المدى فى جنوح الحياة الفكرية والثقافية إلى المحافظة.

---

(٩١) Nabih Amin Faris, "Arab Culture", p. 12-14.

(٩٢) أسس صلاح الدين فى القاهرة مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية فى القاهرة سنة ٥٦٦هـ، وهو لايزال وزيرا للعاضد الفاطمى، مما يدل على هذا الاتجاه. انظر : ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٥، ص٣٨٥.

عن مكانة العلماء فى زمن صلاح الدين راجع : عبداللطيف حمزة، المرجع السابق، ص ١٥٠ وما بعدها؛ محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى، ص ٨٨-٩٠.

(٩٣) ذكر أبو شامة أنه خُصص يومان فى كل أسبوع لبيع الكتب فى القصر. «... وهى تباع بأرخص الأثمان...». وذكر أن عددها كان أكثر من مائة ألف كتاب، «... وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءا إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدا...».

(كتاب الروضتين، جـ١، ص ٢٦٨).

لقد كانت النشاطات الفكرية والثقافية فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى مرآة صادقة على الحضار ةالعربية الإسلامية، إذ تجلت فيها كافة الخصائص والقسمات التى ميزت تلك الحضارة آنذاك. فباستثناء الغزالى لم يشهد ذلك القرن مفكرا من الطراز المبدع الذي عرفته القرون السابقة فى تاريخ الثقافة والفكر العربى الإسلامى، بل إن الغزالى نفسه كان دارسا للفلسفة، واستخدم دراسته فى هدم الفلسفة على حد تعبير أحد الباحثين.[٩٤] وكان الاتجاه العام للتيارات الفكرية يسير نحو تأمل ما أنجزه السابقون ومحاولة شرحه وتبسيطه، أو تجميعه.

وفى تقديرنا أن ذلك كان يعكس حال حضارة وصلت إلى أقصى نمو وتطور، وعندما بدأت تستقر لتجنى ثمار إنجازاتها الثقافية والفكرية فوجئت بهجوم أتباع دين آخر يهددون وجودها ذاته. ولذلك صار النشاط الثقافى فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى موجها نحو الحفاظ على التراث الفكرى المجيد أكثر منه نحو المشاركة فى إثراء هذا التراث. ولم تبد فى هذا القرن بادرة حقيقية تدل على الإبداع والتجديد اللذين ميزا حركة الثقافة العربية الإسلامية قبل هذا القرن. وبدأ العلماء يتجهون نحو التجميع والتركيب بدلا من الابتكار والابداع والتجديد. وظهرت فى هذا العصر مؤلفات ضخمة ذات طبيعة موسوعية، أو شروح وتفسيرات جامعة، أو كتب تبسط العلوم وتختصرها مثل : تفسير القرآن الكبير للفخر الرازى، وكتاب «المبسوط» للسرخسى، و«بدائع الصنائع» فى الفقه للكاسانى،[٩٥] وما إلى ذلك.

وفى عصر سلاطين المماليك تزايد اعتماد السلاطين على أهل العمامة من علماء الدين والفقهاء باعتبارهم واجهة شرعية للحكم، كما تزايد تدعيم الاتجاه المحافظ فى الفكر والتأليف، بل إن مفكرا سلفيا مثل «ابن تيمية» تعرض لمحنة كبيرة لأنه أراد

---

(٩٤) Nabih Amin Faris, op. cit., pp. 17-18, ff.

(٩٥) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى، ص ٧٥-٩١.

الرجوع بالفكر الإسلامى إلى بساطته الأولى - ولم يطرح اتجاها فلسفيا أو عقليا جديدا - فى مواجهة تيار المحافظة والاجترار الذى أدى إلى الجمود. وقد ارتبط أهل العمامة ارتباطا وثيقا بالدولة المملوكية،[٩٦] وجنحت آراؤهم إلى تملق الدولة وتبرير أفعالها - على الرغم من ظهور بعض المواقف المعارضة فى بداية ذلك العصر على نحو خاص -. وكانت النتيجة تصاعد الاتجاه الاجترارى والتبريرى، بل إن مجالس السلطان الغورى، مثلا، تكشف عن عقم الحياة الفكرية، لأن الفقهاء كانوا يتبارون فى حل مسائل فقهية مستحيلة على سبيل الرياضة العقلية، وكأنهم فرغوا من حل مشكلات زمانهم المتأزمة. ولكنه وجدوا فى اجتهادات الأئمة الأربعة مخزنا لا ينضب لحلول تقليدية فى أمور غير تقليدية.

وفى ذلك العصر تصاعد الاتجاه نحو التجميع، والتأليف الاجترارى، والشروح، والمبسطات وشروح الشروح. وغالبا ما يكون هذا الاتجاه علامة على التوقف الفكرى والجمود الذي يعترى حضارة من الحضارات. وعلى الرغم من أن الموسوعات والمؤلفات الشاملة - مثل : «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» للعمرى، «ونهاية الأرب فى فنون الأدب» للنويرى، و«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» للقلقشندى - قد حفظت لنا تراثا فكريا مجيدا فى كافة نواحى الحياة إلاأن هذا النمط من التأليف التجميعى، الذى لا يقوم على الابتكار، كان انعكاسا لظروف الحضارة العربية الإسلامية التى كانت تعيش عصرها الأخير، وتحاول الدفاع عن نفسها ضد الهجوم الذى واجهته فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الميلادية من جانب الصليبيين، وضد الخطر الذى واجهته بشكل مؤقت من الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى، وضد الهجوم الأوروبى المستمر فى الأندلس، ثم محاولة الالتفاف حول المشروعات الصليبية المتأخرة فى القرن الخامس عشر الميلادى. لقد كانت هذه الموسوعات، والمعاجم التى جمعت مفردات اللغة العربية (مثل : «لسان العرب» لابن منظور، «والقاموس

---

(٩٦) قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ٢٤-٣٣٢.

المحيط» للفيروز ابادى) تعبيرا عن رغبة فى الحفاظ على الذات الحضارية التى يتهددها الهجوم من كل مكان. فقد كان هدف الموسوعات والمعاجم جمع شتات الإنجازات الفكرية للحضارة العربية بقصد حفظها من الضياع. لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية فى حال الدفاع عن الذات، وأراد أبناؤها لم تراثها وحفظه.

وفى هذا العصر تجسد «السلف الصالح» مفهوما اجتماعيا/ثقافيا، وصار البحث فى تراث السلف الصالح من الفضائل الثقافية آنذاك. وظهرت تجليات هذا التوجه فى سيادة الاتجاه المحافظ الذى لم يلبث أن تحول إلى التأليف التجميعى الأجترارى. وفى عصر سلاطين المماليك باتت مصر هى المعقل الأخير للحضارة العربية الإسلامية، ولذلك توافد عليها اللاجئون من العلماء والفقهاء الهاربين من الظروف السياسية والاجتماعية المتردية فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه. واتجهت أعمال أغلبية أولئك العلماء إلى جمع الموسوعات الضخمة التى لم تترك صغيرة ولا كبيرة دون تدوين.[٩٧]

وعلى الرغم من التدهور الثقافى العام إلا أن حركة التدوين التاريخى كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر. ففى ذلك العصر وصلت الكتابة التاريخية إلى أرقى مستوى وصلت إليه فى تاريخ الفكر العربى. وكان ذلك العصر بمثابة المعرض الحى لمدى التنوع والثراء الذي وصل إليه التدوين التاريخى.[٩٨] بيد أن هذا التوهج الأخير شابته ظاهرة لافتة للنظر وهى ظاهرة «الذيول»، أو التأليف استكمالا لكتاب آخر مشهور، وربما يكون السبب فى ذلك أن مؤلفي هذه الكتب «الذيول» كانوا يرغبون فى ضمان الرواج لأنفسهم ولكتاباتهم بنسبتها إلى كتاب مشهورمثلما فعل السخاوى عندما ألف كتاب «التبر المسبوك فى ذيل السلوك» ليكون منسوبا إلى كتاب المقريزى الشهير «السلوك لمعرفة دول الملوك». وربما يكون الاتجاه المحافظ الذى ساد الحياة

---

(٩٧) عبداللطيف حمزة، مرجع سابق ص ٣١٥-٣٣٢.

(٩٨) عن هذا الموضوع راجع : قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ - قراءة فى التراث التاريخى العربى (القاهرة، ١٩٨٢)، ص ١٠٧-٢٧٩.

الفكرية وراء مثل هذه الظاهرة. وعلى أى حال، فقد عكست هذه الظاهرة جانبا هاما من جوانب الروح المحافظة، والسمة الاجترارية للتأليف آنذاك.

ولأن الشعراء والأدباء والمفكرين الرسميين انصرفوا إلى محاولات حفظ التراث، أو جمعه، أو شرحه، أو تكراره، ولأن معظمهم أصبحوا من أبواق الدعاية والتبرير لتعبئة الناس حول قائد بعينه، أو للترويج لاتجاه أو لآخر؛ فقد فشل الأدب الرسمى فى الإجابة عن تساؤلات كثيرة طرحها عامة الناس حول عجز الحكام، ونجاح الصليبيين؛ على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداوعدة، وعلى الرغم من أنهم كانوا أقل شأنا فى المفهوم الشعبى. أليس المسلمون هم أتباع الدين الحق؟ فلماذا كانت الهزيمة وانتصار الفرنج الكفرة ؟

لقد فشل الحكام ودعاتهم فى تفسير هذه التناقضات، كما فشلوا فى تبرير عجزهم عن دحر الصليبيين طوال هذه السنوات الطوال. ولذلك تبلورت تيارات شعبية أخذت تعبر عن رؤيتها الوجدانية، وتفسيرها النفسى/ التعويضى لأحداث التاريخ. ومع مرور الوقت بدأ الأدب الشعبى والفن الشعبى يطرحان نفسيهما بديلا من الأدب الرسمى الذى ناله الجمود والإجترار. وقدم الأدب الشعبى من خلال الشعر، والزجل، والبلاليق (أبيات من الشعر)، ومن خلال السيرة، والحكاية، والنادرة الإجابات الفنية التعويضية عما طرحه الناس من تساؤلات محيرة مضنية.

وعلى الرغم من نجاح المسلمين النهائى فى طرد الصليبيين من المنطقة فى أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى إلا أن ذلك تم تحت مظلة النظام الاقطاعى العسكرى الذى أفرز نظما سياسية سرعان ما تسلطت على الناس عندما انتهت من أداء دورها التاريخى فى التصدى للصليبيين. وقد أدى ذلك إلى تمرد الناس على سلطة المماليك، وبدأت مقاومتهم للمماليك تتصاعد فى الوقت الذى ازدهر الأدب الشعبى، والفنون الشعبية.

ففى ذلك العصر الذى شهد أول هزيمة كبرى للمسلمين فى تاريخهم، والذى شهد خطرا استيطانيا يقتطع أجزاء من قلب المنطقة العربية، شاعت أنباء الرؤى والأحلام التى يرى النائم فيها النبى عليه الصلاة والسلام، أو الخضر، أو أحد أولياء الله الصالحين. وغالبا ما كانت هذه الرؤى والأحلام مرتبطة بالحرب والجهاد ضد الصليبيين.[٩٩] كذلك كانت هذه الرؤى والأحلام تعبيرا عن الآمال التى تجيش فى نفوس الناس حيال واقعهم المرير. وطفق المتعلمون يتكلمون عن القيامة وعلاماتها، ويتناقشون حول الجنة ونعيمها. وازداد تأثير طرق الدراويش فى ثقافة المجتمع، فشاعت أخلاقيات الحزن والاستسلام، والاعتقاد فى الخوارق والمعجزات، والاعتقاد وهوما تكشف عنه تلك الطائفة الكبيرة من أخبار الخوارق والكرامات والخرافات التى تداولها مؤرخو تلك الفترة باعتبارها حقائق تاريخية. لقد بث الناس همومهم وأحزانهم فى أنماط الأدب الشعبى الذى اختاروه وعاء لأمانيهم وأحلامهم، وإطارا لأفكارهم ورغباتهم.

ففى مجال الشعر ظهرت «النبويات»، وهى قصائد مطولة كتبت فى غرض جديد هو الاستغاثة بالرسول، والتوسل إليه برفع المعاناة.[١٠٠] كما تجلت هذه الظاهرة أيضا فى مجال القصص الشعبى الذى كان القصاصون يلقونه على مسامع الناس فى محافلهم وأنديتهم فيطربون لما تحمله هذه القصص فى ثناياها من أحداث وشخصيات تحمل لهم التعويض من واقعهم البائس، وتوفر لهم الأمل، وتنتقم لهم من رموز الظلم.[١٠١]

وحكايات «ألف ليلة وليلة» تحمل أصداء هذه التأثيرات التى تركتها الحروب الصليبية فى العالم العربى فى الجانب الثقافى. والحكايات التى تدور حول الحروب الصليبية فى «ألف ليلة وليلة» ثلاث حكايات تستغرق أكثر من مائتى ليلة، وهى : (١) حكاية الملك نعمان وولديه شركان وضوء الزمان، (٢) حكاية علي نور الدين

(٩٩) محمد سيد كيلانى، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى، ص ٩٥-٩٨.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٧-٢٤٤.

(١٠١) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ، (القاهرة، ١٩٨٦) ص ٧١-٧٢.

ومريم الزنارية، (٣) حكاية الصعيدى وزوجته الفرنجية[١٠٢] لقد سربت الحروب الصليبية بعض أحداثها ووقائعها إلى حكايات «ألف ليلة وليلة»، وفيها نرى التفاعل بين الفن الشعبى والتاريخ. لقد لجأ الفنان الشعبى إلى التعويض من خلال هذه الحكايات لكى يتجاوز الواقع المؤلم بحدوده المكانية، وأطره الزمانية، صوب اللامحدود زمانا ومكانا، ولكى يطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض. لقد جسدت البعد البطولى فى تصور الناس، كما جسدت البعد الدينى أيضا فى البطل الشعبى من ناحية، كما كشفت عن الكراهية والمرارة تجاه الفرنج الصليبيين من ناحية ثانية، وعبرت عن آمال الناس ورؤيتهم للأحداث من ناحية ثالثة.

وحكايات «ألف ليلة وليلة» نموذج ينسحب على السير الشعبية، وعلى سائر أنماط الأدب الشعبى التى أنتج عصر سلاطين المماليك الجزء الأكبر منها، والتى عوضت ذلك العجز والجمود الذى ميز الحركة الفكرية الرسمية آنذاك.

* * *

لسنا ندعى أن هذا هو كل حصاد التجربة الصليبية فى التاريخ العربي، لكننا حاولنا، قدر الطاقة، أن نشير فى إيجاز ووضوح إلى معالم رئيسة فى هذا الموضوع الذى يستحق دراسة قائمة بذاتها. بيد أن أهم ما لفت نظرنا فى معالجتنا لتأثيرات الحروب الصليبية فى العالم العربى أن الفصل بين تفاعلات الاقتصاد والسياسة، والاجتماع والثقافة، أمر يقرب من الاستحالة. فضلا عن أنه يمكن أن يؤدى إلى متاهات ضبابية، كما يمكن أن يفتت الظاهرة التاريخية إلى شذرات متناثرة لا تفيد شيئا. والأهم من ذلك، فى تصورنا، أن رصد هذه التأثيرات يكشف عن مدى ما ينتج من استجابات فى مجتمع يتعرض لعدوان يتهدد وجوده ذاته من ناحية، وما ينتج عن فشل الإدارة العسكرية لمجتمع مدنى بعد زوال الخطر الذى يتهدده من ناحية ثانية. وهذا هو ما يجعل الحركة الصليبية وتأثيرها فى العالم العربى جديرة بالدراسة والتأمل.

---

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٦٧-١٠٢.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى عدد من الاستنتاجات التى قد تكون مفيدة لمن يهتمون بدراسة الظواهر التاريخية الكبرى، مثل الحركة الصليبية، والتى قد تلقى بعض الضوء على عدة حقائق تتعلق بهذه الظاهرة التاريخية الفذة :

أولاً : إن هناك مشكلة تتعلق بتحديد المصطلح فى الأدبيات العربية عن تاريخ الحروب الصليبية، وإن هذه المشكلة، فى تصورى، نابعة من حال التبعية الثقافية والعلمية والفكرية التى نعيشها. ولا يعنى هذا أننا ندعو إلى نوع من الخصام الفكرى والعلمى مع الحضارة المعاصرة بكل منجزاتها، فذلك أبعد ما يكون من موقفنا الفكرى. ولكننا نريد أن ننبه إلى أننا مازلنا نستهلك النتاج الفكرى والعقلى للآخرين، وبما أن نتاج كل مجتمع فى مجال الفكر والثقافة تعبير عن هذا المجتمع ومحاولة لحل مشكلات اجتماعية/ثقافية يواجهها، فإن نقل المصطلحات والمواقف الفكرية - دون نقد - قد يوقعنا فى منزلق استخدام مصطلحات مضادة لموقفنا الفكرى والقومى أيضا. وهذا بالضبط ما حدث باستخدام مصطلح «الحروب الصليبية» الذى نقلناه وترجمناه عن مؤرخى الغرب.

ثانياً : إن تطور الفكرة الصليبية فى الغرب الأوروبى الكاثوليكى كان نتاجا للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى نجمت عن انهيار سلطة الامبراطورية الرومانية فى الغرب فى القرن الخامس الميلادى، ثم الغزوات الجرمانية، ثم تبلور سلطة الكنيسة والبابوية، وصولا إلى نمو النظام الاقطاعى وبداية ظهور البورجوازية. فقد كانت الحركة الصليبية نتاجا للتفاعل بين الكنيسة والاقطاع، وتجلى هذا فى أوضح صورة من خلال النزاع بين الكنيسة والدولة من جهة، والنزاع بين الدولة وأمراء الاقطاع من جهة أخرى. وفى ألمانيا وفرنسا وبعض مناطق غرب أوروبا جرت الأحداث فى هذا الاتجاه بحيث وجهت البابوية دعوتها الصليبية إلى الفرسان

الاقطاعيين، وتجاهلت رؤوس أوروبا المتوجة. ومن ناحية أخرى كانت البورجوازية الفتية في المدن التجارية الايطالية تحاول الاستئثار بتجارة البحر المتوسط، فانضمت إلى المشروع الصليبي.

ثالثاً : كان المشروع الصليبي مشروعا استيطانيا في مصطلحات كاثوليكية، ولذلك فهمته كل طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي - صاحب النصيب الأكبر في الحركة - وغيره من المجتمعات، التي انضمت فيما بعد إلى الحملات الصليبية، بالطريقة التي توافق مصالحها الطبقية وتطلعاتها نحو حياة أفضل عجزت ظروف أوروبا المتردية في ذلك الحين عن تحقيقها. وتأتي الحملة الشعبية، أو حملات العامة، تعبيرا عن هذا الاتجاه الذي جعل الحملة الصليبية مشروعا لحل مشكلات أوروبا القرن الحادي عشر الميلادي على حساب المنطقة العربية وتحويلها إلى مجال حيوي للنفوذ السياسي والاقتصادي لأوروبا الكاثوليكية.

رابعاً : كشفت أحداث الحملة الصليبية الأولى، والحملات التي تلتها عن معادلة هامة تحكم التاريخ السياسي لهذه المنطقة. فقد نجحت الحملة الأولى بفضل التشرذم والتمزق السياسي الذي جعل المنطقة نهبا للنزاع بين السنة في بغداد والشيعة في القاهرة وأتباعهما في بلاد الشام، وبين السلاجقة والعرب، وبين زعماء البدو وأمراء العرب في المناطق الحضرية. ومضت السكين الصليبية في الزبد العربي بسهولة ويسر بسبب هذه الفرقة السياسية. وقد تعين على الغرب الأوروبي أن يدفع بموجات تلو موجات للدفاع عن النصر الذي حققته الحملة الأولي. وخلال الصراع الطويل على مدى قرنين من الزمان كانت المعادلة واضحة دون لبس أو غموض، الوحدة والعمل المشترك في الجانب الإسلامي يقابلهما تدهور وهزيمة في الجانب الصليبي، والعكس صحيح تماما.

خامساً : إن حصاد المواجهة الإسلامية/ الصليبية كان سلبيا على الجانب العربي/ الإسلامي، إذ تعين على المنطقة أن تحشد كل مواردها وإمكاناتها في خدمة

المجهود الحربى، وكان الإفراز السياسى هو نموذج الدولة العسكرية الاقطاعية، وقد نجحت هذه الدولة - التى تطورت نظمها عبر سنوات طوال من التجارب والخبرات السياسية والعسكرية - فى مهمتها التاريخية، وضرب الوجود الصليبى حقا، ولكنها فشلت فى إدارة المجتمع على أسس مدنية. وحين تدهور نظامها السياسى بدأت تمارس التسلط على شعوبها وهو الأمر الذى أدخل المنطقة فى منحنى التدهور الحاد منذ القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى.

رقم الإيداع ٧٨١٥ / ٩٣

الترقيم الدولى I . S . B. N . 977 - 5487 - 02 - 1

طبع بمطابع دار روتابرينت للطباعة

الحروب الصليبية



